رحلة نيبور الكاملة

إلى العراق

مراجعة وتعليق وتقديم

الاستاذ سالم الآلوسي



رحلة نيبور الكاملة
إلى العراق

تأليف

كارستن نيبور

ترجمة

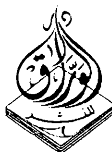
سعاد هادي العمري

مصطفى جواد

محمود حسين الأمين

مراجعة وتعليق وتقديم

سالم الألوسي



* الكتاب: رحلة نيبور الكاملة إلى العراق
* تأليف: كارستن نيبور
* ترجمة: سعاد هادي العمري ـ من البصرة إلى الحلة
مصطفى جواد ـ بغداد في رحلة نيبور
محمود حسين الأمين ـ رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر
* مراجعة وتعليق وتقديم: سالم الألوسي
* الطبعة: الأولى الورّاق للنشر 2012

* تصميم الغلاف: دار الورّاق

www.alwarrakbooks.com

ISBN: 9789933-493-02-8

التوزيع

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول
ص.ب 113-6435 بيروت ـ لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

Alwarrak Publishing Ltd.
26 Eastfields Road
London W3 0AD-UK
Tel: 00442087232775
Fax: 00442087232775
warraklondon@hotmail.com

شركة دار الورّاق ش.م.م
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي
هاتف: 00961-1-341927
فاكس: 00961-1-750053

شركة بيت الورّاق للنشر والتوزيع المحدودة
العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي
تلفون: 009647702749792
009647801347076

المحتويات

مشاهدات نيبور في رحلته
منَ البصرة إلى الحلّة سنة 1765م

بغداد في رحلة نيبور
karsten Niebuhr

رحلة نيبور
إلى العراق في القرن الثامن عشر

تصدير

لقد لعب الاستشراق والصراع الأوروبي دوراً فاعلاً في دفع عدد كبير من الرحّالة لزيارة العراق، فأرسلت دول أوروبا رحّالة لدراسة واقع العراق الجغرافي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي والديني والآثاري.

لقد سجّلت ووثّقت هذه الرحلات أحداثاً وأماكن كثيرة، وسلّطت الضوء على الكثير من النواحي الآنفة الذكر بالرغم من الأغراض التي قامت من أجلها.

إنّ هذه الرحلة مهمة جداً ونقدمها اليوم للقارىء العربي كي يطّلع على حال العراق قبل ثلاثة قُرون.

وقد عمل على ترجمتها:

1 ـ سعاد العمري: حيث ترجم القسم من البصرة إلى الحلة ـ من اللغة الألمانية إلى اللغة العربية.

2 ـ محمود الأمين ـ ترجم قسم بغداد إلى شمال العراق من اللغة الألمانية إلى العربية.

3 ـ مصطفى جواد ـ ترجم قسم بغداد فقط من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية.

وقد حرصنا أن نقدّم ترجمة مصطفى جواد من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية بالرغم من تقاربها من ترجمة محمود الأمين لقسم بغداد.

الناشـــر

المقدمة[1]

بقلم: سالم الألوسي

1 ـ أهمية العراق السياحية:

اجتذبت بلاد الرافدين (ميزوبوتاميه)، منذ أقدم العصور، العديد من السياح والروَّاد والرحّالين، لما كان لهذه البلاد العريقة في القدم، الوافرة الخيرات، من شهرة واسعة، وصيت ذائع، في عوالم الحضارات والآثار وما ورد عنها من أخبار وحوادث في الكتب المقدَّسة، كما أنَّ ثرواتها الزراعية والمعدنية، كانت ولا زالت، موضع جشع وأطماع الطامعين، وهذا يُضاف إلى موقعها الجغرافي الممتاز، وبذلك يتمتَّع العراق بعناية الكتَّاب والمؤرّخين منذ قديم الزَّمان. فقد كان مسرحاً لحوادث تاريخية جسام وموطناً ازدهرت فيه حضارات عديدة كالحضارات السومرية والبابلية والآشورية، وأخيراً الحضارة العربية الإسلامية، ولعبت بعض حواضره وأقاليمه أدواراً خطيرة في ميادين الثقافة والفنون والآداب والسياسة. فكانت بغداد قبلة الشرق في أيَّام ازدهار الحضارة، فقد ورد اسمها على كلّ لسان، وارتسمت حوادثها وشخوصها في الأخيلة، وكان لكتاب «ألف ليلة وليلة» أثر بارز في التعريف بعادات وتقاليد

(1) مقدمة كتاب «رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر. ترجمه عن الألمانية: الدكتور محمود حسين الأمين: راجعه وعلّق عليه ووضع فهارسه: سالم الآلوسي، نشرته: وزارة الثقافة والإرشاد. بغداد ـ 1385هـ ـ 1965م. ص3 ـ 23.

وقصص، كانت تلهب مشاعر القرَّاء وتدفعهم للمزيد في طلب المعارف والمعلومات للوقوف على أحوال الشرق.

2 ـ أهداف الرحلات وأغراضها:

كانت الحروب الصليبية أوَّل محاولة أوروبية، على نطاق واسع، لاستعمار الشرق، ثمَّ جاء بعد ذلك عصر النهضة الصناعية ونشاط الحركة العلمية، فتنبَّهت أوروبا إلى أهمية الشرق وما فيه من إمكانيات عظيمة في جميع الميادين، وبناءً على ذلك اندفعت حكوماتها ودوائرها ومؤسساتها إلى إرسال البعوث تلو البعوث، لتحرِّي أحواله ودراسة ماضيه وحاضره، مستهدفة في ذلك شتى الأهداف ومندفعة وراء غايات ومقاصد، كان في طليعتها السيطرة الاقتصادية والبحث عن الأسواق الجديدة لتصريف بضائعهم المصنوعة والحصول على المواد الخام بأبخس الأثمان، كلّ ذلك يُضاف إلى شهوة الاستيلاء والتوسُّع والسيطرة. وقد بلغ التنافس بين الدول الأوروبية حدّاً دفع البعض منها إلى خوض غمار الحروب وسلوك الوسائل المشروعة وغير المشروعة في سبيل ذلك، فأخذت تلك الحكومات والمؤسسات ترسم الخطط وتدرس الأُمور بكلّ أناة وصبر، كما جنَّدت كلّ ما تيسَّر لديها من إمكانيات مادّيَّة وأدبية وعلمية، لتحقيق ذلك، فكان بعوثها وسفاراتها وقناصلها يجوسون خلال البلاد متنقلين بين أصقاعها، بين بواديها وجبالها، بحارها وصحاريها، ولم تفتَّ في عضدهم صعوبة ولم تثنهم عن متابعة أسفارهم وإنجازها مشكلة ولا عاقهم عائق.

وقد برزت ظاهرة ملفتة للنظر، هي تضاعف عدد السيَّاح والرحَّالة إلى بلدان الشرق الأدنى، بعد غزو نابليون لمصر، ومن ثمَّ بلاد الشام، نذكر منهم الرحَّالة الذين وفدوا عام 1800م مثل: بوشان، روسو،

أوليفيه. ثمَّ أوبرت (1806م)، دوبر (1808م)[1]. يُضاف إلى هؤلاء السيَّاح عدد كبير ممَّن جنَّدتهم الحكومة الفرنسية والمؤسسات الأُخرى لخدمة أغراضها. وقد حذت حذو فرنسا بقية الحكومات الأوروبية كبريطانيا وألمانيا وغيرهما.

بين هؤلاء السيَّاح نجد عدداً كبيراً من العلماء المشتغلين بعلم الآثار، توصَّل بعضهم إلى فكّ رموز الكتابات المسمارية والهيروغليفية، فأخذت على أثر ذلك المتاحف ودوائر الآثار والمعاهد العلمية والثقافية تتزاحم بينها للحصول على إجازات التنقيب عن الآثار واكتشاف المدن الدارسة. وفي الحقيقة إنَّ ما دوَّنه هؤلاء وكتبوه عن أحوال البلاد الاجتماعية والتاريخية والآثارية والجغرافية، تُعدُّ ثروة تاريخية وأدبية جليلة الفائدة، ومصدراً من أوثق المصادر. ولا يفوتنا في هذه العجالة التنويه بأنَّ بعض الرحلات والسياحات كانت بدافع الاتجار والهواية الشخصية وحبّ الاطلاع أو المغامرة وتزجية الفراغ، إلَّا أنَّ القسم الأعظم من البعوث التي جاست بلاد الشرق، كانت بعثات رسمية، موَّلتها وأشرفت على أُمورها جهات حكومية ومؤسسات رسمية، وكما تعدَّدت أغراض البعثات ومراميها تعدَّدت كذلك جنسياتها واللُّغات التي كانت تتكلَّم بها ودوَّنت معلوماتها، فكانوا يمثّلون أُمماً مختلفة وجنسيات وديانات متباينة. غير أنَّ أمراً واحداً كان يجمعهم ويشدُّ من أزرهم، ذلك هو الولوج إلى مجاهيل الشرق ودراسة أحواله وتاريخه وجمع المعلومات المهمَّة عنه.

3 ـ رحلة كارستن نيبور:

اتسمت القرون الثلاثة الأخيرة بنشاط عظيم في ميدان الرحلات

---

(1) أسماؤهم بالحروف الإفرنجية: بوشان Beauchamp (L'Abbde)، روسو Rousseau، أوليفيه Olivier (G.A)، أوبرت Oppert (Jupes)، دوبر Dupre

والسياحة إلَّا أنَّ أضخم بعثة علمية أوروبية اتجهت نحو بلاد الشرق، كانت، بلا ريب، «رحلة كارستن نيبور» التي مضىٰ عليها قرابة مائتين وخمسين عاماً، وقصَّة هذه الرحلة من أمتع الرحلات وأجلّ ما كتب في هذا الميدان، كما سيطّلع عليها القارىء الكريم وبالنظر إلى أهميتها، لا بُدَّ لنا أن نمهّد لها بموجز عن حياة الرحَّالة «كارستن نيبور» الملأى بالمفاجآت وغرائب الأُمور.

4 ـ حياة كارستن نيبور:

كارستن نيبور رحَّالة ألماني الأصل، كان أبوه فلَّاحاً من مقاطعة سيليزي وقد ولد في مدينة «الدنغورث Lüdingworth» في مقاطعة «لاونبرغ Lauenberg» في السابع عشر من آذار/مارس من عام 1733م. وقد بدأ حياته فلَّاحاً يساعد والده في الزراعة، ولم يفته استغلال فرصة الفراغ الإقبال على الدراسة وتعلّم فنون المساحة Surveying، دخل بعد ذلك جامعة گوتنگن Guttingen لدراسة الرياضيات وعلم الفلك. وقد بدأ تعليمه وهو في سنِّ الثانية والعشرين.

ونتيجة لقيام عدد من الرحَّالة الأوروبيين برحلات إلى بلاد الشرق وأفريقيا، وكتاباتهم عن شعوبها وأوضاعها وتقاليدها، ومن بين ذلك اهتمامهم باللُّغات الشرقية والأفريقية، ممَّا دفع أحد أساتذة جامعة گوتنگن بألمانيا هو الأُستاذ «يوهان ديفيد ميخائيليس» إلى تبني فكرة إيفاد بعثة علمية إلى الشرق، على أن ينضم إليها واحد من علماء اللُّغات العربية القديمة (أي السامية)، وذلك سعياً وراء المدلولات الواقعية لبعض نصوص الكتاب المقدَّس، فكتب رسالة إلى البلاط الدانماركي لتحقيق الفكرة والإنفاق عليها، ولم يلبث أن استجاب لها ملك الدانمارك بحماس، فكان كارستن نيبور من بين أعضاء هذه البعثة العلمية إلى بلاد العرب.

5 ـ كيف بدأ مشروع البعثة؟

في عام 1760م قرَّر ملك الدانمارك ـ فريدريك الخامس ـ إيفاد بعثة علمية مشتركة إلى بلاد الشرق الأدنى وجنوبي الجزيرة العربية، لتقصِّي الحقائق والأخبار والمعلومات العلمية التي استدعي (نيبور) للانضمام إليها. وقد أقلعت البعثة من كوبنهاگن متوجهة صوب الشرق صباح يوم 4/ 1/ 1761م، غير أنَّ الترتيبات والتحضيرات لها، بدأت قبل هذا التاريخ بسنوات، وعلى وجه التحديد كان ذلك في عام 1756م، وكان المحفز على القيام بها والدماغ المفكِّر من ورائها، هو أحد العلماء الألمان المتخصصين بالدراسات اللاهوتية (يوهان ديفيد ميخائيليس) أُستاذ اللُّغة العبرية بجامعة گوتنگن، الذي بعث برسالة خاصَّة إلى وزير خارجية الدانمارك (بيرنشتروف ج. هـ. اء J. H. E. Bernstroff) الذي قام بدوره بإقناع ملك الدانمارك بأهمية هذه البعثة والفوائد المتوخاة منها.

كانت الدانمارك يومئذٍ من الدول ذوات المركز المرموق في أوروبا، وكان لها بعض المستعمرات في الشرق مثل (ترانكبار Trankbar)، وقد أقدم ميخائيليس على عرض فكرته التي راودت مخيلته وشغلت ذهنه طويلاً، تتلخَّص بإرسال بعثة تجوب أنحاء الشرق وجنوبي جزيرة العرب للقيام بدراسات جغرافية وتاريخية ولغوية واكتشاف مجاهيلها والوقوف على أحوالها، ورأى أنَّ الدانمارك مؤهلة لذلك، لوجود مستعمرات لها في بلاد الشرق، فكان بإمكانها أن ترسل بانتظام البعوث والموظفين لدراسة أحوال تلك البلاد. ولا بُدَّ لنا أن نسأل عن الدوافع الحقيقية لتبني ميخائيليس هذه والعمل لها بحماس يستثير الاستغراب، فمن هو ميخائيليس؟

6 ـ ميخائيليس (يوهان ديفيد ـ Johan Devid) Michaelis 1717 ـ 1791:

عالم ألماني متخصص بالدراسات اللاهوتية المتعلِّقة بالكتاب

المقدَّس، وأُستاذ اللُّغة العبرية بجامعة گوتنگن. ولد في مدينة (هالة Halle) في 27/ 2/ 1717م في عائلة أكثر أفرادها من العلماء الذين برعوا في دراسات الكتاب المقدَّس.

بدأ ميخائيليس حياته محاضراً بجامعة هالة عامي 1739م - 1740م، ولم يكن خلال هذه الفترة راضياً عن حياته أو يشعر بالاطمئنان الكافي هناك، ولم يجد الجوّ الذي يعبّر فيه عن عقيدته ومشاعره الدِّينيَّة. وبسبب تمسُّكه بمبادىء الفلسفة العملية Empricism وفي بيئة لم تقابل آراءه بما كان يتوقَّع من القبول، اضطرَّ إلى قبول وظيفة في گوتنگن. وفي عام 1750م رقي إلى درجة أُستاذ، ولبث على ذلك حتَّى وفاته في 22/ 8/ 1791م. وقد نشر عدداً من البحوث والمقالات والمؤلّفات ذكرت في (دائرة المعارف البريطانية، فليراجعها من أراد الوقوف عليها).

لقد تبيَّن لنا أنَّ ميخائيليس كان أُستاذاً في جامعة گوتنگن الواقعة في مقاطعة هانوفر بألمانيا، وكانت بين هذه المقاطعة وإنكلترا روابط ثقافية وشخصية وعقائدية، ومن المعلوم أنَّه نشأت في إنكلترا مدرسة فلسفية جديدة برئاسة الفيلسوف الإنكليزي (جون لوك John Lock) فبعد أن كانت الفلسفة خلال مدة طويلة مرتبطة باللاهوت وسابحة في عالم الخيال، مهَّدت هذه المدرسة الجديدة لظهور الفيلسوف الألماني (كانت Kant) 1724م ـ 1804م، فكان ميخائيليس من معتنقي الفلسفة العملية والمروّجين لمبادئها، وهي فلسفة لا تؤمن بمبادىء الفلسفة العقلية، وبذلك هجر ميخائيليس كافة النظريات الخاصَّة بالكتاب المقدَّس (الإنجيل والتوراة)، فكان من رأيه أن يخضع الكتاب المقدَّس للنقاش العلمي والنقد المنطقي والتفسيرات اللغوية.

ولغرض تحقيق هذا الأمر، رأى من المفيد جدّاً أنَّ السفر إلى بلاد

العرب والأرض المقدَّسة، على وجه الخصوص، قد يوضّح الكثير من المشكلات والصعوبات التي يُلاقيها في دراساته التاريخية وتحقيقاته اللغوية الواردة في الكتاب المقدَّس، يُضاف إلى ذلك الأهمية المتأتية عن دراسة جغرافية المنطقة وأحوال أهلها ونباتاتها وحيواناتها ومعادنها إلى غير ذلك من الأُمور. وكان يركِّز، بصورة خاصَّة، على دراسة أحوال سكَّانها العرب وعاداتهم وتقاليدهم وفنونهم وعمارتهم، لكون العرب هم كلّ ما بقي من الأُمم القديمة التي عاشت في هذه البقعة من العالم، والتي جاء ذكرها في ثنايا الكتاب المقدَّس، وكذلك بعض المدن والأماكن القديمة التي ظلَّت شاخصة للعيان تطاول الزمن. فكان يرى أنَّها فرصة لا تقدَّر بثمن للقيام بتقصِّي أخبار المجتمعات الثقافية المماثلة لتلك التي قامت في فلسطين!!!، ثمَّ إنَّ البحث عنها ودراسة أحوالها تُعدُّ أكثر جدوى وأعمّ فائدة من تلك التي تجري في فلسطين نفسها بسبب تعرُّضها إلى الكثير من التأثيرات والحوادث الخارجية عبر العصور.

ويُضاف إلى ما تقدَّم، كانت تستهوي ميخائيليس فكرة التوصُّل إلى تعليل منطقي ومعقول لعملية (الخروج Exodus) ـ أي خروج اليهود من مصر إلى الأراضي المقدَّسة.

ومن هنا، وعلى هذا الأساس، اقترح إيفاد بعثة أو أشخاص إلى بلاد العرب ـ ضمن من يوفد إلى (ترانكبار) ـ وذلك لأغراض التدريب والتمرين، على أن تخصّص حكومة الدانمارك زمالة لمدة ثلاث سنوات لطالبين من طلَّاب جامعة (گوتنگن) للتدريب على أعمال البعثة المقترحة، وبعد اتصالات ومداولات وافقت حكومة الدانمارك على تشكيل البعثة برئاسة (فون هافن) وأعضاء آخرين كان من بينهم (كارستن نيبور).

7 ـ تكوين البعثة وبدايات رحلتها:

في صباح اليوم الرابع من شهر كانون الثاني/يناير من عام 1761م ركب الباخرة الدانماركية «غرينالد Greenland» خمسة من العلماء المتخصصين بمختلف فروع العلوم والمعارف، مع خادمهم الدانماركي، وقد جمعهم أمرٌ وحفَّزهم هدف صمَّموا على تحقيقه، مهما كانت الظروف والأحوال، مدفوعين بالأسطورة التي تتحدَّث عن بلاد اليمن السعيدة وبلاد العرب، فاتجهوا نحو عالم مليء بالمجاهيل والمخاطر، غريب عنهم في الطباع والتقاليد واللُّغة، وفي الملبس والمأكل والجنس والدِّين. . . وفي كلّ شيء، وقد وزّعت أعمال البعثة وواجباتها على أعضائها الخمسة. وكانت مؤلفة من خليط من الجنسيات، فقد كانت تضمُّ عالمين من الدانمارك وعالمين من ألمانيا وسويدياً واحداً، كان جميع هؤلاء من الشبّان اليافعين، إذ لم يبلغ أكبر الأعضاء سنّاً الرابعة والثلاثين عاماً، بينما لم يتجاوز أصغرهم الثامنة والعشرين. أمَّا هؤلاء فهم:

1 ـ البروفيسور بيتر فريدريك كريستيان فون هافن. (دانماركي) Prof. Peter Friedrich Von Haven رئيساً للبعثة، وهو مستشرق وعالم في اللُّغات القديمة ومسؤولاً عن الدراسات الإثنولوجية.

2 ـ الدكتور كريستيان كارل كريمر (دانماركي). Dr. Cristian Carl Kramer وهو طبيب جرَّاح، مسؤولاً عن الدراسات والبحوث المتعلقة بعلم الحيوان والعلوم الطبيعية.

3 ـ الضابط المهندس كارستن نيبور (ألماني). - Engineer Lieutenant Carsten Niebuhr. وقد أُنيطت به مسؤولية الدراسات الجغرافية والفلكية والرياضيات.

4 ـ الهر جورج ويلهلم باورينفايند (ألماني). Herr Georg Wilhelm Baurenfeind. وهو فنان كانت مهمته الرسوم الفنية وحفرها على النحاس.

5 ـ البروفيسور بيتر فورسكال (سويدي). Prof. Peter Forsskal. طبيباً للبعثة ومتخصصاً بالدراسات النباتية.

6 ـ أمَّا خادم البعثة فكان بورغ غرين (سويدي) Burg Green.



وفي صباح يوم 4/ 1/ 1761م وكان يوماً قارس البرد، أقلعت السفينة غرينلاد من ميناء كوبنهاگن، مارةً بميناء مرسيليا ومنه إلى إسطنبول، حيث وصلتها في 30/ 7/ 1761م. وفي هذه المدينة استقبل البعثة (فون گاهلر Von Gähler) سفير حكومة الدانمارك لدى الباب العالي. ولم تتمكَّن السفينة غرينلاد من مبارحة إسطنبول إلَّا في 11/ 9/ 1761م بسبب تردِّي صحَّة كارستن نيبور، ولانصراف باقي أعضاء البعثة إلى التبضُّع وشراء بعض الحاجيات واللوازم من أسواق المدينة، وكان من أبرزها شراء الملابس العربية التي حصلوا عليها بمساعدة السفير (فون گاهلر) الذي أسدىٰ إليهم النصح بارتدائها فور مغادرتهم إسطنبول.

وفي 19 أيلول/ سبتمبر مرَّت السفينة بجزيرة (ساموس Samos) ومنها رست في جزيرة (رودس) يوم (21/ 9) ومنها توجّهت إلى الإسكندرية فوصلتها يوم (26/ 9).

لقد أمضت البعثة حوالي السنة في مصر لدراسة أحوالها وآثارها، بعدها أبحرت من الإسكندرية عبر النيل متوجهة إلى السويس، إذ لم تكن قناة السويس قد حُفرت بعد، فقد كان افتتاحها وتدشينها لعبور السفن من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر عام 1869م. وفي خلال هذه المدة أُتيحت لـ(نيبور) فرصة زيارة جبل سيناء في محاولة

فاشلة لاكتشاف مجاهل شبه الجزيرة. وفي (5) تشرين الأوَّل/أكتوبر 1762م أبحرت البعثة من السويس عابرة (ينبع) إلى جدة، وفيها أمضى أعضاء البعثة شهرين. ومن الأخيرة أبحرت إلى (مخا) في بلاد اليمن، وخلال ذلك لم تخل الرحلة من الصعوبات والمتاعب بسبب النتوءات والصخور المرجانيَّة. هذا وقد أُصيبت البعثة بصدمة كبيرة ومؤلمة بموت رئيسها (فون هافن) الذي توفي في شهر مايو/أيار عام 1763م، وذلك خلال إقامتها في (مخا) بعد إصابته بمرض شديد أودى بحياته، ثمَّ دفن في مقبرة الأوروبيين هناك. وبعد شهرين من هذه الفاجعة، لحق بزميله العالم الطبيعي (بيتر فورسكال) في مدينة (يريم Jerim) في 13/ 7/ 1763م وكانت الملاريا خطراً دائماً، ولم يكن تشخيصها معروفاً آنذاك.

زار (نيبور) مع من بقي من أعضاء البعثة مدينة صنعاء وقابلوا أميرها، عادوا بعدها إلى (مخا) لقضاء فصل الصيف فيها، وكان ذلك من الأخطاء التي ارتكبتها البعثة[1].

وفي بلاد اليمن اتّبع نيبور أسلوباً صارماً في مأكله ومشربه وحياته اليومية، حاكى فيها، قدر المستطاع، أهالي البلاد ممَّا أكسبه مناعة وخبرة مكّنتاه من المحافظة على صحته وحياته، فسهَّل عليه ذلك متابعة سفره.

ومن (مخا) أبحروا إلى بومباي في الهند، وهناك توفي رسام البعثة (باورينفايند)، ثم لحق به (فون كريمر) الذي مات في 10/ 2/ 1764م، وكان عمره 32 عاماً، وبعد أيام توفي خادم البعثة (بورغ غرين) فبقي نيبور العضو الوحيد الذي وقع على عاتقه إنجاز مهام البعثة وواجباتها، ولم يرد إلى ما يشير إلى كيفية وفاة (كريمر) ولكن الشيء الذي يدعو إلى الاستغراب، أنَّ هذا العالم الذي أشرف على تهيئة أُمور البعثة، منذ مغادرتها كوبنهاگن حتَّى وفاته، لم يترك أي أثر أو مذكرات!! ونهايته

---

(1) مجلة الهلال ـ عدد نوفمبر/تشرين الثاني 1964م، ص175.

المحزنة مسألة يحيط بها الغموض وتتراقص حولها علامات الاستفهام، والشيء الذي يصحّ ذكره بهذه المناسبة أنّه لم يكن على وفاق تام مع زميله نيبور[1].

الآن بقي نيبور وحيداً في الميدان، وكان أمامه من الواجبات والمهام ما تنوء به كواهل أعاظم الرِّجال، إلّا أنَّ همّته العالية، وثقافته العلمية، ودأبه المتواصل، وإرادته الحازمة، كلّ ذلك دفعه إلى إتمام الرحلة وإنجاز ما يترتَّب عليها من أعمال واسعة المقاصد، متشعبة الأغراض. اندفع بهمَّة، لا تعرف الكلل، بالرغم ممَّا ساوره من شكوك ومخاوف كادت تزعزع ثقته وتعصف بآماله في العودة إلى أوروبا ورؤية الدانمارك، إلّا أنَّ الذي كان يهمّه ويشغل ذهنه بالدرجة الأولى ضمان وصول ما كتبه وما دوَّنه من مذكرات، وما سجَّله من معلومات علمية، وما رسم من الخرائط إلى الدانمارك.

وفي 24 مارس/آذار 1764م غادر بومباي إلى (سرات Surat) فدرس أحوالها وتجارتها ثم قفل راجعاً إلى بومباي. وكانت له رغبة عظيمة في زيارة بلاد الصين، فرتَّب أُموره على هذا الأساس، وبينما كان بانتظار السفينة التي ستقلّه إلى بلاد الصين، عاودته الحمَّىٰ والمرض ممَّا جعله يغيِّر خطّته في السفر إلى تلك البلاد. وبعد إبلاله من مرضه، التزم طريقة نظامية في غذائه لمدة ستة أشهر، لم يتناول خلالها سوى الأرز المسلوق والفواكه. وبعد أن مكث في بلاد الهند أربعة عشر شهراً، قرَّر العودة إلى بلاده. ولا بُدَّ لنا أن نذكر هنا حقيقة، هي أنَّه أثناء ما كان في بومباي، تجسَّدت له صعوبة الاستمرار

---

(1) يراجع كتاب: بلاد اليمن السعيدة لمؤلّفه «توركيلد هانسن».

Ihorkild Hansen: Arabia Felix, or The Danish Expedition of 1761- 1767.

Traslated by James and Kathleen Mc farlane. pp. 303- 304 (London- 1964)

في السفر، أو بالأحرى استحالته، فراودته فكرة العودة إلى وطنه بحراً بإحدى السفن الذاهبة إلى لندن، غير أنَّه لم يلبث أن أقلع عن هذه المحاولة، وقبل أن يغادر بومباي، هيَّأ نفسه لمواصلة السفر، إلَّا أنَّه احتاط للأمر بأن بعث بمخلَّفات زميليه: فورسكال وفون هافن وما فيها من مذكرات وأوراق، وكذلك بمخلَّفات زميله الآخر باورينفايند المحتوية على الرسوم والمخططات، بعث كل ذلك بطريق البحر إلى لندن خشية ضياع هذه الثروة العلمية أو فقدانها إذا ما بقيت بمعيته، وهو مقبل على أسفار شاقة متعبة وغير مأمونة، مجهولة النتائج[1].

لقد دوَّن نيبور في مذكراته: «. . . يجب أن لا نخسر جميع ثمار هذه الرحلة إذا سرقت أو إذا قضيتُ نحبي»[2]، وعند عودته مرَّ خلال ذلك بمسقط، ومنها توجه، عن طريق الخليج العربي إلى (گمبرون)[3]، ومنها إلى شيراز فخرائب (برسيبوليس)[4] التي غادرها في 7/ 4/ 1765م بعد وفاة خادمه.

وبعد أن أمضىٰ في أطلالها أربعة وعشرين يوماً، قام خلالها برسم

---

(1) راجع كتاب Arabia Felix، ص307.

(2) المصدر نفسه: ص307.

(3) هي ما تُعرف بـ(بندر عبَّاس).

(4) برسيبوليس Persipolis: سمَّاها الإغريق بذلك، ومعناها مدينة الفرس، ومحلياً تُسمَّىٰ أطلالها بـ(جل منار)، أي الأربعين منارة أو أسطوانة. كما يطلق عليها اسم (تخت جمشيد). تقع أطلالها على بعد خمسين كيلومتراً شمالي شيراز وفوق جبل (رهمد Rahmad)، وكانت عاصمة للفرس الإخمينيين، وقد احترقت أيَّام فتوح الإسكندر الكبير لإيران عام 330ق.م، خلال وليمة خمر وحفلة صاخبة، بدأ بناءها الملك دارا عام 520ق.م وأكمل البناء أرتحشستا الأوَّل في حدود 460ق.م. وقد نقبت في هذه المدينة الآثارية سنة 1931م بعثة من المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو برئاسة أرنست هرتسفيلد وقد أظهرت التنقيبات تأثير حضارة العراق القديمة في فنونها وعمارتها.

أطلالها، واستنسخ الكثير من الكتابات المسمارية المنقوشة والمدوَّنة على النصب والمباني القائمة، وتُعدُّ مستنسخاته للنصوص المسمارية من أضبط النصوص وأدقّها التي اعتمدها علماء المسماريات في فكّ رموزها والتوصُّل إلى قراءتها، وبعد أن أكمل عمله في برسيبوليس غادرها متوجهاً إلى بوشهر التي وصلها في 28/ 5/ 1765م، ولم يمكث فيها طويلاً، إذ غادرها متوجهاً نحو البصرة، وذلك بسبب إصابته، وهو في برسيبوليس بالتهاب في عينيه، فسافر بسفينة هولندية صغيرة إلى جزيرة (خارگ Kharg) بأمل انتظار سفينة إنكليزية تقلّه إلى البصرة، فوصل الجزيرة في 31/ 5، إلّا أنَّ الحظ لم يحالفه هذه المرة، إذ غادرت السفينة الإنكليزية جزيرة (خارگ) قبل ساعة من وصوله إليها، ممَّا اضطرَّه إلى البقاء في الجزيرة مضيعاً شهرين من وقته في أشدّ أيَّام الصيف حرارة ورطوبة.

وفي أوائل تموز/ يوليو غادر الجزيرة بسفينة هندية، بسفرة مجانية منحها إيَّاه قبطان السفينة، وقد صادف أن اعترض السفينة بعض الثائرين من أتباع الشيخ سليمان، ثمَّ سمحوا لها بالسفر في 31/ 7، وبعد سفرة استغرقت يومين وصلت السفينة إلى شطّ العرب، فاستهوت نيبور مناظر النخيل وجمال الطبيعة على ضفتي النهر، وفي أوائل شهر آب/ أغسطس وصل البصرة، وقد أحصى خلال تجواله ما يقارب اثنتين وتسعين قرية أثبتها على الخارطة التي رسمها للمنطقة، وقد ذكر أسماءها بالحروف الإفرنجية والعربية على حدٍّ سواء. كما رسم خارطة لمدينة البصرة ذاكراً ثلاثاً وسبعين محلة من محلاتها، كما ذكر خمسة وعشرين صنفاً من أصناف تمورها، وفي مدينة البصرة ذهب إلى القنصلية الهولندية فتسلَّم منها المبالغ التي بعث بها إليه من إسطنبول (فون گاهلر).

8 ـ نيبور ينتحل اسم عبد الله:

لقد انقطعت أخبار كارستن نيبور منذ وصوله البصرة، ولم يعد يبعث

برسائله التي اعتاد أن يبعث بها إلى (بيرنشتروف) الذي كان بدوره يحوِّلها إلى (ميخائيليس). لقد ارتدى نيبور الملابس العربية منذ أن وطئت أقدامه مدينة البصرة، وانتحل اسم عبد الله، بدلاً عن اسم (كارستن نيبور) لشيوع استعماله من قبل المسلمين والمسيحيين بكثرة ملحوظة[1] وبقي على هذه الحال يخفي اسمه الحقيقي (نيبور) حتَّى على خادمه، وقد أمضىٰ عبد الله!! قرابة ستة أشهر عاش خلالها كواحد من أهل البلاد، فوطَّن نفسه على أُنموذج من الحياة كما لو كان عربياً يعيش بين أهله وقومه، سالكاً سبيل الحذر الشديد والحيطة في الكشف عن هويته والامتناع عن كتابة رسائله إلى (فون گاهلر) أو غيره، كلّ ذلك ناجم، على حدِّ قوله، عن حساسية السكَّان المحليين وشعورهم بالشَّك والريبة من كلّ أجنبي أو أوروبي على وجه الخصوص، إلَّا أنَّ أسلوب الحذر الذي اتبعه خلال بقائه في العراق، لم يكن يجعله يغفل عن تدوين مذكراته وتفصيلات أسفاره بدقَّة تدعو إلى الإعجاب والتقدير.



وفيما يتعلَّق بعودة (نيبور) إلى بلاده، أودّ الإشارة إلى ما ورد في مجلة (الأقلام) التي تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد في الجمهورية العراقية من أنَّ (نيبور)... قفل راجعاً إلى بلاده وعاد منها في رحلة ثانية إلى إسطنبول ثمَّ زار إيران ووصل مدينة البصرة حيث بدأ رحلته العلمية في العراق[2].

... لم أعثر خلال تتبعاتي وتعقيباتي حياة هذا الرحَّالة والعالم الكبير على ما يشير إلى قيامه برحلة ثانية، ولغرض إثبات ذلك أذكر في

(1) المصدر السابق نفسه: ص328.

(2) مجلة الأقلام، المجلد الأوَّل، الجزء الأوَّل (1964م) ص59 ـ 60.

السطور الآتية وصفاً موجزاً لعودته إلى وطنه بعد مغادرته العراق متوجهاً إلى حلب حتَّى وصوله كوبنهاگن في 20 نوفمبر/ تشرين الثاني 1767م[1].

تقول: إنَّ نيبور غادر بغداد في 3/ 3/ 1766م فوصل الموصل في 18/ 3 من العام نفسه. وفي 25/ 4 وصل ماردين، وبعد سفر استغرق عدَّة أيَّام وصل ديار بكر، ثمَّ واصل سفره على النهج التالي:

19/ 5/ 1766م غادر نحو مدينة حلب ثمَّ إلى (أورفة) (أديسا القديمة).

6/ 6/ 1766م ركب إلى حلب، وعند وصوله المدينة قابل بعض الأوروبيين وتخلَّىٰ عن اسمه المستعار (عبد الله)، ولم يلبث اسم (نيبور) أن ظهر مرَّة أُخرىٰ، بعد غيبوبة دامت ستة أشهر، وفي حلب ذهب إلى القنصلية الهولندية لمقابلة قنصلها العام (فون مازيك Von Masseyk) فسلَّمه القنصل المذكور رزمة من الرسائل من (بيرنشتروف) و(گاهلر) في 24/ 6/ 1766م ذهب مع قافلة إلى أنطاكية ومنها إلى الإسكندرية.

30/ 6/ 1766م ذهب إلى (بيلان Beilan).

ومن الإسكندرية ركب سفينة فرنسية كانت متوجهة إلى مرسيليا.

18/ 7/ 1766م أنزلته السفينة في (لارناكا Larnaca) في جزيرة قبرص، فزار خرائب (سيتيوم Citium) للتأكّد من ادعاءات (بوكوك Pocock) العثور على كتابات فينيقية.

30/ 7/ 1766م ركب سفينة من (لارناكا) إلى يافا في فلسطين فوصلها بنفس اليوم، وبعد يومين ركب إلى القدس ورسم خارطة لها، ثمَّ توجّه من القدس إلى بيت لحم، وبعد أربعة عشر يوماً من وصوله ركب إلى مدينة (يافا) مع ستة من رجال الدِّين الفرنسيسكان، ومن يافا ذهب بزورق إلى مدينة عكا.

---

(1) اعتمدنا في ذلك على كتاب اليمن السعيدة Arabia Felix.

16/ 8/ 1766م ركب سفينة إلى صيدا، ومنها ذهب بصحبة فلَّاح إلى دمشق.

27/ 8/ 1766م عاد إلى صيدا، ومنها ركب سفينة إلى اللاذقية، عبر طرابلس فوصلها في 29/ 8، وقابل هناك (فون مازيك)، وبعدها بستة أيَّام ذهب إلى حلب.

20/ 9/ 1766م غادر حلب إلى إسطنبول عبر الأناضول.

11/ 12/ 1766م وصل مدينة قونية.

13/ 1/ 1766م وصل مدينة بورصة.

8/ 6/ 1767م سافر مع قافلة إلى (أدرنة Adrianople) قرب الحدود البلغارية، ثم عبر نهر الدانوب عبر سهول ولاكيا (الأفلاق) Wallachia وملدافيا Moldavia.

28/ 6/ 1767م وصل بخارست.

18/ 7/ 1767م عبر نهر الدنيستر قرب بلدة (خوتين Khotin).

1/ 8/ 1767م وصل إلى مدينة ليمبرغ Lemberg أو (لفوف Lwow في بولندا.

8/ 8/ 1767م سار نحو مدينة (لوبلن) وبعد عشرين يوماً وصل مدينة وارشو، فاستقبله ملك بولونيا (بولندا) ستانسلاف بونياتوفسكي Stanslavs Poniatowsky.

6/ 9/ 1767م ومن وارشو، وبعد مسيرة عشرة أيَّام، عبر الحدود إلى ألمانيا فوصل برسلاو، وفي هذه المدينة أنهى كتابة مذكراته.

ومن النظر إلى الخرائط التي رسمها، يمكن متابعة سفره من (برسلاو) إلى مدن، فلداو Waldau، دريسدن، ليبزغ، هانوفر، ومن هذه المدينة توجّه إلى (نايبورغ Nyburg).

وفي 20/ 11/ 1767م ركب إلى كوبنهاگن.



ولا بُدَّ هنا أن نشير إلى أنَّه خلال وجود نيبور ببغداد في كانون الثاني/ يناير من عام 1766م، كان فريدريك الخامس ملك الدانمارك، قد توفي عن ثلاث وأربعين سنة، ولم يكن نيبور على علم بهذا الخبر، وعند وصوله إلى كوبنهاگن، لم تشر الصحف إلى عودة نيبور أو إلى رحلته وأهميتها، بل اعتبر بعض الدانماركيين وصوله في هذا الوقت غير ملائم بسبب وفاة الملك[1]. وبعد محاولات واتصالات، قدَّمه بيرنشتروف إلى الملك الجديد، فاطمأنت نفسه إلى أنَّ جهوده لم تضع سدى أو تبؤ بالفشل، بل لقي كل رعاية وتشجيع.

لقد كلَّفت هذه الرحلة العلمية حكومة الدانمارك مبلغ (21 ألف) رجسدالر Rigsdaler، أو ما يعادل مليون (كرونر) دانماركي [حوالي (50) ألف جنيه استرليني بعملة هذه الأيَّام ـ أي عام 1966م ـ][2]، ولم يكن هذا المبلغ باهظاً إذا ما قيس بكلفة التمثال الذي صنع للملك المتوفى فريدريك الخامس، الذي بلغت ستة أمثال تكاليف هذه الرحلة العلمية[3]، هذا إذا ما علمنا أنَّ قسماً من هذا المبلغ قد خُصِّص لغرض كتابة هذه الرحلة العظيمة.

9 ـ حياته بعد العودة من الرحلة:

في عام 1773م اقترن نيبور بالآنسة (كريستيان صوفي بلومنبرغ Cristian Sophie Blumenberg) وهي فتاة تبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين

---

(1) المصدر السابق: ص355.
(2) المصدر السابق: ص355.
(3) المصدر السابق: ص355.

عاماً، وكانت ابنة طبيب كان في خدمة الملك فريدريك الخامس، وفي السنة التالية لزواجه، نشر المجلد الأوَّل من مذكراته التي تنوف على (500) صفحة، وهي تبتدىء بمغادرة البعثة كوبنهاگن على السفينة (غرينلاند) حتَّى وصوله بومباي في الهند، وبعد ذلك تولى بنفقته الخاصَّة نشر وطبع مخلَّفات زميله (فورسكال). ولما كان فورسكال قد دوَّن مذكراته باللاتينية، حيث لم يكن لنيبور الإلمام الكافي بتلك اللُّغة وآدابها، فقد أودع أمرها إلى رجل سويدي متضلع بها، ظلَّ اسمه مجهولاً. ثمَّ تعهَّد بنشر مدوَّنات (باورينفايند)، وهي حصيلة ما قام به هذا العالم من رسوم للأسماك والمخلوقات المائية والنباتات والطيور، وكانت مؤلفة من (23) لوحة مرسومة بالألوان الزاهية تثير الدهشة والإعجاب لدقّتها، لقد كانت جهود نيبور في هذا الميدان وفاء وتثميناً أو تخليداً لأعمال زملائه في البعثة.

بعد ذلك تولَّىٰ نشر ما بقي من مذكراته التي تقع في حوالي (500) صفحة تتضمن وصف الرحلة من بومباي إلى حلب. ولما كانت هذه الأعمال استنفدت كافة ما يملك من مال، فقد أضاعت عليه فرصة نشر المجلد الثالث من مذكراته.



تبتدىء حياة كارستن بالتدهور والاضمحلال عند مطالبته بوظيفة كتابية في (ملدورف) التي سافر إليها مع زوجته وطفليه في صيف عام 1778م، وبالرغم من أنَّ (نيبور) كان ألماني الأصل، إلَّا أنَّه خلال تنقلاته وأسفاره كان يحمل جواز سفر دانماركي، وكان هو نفسه يستحسن، بل يرغب في أن يقترن اسمه بالتبعية الدانماركية، وكان كثيراً ما يشير إلى ذلك في أغلب كتاباته، وبكلمة أُخرى كان شعوره بدانماركيته قوياً منذ دخوله في خدمة الملك فريديك الخامس.

عُيّن كارستن نيبور عضواً في المجمع العلمي الفرنسي، فوجهت إليه الدعوة لزيارة باريس. أمَّا حياته العائلية فكانت هادئة ومطمئنة، وكانت أسعد أوقاته تلك التي يمضيها مع أطفاله، يقصُّ عليهم قصص بلاد الشرق وأخبار جولاته وسياحاته في تلك الربوع، وتاريخ تلك البلاد وحياة رجالها، وعلى الأخص، حياة الرسول الأعظم محمَّد ﷺ. ومن الحوادث التي أثَّرت في حياته أثراً بالغاً ووسمتها بطابع اليأس، هي كارثة احتراق وتلف الصور المنقوشة على النحاس (الكلايش) التي كانت بحيازته، وهي من صنع الفنان (كليمنس Clemens)، ذلك أثناء حريق هائل اندلعت نيرانه في كوبنهاگن، أتت على الكثير من الأموال والمساكن.

وفي أواخر أيَّامه أخذ ينشد الراحة والاستقرار، فاشترى أرضاً لفلاحتها فلم تدرُّ عليه تلك الأرض غلَّة مربحة، فعاد فلَّاحاً كما بدأ مع والده، ثمَّ توالت عليه النكبات، فأُصيب بالعمى، وكان يشكو من مرض أُصيبت به عيناه أثناء وجوده في برسيبوليس، كما مرَّ بنا.

وفي عام 1807م توفيت زوجته، فتولَّت ابنته مهمَّة قراءة الكتب والوثائق والمستندات لأبيها البصير!! ثمَّ لم يلبث أن عُيِّن له مساعد ـ كان من المعجبين بعلمه وفضله ـ هو (گلوير Gloyer) الذي أخذ على عاتقه نشر المجلد الثالث من مذكراته ولم يكتف القدر بسلب بصره، بل فاجأه بكسر ساقه، فأصبح هذا الرحَّالة الجسور والسائح الجريء، الذي ذلَّل الصعوبات ولم تقف في طريقه العوائق، أعرج!!

وفي 26/ 4/ 1815م، انتهت حياة هذا العالم الفذّ، الذي كان يراقب نجوم اللَّيل بثاقب بصره، ويطوي الصحارى والقفار، بهمَّة لا تعرف الكلل والملل، لم تقعده أخطار السفر، ولم تثنه عن عزمه المصائر المؤسفة التي انتهت بها حياة زملائه، كان يجد متعة كبيرة،

بعد إصابته بالعمى والعرج، في سرد القصص والحوادث التي شاهدها في بلاد الشرق، فكانت صور تلك البقاع والأقاليم، كما ذكر في مدوَّناته، ترتسم بكلّ دقَّة ووضوح في ذهنه.

كانت وفاته في ملدورف، من مقاطعة (ديتمارشين Dithmarchen) عن عمر ناهز الاثنين والثمانين عاماً، مكلَّلة بجلائل الأعمال، فكسب بذلك الشكر والثناء والذِّكر الخالد.



10 ـ أهمية رحلة نيبور:

تُعدُّ رحلة كارستن نيبور أو «البعثة الدانماركية إلى بلاد العرب»، كما أطلق عليها في حينه، بلا ريب، من أهم الرحلات ومن أقدمها، وهي أوَّل بعثة علمية أوروبية تؤلف على نطاق واسع، إذ ضمَّت عدداً من العلماء المتخصصين بمختلف فروع المعرفة، وقد اقترنت بدراسات واسعة في شتى المضامير، حتَّى شاع خبرها في جميع الأوساط العلمية والثقافية في أوروبا. ويمكن تلخيص أهمية الرحلة بما يأتي:

1 ـ أخذ عدد من الجامعات والمعاهد والأساتذة، يتسابقون فيما بينهم على الاتصال بالبعثة، أو يبعثون برسائلهم واستفساراتهم إليها، لغرض الحصول على الأجوبة الشافية. فقد أرسل ميخائيليس نفسه، ما ينوف على المئة سؤال حول مختلف الشؤون المتصلة بعمله، وعندما وصلت البعثة إلى إسطنبول في 30/ 7/ 1761م تسلَّمت من (فون گاهلر) عدداً كبيراً من الرسائل التي بعثت بها الجامعات والمعاهد والأساتذة، كل يستفسر عن الأُمور والمطالب التي تخصّه وتزيد من معارفه عن بلاد المشرق، وكان نيبور خلال هذه الرحلة يبعث بالرسائل، وبصورة منتظمة إلى (بيرنشتروف) الذي كان على اتصال دائم مع ميخائيليس،

ليتولّىٰ الأخير توزيعها على العلماء والباحثين، وقد أدَّت البعثة واجبها في هذا المجال بكلّ أمانة ودقَّة.

2 ـ قامت البعثة بعملية مسح عام للبقاع التي زارتها، فذكرت المدن الشاخصة والمندرسة، وتولَّت رسم العديد من الخرائط، فكانت تلك الخرائط ثروة عظيمة أمدَّته بمعلومات جغرافية وبلدانية على قدر كبير من الفائدة، فقد رسم نيبور أوَّل خارطة للبحر الأحمر، بقيت معتمدة ومعتبرة حتَّى الآونة الأخيرة، وكذلك خارطة لبلاد اليمن، وكذلك الحال للعديد من المدن مثل صنعاء، برسيبوليس، البصرة، بغداد، الموصل، النجف، القدس، دمشق وخرائب طروادة في الأناضول وغيرها من المدن والمعالم العمرانية.

3 ـ قام نيبور باستكشافات آثارية في بلدان الشرق الأدنى، فخلَّد له اسماً باراً ومحموداً، لا سيَّما في أبحاثه التي أجراها في الجزيرة العربية، وبهذا نجد هذا الرحَّالة أنَّه أصبح في عام 1765م أوَّل رجل يختلف عمَّن سبقه من الرحَّالة وهواة الأسفار في اهتمامه بالكتابات المسمارية، ومبادرته إلى استنساخها بصورة دقيقة ومضبوطة، فجاءت مستنسخاته أقرب من غيره مطابقةً وشبهاً بالنصوص الأصلية وأكثر دقَّة. وعند عودته إلى ألمانيا جلب معه نماذج من تلك الكتابات المسمارية، وحينما قام بنشر ما استنسخه من تلك الكتابات المسمارية سنة 1788م تهافت العلماء على دراستها ومحاولة فكّ رموزها، وتقديم معلومات أساسية عن مقاطعها وإشاراتها، وبذلك ساعد نيبور بجهوده هذه على حلّ رموز هذه الكتابة، التي كانت معرفتها، فتحاً عظيماً في علم التاريخ والآثار.

4 ـ لم تقتصر أعمال أعضاء البعثة على تسجيل المعلومات وتدوينها، بل تعدَّت هذا النطاق إلى مدى أوسع، فكانت البعثة تبعث بنماذج من مختلف المواد المعدنية والنباتية إلى العلماء والمختبرات في

الجامعات والمعاهد الأوروبية، لدراستها وتحليلها. فقد بعثت من اليمن بنماذج من الحبوب إلى عدد من العلماء في كل من فرنسا وإنكلترا وألمانيا والدانمارك وإلى غيرها من الدول، كما تُعدُّ ما حقَّقته البعثة من رسوم الحيوانات والأحياء المائية والنباتات ثروة علمية قيِّمة للباحثين والمتتبعين.

5 ـ جمعت البعثة مقداراً كبيراً من المخطوطات والآثار النادرة من الأقطار التي مرَّت بها.

6 ـ أمدتنا البعثة بمعلومات جغرافية وتاريخية وبلدانية عن الأصقاع التي جالت فيها، ورسمت صورة صادقة ودقيقة لأحوالها وعاداتها وتقاليدها وأزيائها وغير ذلك من الأُمور، كانت في الواقع ذخيرة لا يُستغنى عنها.



11 ـ ترجمة الرحلة:

بعد عودة نيبور إلى بلاده عكف على تدوين مذكراته ونشر كتاباته، وقد نشر أوَّل كتبه بالألمانية «صفة جزيرة العرب» الذي طبع عام 1772م في كوبنهاگن. ونشرت لهذا الكتاب ترجمة بالإنكليزية في بومباي عام 1889م وقبل ذلك نشرت له ترجمة بالإفرنسية طبعت في أمستردام في الأعوام 1774م ـ 1776م وهناك كتب أُخرى لنيبور تُرجم بعضها إلى عدد من اللُّغات الأوروبية.

وفي الآتي كشف بأهم أعماله:

1 ـ كتاب «صفة جزيرة العرب» صدر بالألمانية بعنوان: Beschreibun von Arabien. Copenhagen- 1772. وقد تولى ترجمته إلى الإنكليزية المستر سيلي، وطبع في بومباي سنة 1889م بعنوان:

Sealy (C.W.H):

Description of Arabia. Bombay- 1889.

2 ـ نشر بالألمانية كتاباً بمجلدين بعنوان: «أسفار إلى بلاد العرب» طبع في كوبنهاگن في عام 1774م ـ 1778م بعنوان:

Reisebeschreibung nach Arabien, and Umliegenden Landern. 2 Vols. (Copenhagen 1774 - 78).

وقد ظلّ هذا الكتاب المصدر الوحيد المعتمد عن بلاد العرب واليمن. وقد لخَّصه بالإنكليزية المستر ر. هيرون ونشر في مجلدين في أدنبره عام 1792م بعنوان:

Heron (R.): Travels in Arabia. 2 Vols. (Edinburgh 1792).

3 ـ وكان نيبور ألحق بكتابه مار الذكر، جانباً من مذكراته عن رحلته إلى سوريا وفلسطين ونشر في هامبورغ عام ـ 1837م بعنوان:

Reisen durch Syrien and Palestina. (Hamburg- 1837).

4 ـ نشر كتب زميله بيتر فورسكال، وهي ثلاثة:

أ ـ صفة الحيوان: طبع في كوبنهاگن عام 1775م بعنوان:

P. Forskal's Description Animaliam. (Copenhagen- 1775).

ب ـ كتاب عن «نباتات مصر وجزيرة العرب» عام 1775م:

Flora Aegyptiaco- Arabica. (1775).

ج ـ كتاب بعنوان:

Icones rerum naturalium (1776).

ومن المؤلفات الباحثة عن كارستن نيبور الكتاب الذي صنَّفه ولده (بارتولد جورج نيبور) عن حياة والده، وطبع سنة 1817م في مدينة «كيل Keil» بعنوان:

Niebuhr (Barthold Georg): Carsten Niebuhr Leben. (Keil- 1817).

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنكليزية عام 1838م ونشر في سلسلة كتب: «حياة الرجال الأكفاء» بعنوان:

Lives of Eminent Persons Anonymous Life of Carsten Niebuhr. (London- 1838).



12 ـ ترجمة الرحلة إلى العربية:

بالرغم عن أهمية هذه الرحلة وعظمة منزلتها بين الرحلات، وبصورة خاصَّة، تلك الرحلات التي تتناول أحوال البلاد العربية وتاريخها، فإنَّها لم تترجم كاملة إلى اللغة العربية وإنَّما تُرجم منها أقسام تتعلَّق بالعراق، كما تولَّىٰ عدد من الأساتذة الفضلاء من العرب ترجمة ما يخصُّ بلادهم مثل مصر واليمن.

وفي الآتي أهم ما نقل إلى العربية:

1 ـ نشر الدكتور محمود حسين الأمين فصلاً ممتعاً من الرحلة نشره في مجلة «سومر»، المجلد ـ 9 (1951م)، ص250 ـ 280 بعنوان: «رحلة نيبور في العراق في القرن الثامن عشر» [مترجم عن الألمانية].

2 ـ أمَّا الأستاذ سعاد هادي العمري فقد تولَّىٰ ترجمة بعض أقسام من الرحلة عن أصلها الألماني، نشرها بكراس يقع في (72 صفحة)، عام 1954م بعنوان: «رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر» دار المعرفة ـ بغداد 1372هـ ـ 1954م وفي عام 1955م أعقبه بكراس ثانٍ بعنوان: «مشاهدات نيبور في رحلة من البصرة إلى الحلَّة سنة 1765م». دار المعرفة ـ بغداد ـ 1375هـ ـ 1955م.

ولا يفوتنا أن نذكر أنَّ الأستاذ سعاد العمري سبق له أن نشر مقتبسات ممَّا كتبه نيبور عن بغداد ضمن كتابه: «بغداد كما وصفها السياح الأجانب في القرون الخمسة الأخيرة» [عن الألمانية] دار المعرفة بغداد ـ 1954م ـ 1372هـ، ويقع الكتاب في 122 صفحة»[1].

3 ـ وكان أستاذنا العلَّامة الدكتور مصطفى جواد، قام بتعريب القسم

---

(1) والسياح هم: فدريكو، راولف، نيبور، ديللافاله، بوشان، روسو، أوليفيه، دوبره، كيربورتر، فريزر، وبترمان. [عن: جمهرة المراجع البغدادية. ص262].

الخاص ببغداد عن النسخة الإفرنسية من الرحلة المطبوعة بأمستردام (هولندا) بعنوان .Observation faites a Bagdad. (Amsterdam,1870) ونشره في مجلة «سومر» المجلد ـ 20 (1964م) بعنوان: «بغداد في رحلة نيبور» الصفحات 49 ـ 68.

4 ـ وتُعدُّ ترجمة الدكتور محمود الأمين عن بغداد وشمالي العراق أكمل الترجمات كما سيطلع عليها القارىء الكريم. وقد طلب إليّ الصديق الدكتور الأمين الذي يشغل منصب أستاذ الآثار ورئيس قسم التاريخ في كلية الآداب بجامعة بغداد، وقد شاءت همَّته أن يتحف المكتبة العربية بهذا السفر النفيس، أن أراجع الكتاب وأقدم له. والواقع أنَّ الطرافة التي امتازت بها هذه الرحلة والجوانب التاريخية والعلمية التي احتوتها، هي التي شجعتني على القيام بهذا العمل، فعسى أن أكون عند حسن ظنّ الصديق الفاضل والقارىء الكريم، فأوفّق إلى أداء مهمَّة عسيرة كهذه. وقد ذيلت مطالعاتي وتعليقاتي بأوائل اسمي ووضعتها بين عارضتين [س. أ].

كما تصدينا إلى وضع فهارس الكتاب ليسهِّل على المراجع والباحث والمتتبع تقصّي الأخبار والوقوف على أسماء الأعلام والأماكن والبقاع بيسر وسهولة، تاركين أمر تدقيق وتصحيح ما فاتنا إلى المحقِّقين والمؤرِّخين الأفاضل.

وفي الختام نرجو أن نكون قد أدينا ما علينا من واجب، والله من وراء القصد.

بغداد في 10 ربيع الأوَّل 1385هـ/ 9/ 7/ 1965م

سالم الآلوسي

استدراك

بعد صدور الكتاب عام 1965م، أُتحيت لنا فرصة الاطلاع على ترجمات أُخرى إلى العربية من رحلة نيبور، ندرجها في أدناه:

1 ـ هانسن (توركيلد):

«من كوبنهاگن إلى صنعاء»، ترجمة محمَّد أحمد الرعدي. ط1، بيروت ـ 1969م.

2 ـ كارستن نيبور:

«رحلة إلى مصر، 1761م ـ 1762م»، ترجمة وتقديم وتعليقات، الدكتور مصطفى ماهر ـ دار الكتاب، القاهرة ـ 1977م.

المراجع

اعتمدنا في كتابة سيرة «كارستن نيبور» على المراجع الآتية:

أوَّلاً: الكتب (العربية):

1 ـ سعاد هادي العمري:

أ ـ بغداد كما وصفها السيَّاح الأجانب في القرون الخمسة الأخيرة: دار المعرفة، بغداد، 1954م ـ 1372هـ.

ب ـ رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر: دار المعرفة، بغداد، 1954م ـ 1372هـ.

ج ـ مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلَّة: دار المعرفة ـ بغداد ـ 1955م ـ 1375هـ.

2 ـ طٰه باقر:

مقدِّمة في تاريخ الحضارات القديمة: الطبعة الثانية ج1، بغداد، 1955م، ج2، بغداد، 1956م ـ 1375هـ.

3 ـ كوركيس عواد وعبد الحميد العلوجي:

جمهرة المراجع البغدادية: مطبعة الرابطة، بغداد، 1962م.

4 ـ مصطفى جواد (الدكتور) وأحمد سوسة (الدكتور):

دليل خارطة بغداد المفصل ـ في خطط بغداد قديماً وحديثاً: بغداد، 1378هـ ـ 1958م.

ثانياً: الكتب (بالإنكليزية):

1- Encyclopaedia Britannica.

2- Hansen (Thorkild):

Arabia Felix, or The Danish Expedition of 1761- 1767. Traslated by: James and Kathleen Mc Farlane. Colins, London- 1964.

ثالثاً: المجلات:

1 ـ الأقلام ـ مجلة تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد ـ بغداد. المجلد الأوَّل ـ الجزء الأوَّل ـ 1964م.

2 ـ سومر ـ مجلة تصدرها مديرية الآثار القديمة ـ بغداد. المجلدان: 9 (1951م)، 20 (1964م).

3 ـ الهلال ـ عدد نوفمبر/ تشرين الثاني ـ 1964م

مشاهدات نيبور في رحلته
منَ البصرة إلى الحلّة سنة 1765م

ترجمه عن الألمانية(*)
سعاد هادي العمري
KONSULAR AKADEMIE

(*) نشرت هذه الترجمة لأول مرة عام 1955.

مقدمة المترجم

سبق لي أن قمت بترجمة القسم المتعلّق ببغداد من رحلة (نيبور)، كما سبق للأستاذ الفاضل الدكتور محمود الأمين أن قام بترجمة قسم الرحلة الذي يمتدّ من بغداد إلى الموصل، إلّا أن القسم الأول من رحلة نيبور الممتدّ بين البصرة والحلّة والذي يبحث فيه عن البصرة ولملوم والنجف وكربلاء والحلّة، لم يسبق أن تُرجم إلى العربية.

لذا، واستكمالاً لبحوث نيبور عن العراق، فقد قمت بترجمة هذا القسم أيضاً، والذي يسرني تقديمه للقرّاء المحترمين.

لقد قمت بترجمة هذا القسم ترجمة حرفية، دون أي تصرّف ما. ولكنني رأيت من الأنسب أن أحذف منه المواضع التي لا تتعلق بالعراق مباشرة، أذكر منها مثلاً المعلومات التي يبحث فيها عن نادر شاه والتي استقاها نيبور من كتب ومصادر شرقية معروفة عند الجميع، هذا إضافة إلى بعض المواضع التي يبحث فيها نيبور عن المعتقدات والمذاهب الإسلامية، والتي يتعرّض نيبور فيها إلى الخطأ في كثير من الأحايين إلّا أن هذه المواضع المحذوفة لا تتجاوز جميعاً بضع صفحات فحسب.

وأود أن أذكر في هذا المجال أيضاً، أن نيبور وإن كان مشاهداً دقيقاً ومصدراً يوثق به بالنسبة للسياح المماثلين، فإنه كان تحت تأثير التربية الدينية التي كانت تسود في هذا القرن سائر مثقفي أوروبا. لذا فيجب أن لا نعجب لبعض انتقاداته المحشورة بين السطور للعالم الشرقي وللدين والمذاهب الإسلامية.

وسأكرر هنا أيضاً ترجمة نيبور، التي نشرتها في كتابي السابق «رحلة نيبور إلى بغداد» لفائدة القرّاء المحترمين، الذين لم يقرؤوا الكتاب المذكور:

كارستن نيبور (KARSTEN NIEBUHR)، ألماني الأصل، وُلد في مدينة (LUDINGWORTH) من ولاية HADELN في 17 آذار 1733، وكان أبوه فلاحاً من سيلزيا، درس كارستن الرياضيات في جامعة GOTTINGEN في ألمانيا.

وحين قرّر فردريك الخامس، ملك الدانمارك، إيفاد بعثة فنية للبحوث العلمية في الشرق الأدنى وجنوبي جزيرة العرب بصفة خاصة، دخل نيبور أيضاً في خدمة الملك والتحق بهيئة البعثة. وقد وزّعت أعمال البعثة بحيث أُلقيت على عاتق نيبور تبعة الأبحاث الجغرافية، بينما كان على بقية العلماء الأربعة الإسكندنافيين أن يعملوا في تدقيق اللغات والعلوم الطبيعة.

تحرّكت الهيئة من الإسكندرية سنة 1762 فوصلت إلى اليمن، حيث توفي رئيس البعثة VON HAVEN وطبيبها الدكتور FORSKAL، أما العضوان الآخران DR. CRAMER. BAUERNFEIND فقد وافاهما

الأجل وهما في طريقهما إلى بومباي وبذلك أصبح نيبور العضو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من الهيئة؛ فاستمرّ بمفرده على إنجاز رحلته وتدقيقاته. ووصل في سنة 1765 إلى (أبي شهر) قادماً من مسقط عن طريق الخليج. ومنها ذهب إلى شيراز مع إحدى القوافل ورسم خرائب برسيبوليس هناك.

ثم عاد إلى البصرة، ومنها وصل إلى بغداد، وكان ذلك سنة 1766 وقد سافر منها إلى الموصل ثم استمرّ في طريقه حتى وصل الإسكندرونة على سواحل سوريا.

وبعد زيارة فلسطين وقبرص، مرّ من الأناضول فبلغ الآستانة في شباط 1767، ومنها عاد أخيراً إلى (كوبنهاكن) في تشرين الأول من نفس السنة بعد غيبة دامت سبع سنوات. وقد دوّن رحلته هذه باللغة الألمانية في مجلدين، طبع المجلد الثاني منهما وهو يبحث عن العراق في سنة 1778 في كوبنهاكن ومنه ترجمنا هذا القسم.

ولنيبور معلومات واسعة في التاريخ وقابلية كبيرة في علوم الرياضيات والفلك وهو يصف لنا الطبيعة والسكّان وأخلاقهم في إيجاز ووضوح، ويستنسخ الكتابات التي يشاهدها وهو أول سائح أجنبي يرسم لنا خرائط الأماكن التي يزورها بصورة دقيقة.

أما ما يختص بالتعليق على نصّ الكتاب وهوامشه، فهو أمر يتطلب بحوثاً عميقة ودقيقة للغاية حيث إنَّ كثيراً من الأماكن المذكورة قد اندثرت أسماؤها بمرور الزمن، وقد تركنا تدقيقها إلى

مؤرخينا الأفاضل متجنبين بذلك التدخّل فيما يُعدّ خارج نطاقنا كمترجمين، مكتفين ببعض الإيضاحات البسيطة، التي لم نر بدّاً من إدراجها آملين أن نستميح معذرة القرّاء المحترمين.

فإذا كنّا قد وفّقنا بهذه الترجمة إلى إعطاء فكرة مسهبة عن الحياة الاجتماعية في تلك الفترة من تاريخ العراق، فإنَّ مساعينا تكون قد تكلّلت بالنجاح.

سعاد هادي العمري

ملاحظات عن البصرة

تقع مدينة البصرة على الضفة الغربية لشط العرب على خط العرض 30,30 ويبلغ محيطها، بموجب المخطط الذي وضعته لها في اللوحة 39 (يقع في مقدمة هذه الترجمة)، زهاء 2/1 1 ميلاً ألمانياً[1] إلا أنها بالنسبة إلى سعتها، لا تكون عامرة بالبنيان بل تكتظ ببساتين التمر وحقول الحبوب، فهي بذلك تشابه مدينة بابل القديمة إلى حدٍّ كبير. وتنعدم الصخور في هذه المنطقة ذات المستنقعات، وعليه فإن مصادفة الحجارة المصقولة هنا أمر نادر ويستثنى من ذلك احتمال وجودها على باب أحد الجوامع. ولو استثنينا جذوع النخل المستعملة في تشييد البيوت الرديئة، فإن أخشاب البناء هي الأُخرى غالية الثمن.

والقليل جداً من البيوت، ما كان مبنياً من الكلس والطابوق المفخور وكثير من الجدران مكسو بمثل هذه الحجارة فقط، إلا أن أكثر البيوت وكذلك أسوار المدينة مشيَّدة من طابوق قد صبّ بشكل خاص جُفِّف في الشمس.

---

(1) الميل الألماني يعادل (7500) متراً ـ المترجم ـ.

وعليه، فإن دعت الحاجة يوماً ما إلى ترك المدينة، فإن ما سيتبقَّى منها بعد مدة سيكون قليلاً جداً، بقدر ما تبقى اليوم من بابل التي كانت شهيرة في عصور خلت.

ويبلغ عرض الشط في هذه الأطراف زهاء ربع الميل. وليس في البصرة ذاتها جدول كبير واحد فحسب بل توجد كثير من الجداول الصغيرة الأُخرى التي تكون جميعها مرتبطة بالنهر الكبير، وحيث إن مستوى الأخير يرتفع بسبب المد إلى علو تسعة أقدام تقريباً، فالمفروض أن يساعد هذا الأمر كثيراً في المحافظة على نظافة المدينة، إلا أنني لم أصادف في أي مكان آخر مدينة إسلامية أكثر قذارة من هذه المدينة.

وأكثر البيوت تصبّ المياه القذرة لمطابخها في الطرقات التي ليست معبَّدة بالحجارة، بل إن أكثرها قد سلطت حتى مجاريها على تلك الجهة وللمدينة خمسة أبواب وهي:

1 ـ دروازة الرباط أو باب رباط.

2 ـ دروازة بغداد أو باب بغداد.

3 ـ دروازة حضرت الزبير أو باب زبير.

4 ـ دروازة الصراجي[1] أو باب صراجي.

5 ـ دروازة المجموعة أو باب مجموعة.

ومسكن قابودان باشا معين في رقم 6 من المخطط، أما الرقم

(1) السراجي.

7 فيشير إلى مسكن المتسلم، والرقم 8 معمل للإنكليز، أما رقم 9 فهو معمل للفرنسيين.

وللمدينة جامع ذو منارتين وثمانية أُخرى بمنارة واحدة فقط وتسمى جميعها بالعربية: DSJAMEA (جامع) وهناك أيضاً ما يقارب الأربعة جوامع صغيرة إلا أن أكثرها يمكن تسميتها بالمساجد.

وقد لا تعنينا كثيراً، كيفية تسمية الشرقيين أحياء مدنهم. وحيث إن البصرة الحالية ما زالت بعد مدينة حديثة، وليس في وسعنا التكهن فيما إذا سيتاح لنا يوماً ما الوقوع على ترجمة لوصف مفصل لهذه البقاع، يمكن بواسطته تعيين الاسم القديم لهذه المدينة، كما كانت الحال في تعيين[1] الاسم القديم لمدينة دمياط (DAMIAT) بواسطة محلة بهذا الاسم، لذا أود أن أدرج فيما يلي أسماء المحلات المختلفة لمدينة البصرة. كما ذكروها لي.

«مناخ، مشراق، دنانيك، ابن عيد، عبايه، ميدان العبيد، الدوغ، أم البلابيل، أم البزازين، شيخ بادي، شيخ قنبر، شيخ جوهر، أم الطنوق، قبلة، شيخ عمر، مدبغة، نهر البنات، شيخ حبيب، جسر اللوح، مكول، معدان، محمد تختة، حمام كوت، محلة القاضي، محلة العرصة، محلة سيد رمضان، محلة الأفغان، حكاكة، حدادة، خليلية، شريبانية، محلة اليهود، محلة مرجانة، حسن داده، كواز، بستان قصب، كوارخين، عز الدين، محلة خان زكار، القطانة، سيف، حوش الباشا، جسر الغربان،

(1) راجع وصف مصر لأبي الفداء ترجمة RITTER MICHAELIS ص، 23 و115.

المجموعة، مقبيرة، صمغونية، محمد جواد، عروة، غمقة، بحارنة، جسر العبيد، بلد السياس، الدوغ، حلل، مغام، محلة الجديدة، نظران، صبخة، معصرة، الخضر، محلة الساعي، مناوي، بريهة، عباس حصيرجيه، فرسي، صيمر، حضراوية، فتاله، كوت الكومرلي، جسر الحوز، مجصصة، خشابة».

ولم تزدهر البصرة الحديثة إلا في ظل حكم الشخص المسمى (سياب) أو افراسياب[1] الذي كان عيناً (AIAL) أو وجيهاً من وجوه البلدة، فنال هذه الولاية من الأتراك. وقد كان هذا الشخص يشجع الأجانب على الاستقرار فيها. وبذلك ارتفع مستوى التجارة، والواقع أن للمدينة موقعاً عظيماً للتجارة. وقد تسلم الحكم بعده ابنه علي باشا[2] وأعقب هذا أيضاً حسين باشا[3] الذي كان أحد أبناء علي باشا[4] الآنف الذكر. وقد اعتبر هؤلاء جميعاً البصرة والمناطق العائدة إليها ملكاً خاصاً بهم وقد جعل علي من القرنة، التي كانت موقعاً مكشوفاً في المصب المشترك لدجلة والفرات، قلعة على الحدود، ثم زاد حسين في تحصينها بسور ثان. وهذا الأخير هو الذي قام أيضاً بتوسيع مدينة البصرة. وبما أن هذه

---

(1) راجع تاريخ العراق بين احتلالين لمؤلفه الأستاذ الفاضل المؤرخ عباس العزاوي ـ المجلد الخامس صفحة 21 ـ المترجم ـ.

(2) راجع المصدر السابق ـ المجلد الخامس الصفحات 21 و31 و44 ـ المترجم ـ.

(3) راجع المصدر السابق ـ المجلد الخامس الصفحات 44 ـ 48، 75 ـ 78 والخ. . . ـ المترجم ـ.

(4) لكل من PIETRO DELA VALLE وTAVERNIER معرفة بهذين الباشوين الآخرين ـ المؤلف ـ.

المدينة كانت في السابق بعيدة عن شط العرب، فقد مدّ هذا الشخص أسوار المدينة حتى النهر، وبذلك أصبح كثير من البساتين وحقول الحبوب ضمن المدينة، ولم تشيّد الأبنية عليها في أي وقت ما. وقد حصَّن أيضاً قرية (مناوي) وبذلك أصبحت له قلعة في مقر مدينته، وبالإضافة إلى هذا شيّد جامعاً في البصرة لا يزال للآن يُعدّ أفخم جامع فيها. ولكونه منح حرية واسعة للمسيحيين فقد اجتذب كثيراً من المنسوبين لهذا الدين إلى مقرِّه. وبهذا ازدهرت التجارة أكثر فأكثر بِاطِّرَاد. أصاب الغرور حسين باشا لغناه الطائل إلى حدّ جعله يجرؤ على جعل كثير من القرى العائدة إلى باشوية بغداد ترضخ لحكمه. وقد كان قوياً لدرجة كافية مكَّنته من طرد القوات التركية المتقدمة نحو البصرة، مراراً عديدة. وبالرغم من ذلك فإنه حين علم أنه ليس بمقدوره مقاومة الباشوات المجاورين، أرسل أحد أقاربه الأقربين إلى الأستانة محمَّلاً بالهدايا الكبيرة لتقديم طاعته إلى السلطان. وقد استخدم هذا الرجل الذي كان في مقتبل العمر، الأمانات المودعة لديه ليكتسب أصدقاء له بواسطتها. فوعد بأداء واردات سنوية معينة في حالة طلبهم بتكليفه هذه الولاية وحيث إن السلطان أيضاً، وجد هذا الأمر أسهل طريقة يستطيع بها أن يجعل البصرة تحت حكمه ثانية، فقد أعاده بجيش صغير، ليسلمه زمام هذه المدينة. وكان الأهالي كافتهم والأعراب المجاورون فيما مضى من الموالين لحسين باشا، أما الآن فقد التحق كثير منهم بعدوّه الجديد. وقد ضعف جيشه بعد مدة وجيزة إلى حدّ جعله يضطر للانسحاب إلى مقره. وقد ازداد

بعدئذٍ عدد الموالين لعدوّه في المدينة ذاتها مما اضطره إلى الالتجاء إلى (مناوي): وعندما لم يتبق لديه تقريباً أي جند آخرين، ترك ولايته عند ذاك نهائياً وفرَّ إلى إيران. وبعد مضي بضع سنوات استولى الإيرانيون على البصرة حتى طردهم الأتراك منها ثانية. وشرع السلطان بعدئذٍ بإيفاد باشا خاص إلى هذه الولاية. إلا أن حسن باشا والد أحمد باشا الشهير استخدم القبائل العربية الكبيرة للتعرض للباشوات الجدد وهم في طريقهم عبر البادية، لقتلهم أو إعادتهم إلى حلب كرة أُخرى. وعندما لم تبق لأحد رغبة في نيل هذه الباشوية، تقدم حسن باشا مبدياً استعداده لتقديم الواردات الاعتيادية. وعلى أثر هذا تمّ توحيد هذه الولاية بولاية بغداد ولا تزال ضمنها للآن[1].

وقد كان الـ(قاپودان)[2] باشا موجوداً هناك على الدوام طيلة المدة، التي كان الباشوات يرسلون فيها من الأستانة إلى البصرة. وكان هذا الرجل يعيّن من قبل السلطان ويجب أن يكون دائماً شخصية ذا رتبة كبيرة. ولديه الآن ما يتراوح بين 50 إلى 60 (تكنة) (ـ وهي سفن حربية صغيرة مسطَّحة القعر ـ) وكان لزاماً عليه أن لا يطهر الفرات ودجلة فحسب بل يطهر في الوقت نفسه الخليج أيضاً من قراصنة البحر. وبموجب العادة التركية، فإن واردات المقاطعات الكبيرة في كل من ولايتي بغداد والبصرة

(1) في نيسان سنة 1776 انتقلت البصرة بعد حصار طويل إلى يد كريم خان، والي إيران.

(2) الباشا الذي ينظر في الأُمور البحرية. ـ المترجم ـ.

تخصّص له لتأمين نفقات هذا الأسطول وما يلزمه من الأفراد. ولازدياد قوة باشا بغداد بصورة مستمرة، فقد اصطفى لنفسه تدريجياً المقاطعات الخاصة بالقاپودان باشا. وأخيراً ترك السلطان للباشا نفسه واجب حماية التجارة البحرية في ولايته الواسعة.

ومنذ ذلك الحين أصبح القاپودان باشا في البصرة تابعاً لباشا بغداد على الدوام. يسكن القاپودان باشا في المناوي أما المتسلم (المتصرف)، ففي المدينة، وتصطف تكنات القاپودان باشا القليلة العدد في الشط أمام بابه: وتطلق المدافع بكثرة من هذه السفن حال مرور القاپودان باشا أو المتسلم أمامها. إلا أن هذه السفن لا تصلح للاستعمال كثيراً. وهي ضعيفة الصنع للغاية ومطلية بالـ(BITUMEN) المسمى بالعربية «زفت أو قير» ويحصل هذا بكميات هائلة من هيت وهي مدينة تقع على الفرات نحو الجهة الشمالية من الحلة على مسافة بضعة أيام.

والواقع أن جميع السفن الصغيرة السائرة بين بغداد والحلة فالبصرة ليست بأحسن منها صنعاً. ويمتاز القير بمقاومته الشديدة للماء العذب إلا أنه كما يذكر، يتحلَّل في الماء المالح. ولهذا السبب فإن تكنات القاپودان باشا لا تجرؤ في أي وقت ما على الفعالية في الخليج. ويظهر من سماع حوادث القرصنة المتكررة في دجلة والفرات أيضاً، أن القاپودان باشا لا يبدو معنياً حتى بمثل هذه الحوادث[1] وبالرغم من ذلك فإن القاپودان باشا ما زال

(1) يستعمل البصريون بدلاً من الزوارق سلال دائرية كبيرة يدعونها القفة «وهي» مطلية =

دوماً ضابطاً مهماً في البصرة. وكان المتسلم يستدعيه إلى ديوانه كما يستدعي الدفتردار والأعيان (AJAL) والگمرگجي أو الشاهبندر «وهو موظف الگمرك» والقاضي حين تستوجب الحاجة ذلك، لمذاكرة الشؤون المهمة.

ويكون «الدفتردار» (وهو آمر الخزينة) في سائر المدن الأُخرى تابعاً في العادة للسلطان فقط. أما الذي في البصرة فإن لم أكن مخطئاً، فقد كان تابعاً لباشا بغداد فقط. ويصدق القاضي في منصبه في كل عام أو يحلّ محله قاض آخر يرسل من استانبول. وعلى ما يذكر فقد حدث في كثير من المرات، أن القضاة الذين جاؤوا إلى هذه المدينة، كانوا قد اشتروا فرمانهم من أشخاص آخرين وأسموا أنفسهم بأسمائهم. وعليه فيمكننا بسهولة أن نستنتج أنَّ هذا الموقع لم يُشغل من قبل شخص مستقيم إلا فيما ندر. وكان لهم دائماً «نائب» أو وكيل يبقى هناك باستمرار، وهو يعرف على الأقل الولاية ولغتها، والواقع أن القاضي الوافد من استانبول لا يتكلم على الأكثر إلا اللغة التركية فحسب، بينما لا يعرف أحد ما في البصرة لغة غير العربية.

= بالقار من جميع جوانبها الخارجية، ويعمُّ نفعها في الاستعمال خاصة في المناطق التي يكون فيها قاع النهر قليل العمق وذلك لأنها لا تتوغل عميقاً كما أنها سهلة الدوران. ولكنها تكون مزعجة للغاية لأولئك الذين لم يعتادوا التجول فيها، لأن الجذاف الذي سيقود مثل هذه القفة لا يستطيع منعها من الدوران حول محورها بشكل دائري في عرض النهر ولا تختلف السفن المسماة في البصرة (GORAB غراب أو DAUNECK دانق) عن التكنات إلا في طريقة صنعها فقط وهي تُستعمل لنقل البضائع بين البصرة وبغداد والحلة.

وتطلق عبارة (AJAL EL BELLAD) أعيان البلد هناك على أنبل الأشراف من وجوه المواطنين، وكان أعظمهم منزلة هو الشيخ (درويش KAUASI) الذي كان يحكم الديوان بأجمعه تقريباً خلال فترة مكوثي هناك. وقد كان هذا الشخص أحد أحفاد العالم الشهير في هذه المدينة المسمى «KAUAS» الذي قام إضافة إلى الخدمات الأُخرى التي قدَّمها بتشييد جامع فخم، حافظ عليه أحفاده الأغنياء على الدوام بحالة جيدة. وينتمي «المفتي الحنفي» أيضاً إلى هؤلاء الأشراف. وحيث إن هذا المنصب كان متوارثاً، يمكننا أن ندرك بسهولة أن هذا المنصب لم يشغل على الدوام من قبل شخص عالم، ولكن الحاجة ليست ضرورية إلى هذا لأن له «نائباً» أو وكيلاً ينوب عنه.

ويدخل ضمن هؤلاء الأشراف أيضاً «نقيب الأشراف» أو رئيس كافة الذين يدَّعون الانحدار من نسل سيدنا محمد ﷺ، من الوجهاء القاطنين في هذه الجهة. ويكون منصبه وراثياً أيضاً وقد جعل سليمان باشا أحد هؤلاء الأشراف يعتلي منذ بضع سنوات منصب «المفتي الشافعي» وبذلك سيكون هذا المنصب وراثياً هو الآخر، وينتسب أيضاً إلى هؤلاء الأعيان (AJAL)، تاجر اسمه «سيد درويش ابن سيد طالب»، حيث كان أجداده يرافقون سابقاً القوافل الذاهبة إلى حلب. ولم يزل هو يتولى غالباً منصب «كروان باشي» وذلك لصلة الصداقة القوية التي تربطه بشيوخ المناطق التي تمرُّ منها القوافل، كما يلزم دفع رسوم معينة أو هدايا إلى هؤلاء الشيوخ.

وبالإضافة إلى حق الأعيان «AJAL» في إلزام المتسلم بعدم

التشبث بأي أمر هام دون الاستنارة بآرائهم في مجلس المشورة، فقد كانت لهم امتيازات أُخرى متعددة: فبينما كان على بقية الأهالي دفع مبالغ طائلة، لم يكن الأعيان ليدفعوا أي رسم ما عن أملاكهم غير المنقولة، خاصة عن النخيل التي تشكِّل أكبر مصدر لثروتهم، ولهم حق إيقاع العقوبات على فلاحيهم رغم كونهم ليسوا عبيداً لهم. وكان العلماء جميعاً وبضمنهم اللالا والكاتب، في ذمة المفتي في الوقت الذي يحاكم نقيب الأشراف السادة والشرفاء وكان لكل من هذين الشخصين سجون يودع فيها من اقترف ذنباً من أتباعهم.

وإذا قام أحد وجهاء المسلمين بتشييد جامع ما، فإن حق إدارة الأملاك التي قدمها مؤسسه لإدامة هذا الجامع، محفوظ لأحفاده. وهم ملزمون في أوقات معينة فقط بتقديم الحساب إلى المقامات العليا، بل لهم أيضاً حق تعيين كافة الموظفين في جوامعهم وإذا انقرضت عائلة الواقف، أو أوقف أشخاص آخرون جزءاً من ثرواتهم للجوامع أو المدارس، فإن المفتي يصبح آنذاك متولياً أي مشرفاً على كافة الواردات والنفقات. كما شاء أن يؤكد لي معلمي في اللغة، الذي كان ناسخاً للكتب، فإن هذا العمل - أي عمل المتولي - يمكن أن يدرَّ ربحاً وفيراً، ذلك لأن المشرف كان غالباً ما يقتسم جزءاً من الواردات مع الشخص الذي يُفترض تقديم الحساب إليه. وقد سمعت مثل هذه الشكاوى ضد المتولين في المدن التركية الأُخرى أيضاً. وقد وجدت الجوامع الكبيرة في هذه المدن بحالة خربة على الأكثر: وكان نفس الشيء يردّد في كل مكان، فقد تصرف المتولي بواردات هذه الأماكن لحسابه

الخاص، وبذلك فإن القليل من الجوامع ما كان سيدوم لسنوات عدة، لو لم تتداركها باستمرار الواردات الإضافية الجديدة.

وللانكشارية في البصرة امتيازات عظيمة جداً كما هي الحالة في جميع المدن التركية: ومن هذه الامتيازات، أنهم لو اقترفوا ذنباً ما، فإن حق توقيفهم وإيقاع العقوبة عليهم، ممكن من قبل قطعاتهم فحسب. إلا أنه ليست هناك في البصرة «أورتا»[1] كاملة للانكشارية. وعلى الضباط ذوي الرتب الكبيرة البقاء في القرنة مع قدورهم «قازانهم»[2] أما البصرة ففيها صغار الضباط فقط.

وهم يقبلون في قطعاتهم أسفل الأشخاص قاطبة، بمجرد أن يقدم نفسه إليهم، وبذلك يلحقون ضرراً كبيراً بالمتسلم وبالنشيطين من الأهالي. وبذلك فإن من قبل أو سجل بتعبير أصح، لم يصبح بالشكل الذي كان عليه الجند سابقاً:

فالآغا والتاجر والحمال والملاح ... الخ، يبقى في مهنته السابقة وهو لم يكن لا يتسلم راتبه فحسب بل كان عليه أن يدفع المبالغ للانكشارية لحمايته. ويشتد فسادهم للغاية بصفة خاصة،

---

(1) أورتا ـ وحدة من الجند الانكشاري. ـ المترجم ـ.

(2) قازان أو القدر ـ لكل «اورتا» أو وِحدَة من وحدات الجند الانكشاري قدر نحاسي كبير يطبخ الطعام فيه، وهو يُعتبر مقدساً لدى الانكشارية. فإذا أرادوا التشاور في أمر فيما بينهم، فقد كانوا آنذاك يجتمعون حول هذا القدر، حتى إذا عقدوا النية على الثورة خرجوا يحملون قدرهم. يعبر عن هذه الحركة في التاريخ العثماني بعبارة «قازان قالديرمق» أي «رفع القدر» وهي تشير إلى ثورة الانكشارية. وكان الانكشارية يخشون وقوع القدر في أيدي أعدائهم خلال الحرب بقدر خشيتهم من اغتنام الأعداء لأعلامهم وشاراتهم. ـ المترجم ـ.

خلال كون باشوية بغداد شاغرة. وحين توفى سليمان باشا، لم يستطع المتسلم هناك بكافة قطعاته، منع الانكشارية من النهب في وضح النهار لبيوت النصارى واليهود والبانيان، بل حتى المسلمين الذين لم يسجلوا أنفسهم في قطعاتهم، وقد يحدث مراراً عديدة أن يقوم أفراد «الأورتا» الواحدة بتحقير المسلمين أو بقية إخوانهم في الدين، الذين التجؤوا إلى حماية «أورتا» أُخرى. وبذلك ينشب الشجار بين الانكشارية.

وليس من النادر أن يقتل منهم في اليوم الواحد بين ثمانية واثني عشر شخصاً. وليس عدد القتلى بين الأشخاص المستقيمين، ممن ليسوا من الانكشارية، بأقل من هذا. ولتجنب الوقوع في سورة غضب هؤلاء الأشرار تارة أُخرى، ولنيل البعض من حمايتهم، فقد سجل كثير من الناس أنفسهم في قطعاتهم.

لذا يطلق في الوقت الحاضر لقب «الانكشاري»(1) في البصرة على أكثر المسلمين ابتداءً من المتسلم حتى أوضع الحمالين.

وحيث إن للأعيان والانكشارية في البصرة امتيازات عظيمة جداً في الواقع، ولاستطاعتهم في الغالب الحصول على امتيازات أكثر من هذه، لذلك يجب أن يعلم أنه ليست للمتسلم أهمية عظيمة هناك. إلا أنه يستطيع المحافظة على اعتباره، إذا كان على

---

(1) يطلق عليهم في الأصل اسم «بنكيجاري» ولكن حيث تستعمل عبارة JANITSCHAR في الألمانية فقد حافظت عليها بهذه الصورة وللسبب ذاته، استعملت كلمة MOSQUE في الوقت الذي يسمّي المسلمون فيه معابدهم الصغيرة بالمسجد، والكبيرة بالجامع. ـ المؤلف ـ.

جانب من رجاحة العقل. ويسود الخلاف بشقة واسعة بين الأشراف، حتى أنهم يتحاربون فيما بينهم في أكثر الأوقات ينهب بعضهم قرى البعض الآخر.

فإذا شاء المتسلم مثلاً إسقاط أحدهم لمعارضته إياه بصورة علنية في الديوان أو مخالفته بأي شكل من الأشكال، فعليه أن ينتظر على الأقل الحصول على دليل ما، يستطيع به أن يعلن تمادي العين في غيّه. ويعدّ العثمانيون دائماً الجنحة البسيطة التي يرتكبها غني ما، أعظم أهمية من جريمة أكبر قد يرتكبها أحد الفقراء، فيُخنق العين فوراً ويُحتجز جانب من ثروته: فإذا دخلت النقود إلى خزانة الباشا مرة، فإن الصعوبة في استعادة بعضها، تكون في العادة مساوية لصعوبة إعادة المخنوق إلى الحياة ثانية. وقلما يستطيع أقاربه والأعيان الآخرون أن يفعلوا شيئاً أكثر من أن يبحثوا سراً عن المظالم، وليس بوسع لقب الانكشاري أيضاً، أغلب الأوقات، حماية الغني.

وقد أقرض الحاج يوسف، الذي كان تاجراً كبيراً في البصرة علي باشا مبلغاً كبيراً، كما حرَّضه من ناحية أُخرى، على تقاضي المبالغ الطائلة من التجار الآخرين بالتضييق عليهم فاكتسب نفوذاً لدى علي باشا، جعل الأخير يستدعي المتسلم آنذاك وهو أحمد كهيا إلى بغداد ويعين متسلماً آخر بدلاً عنه. وقد استطاع أحمد كهيا بعد مضي بعض الوقت أن يحصل ثانية على منصبه القديم. وقد ظهر بمظهر من يحاول بكل ما أوتي من جهد اكتساب صداقة الشخص، الذي كانت له يوماً القابلية الكافية لأن يتسبب في عزله

من منصبه. إلا أن ثقة يوسف فيه كانت ضئيلة لدرجة أنه لم يكن يخرج إلى الشارع قط دون أن يصطحب الحراس بمعيته خفية، لمحافظته من أن يهاجم غيلة. وأخيراً اقتضاه عمل تجاري على التحدث مع التفنكجي باشي (وهو الآمر الأعلى لأحد ألوية المشاة للمتسلم) في إحدى المرات، وقد كان يعدّه دوماً صديقاً له فأبرز التفنكجي باشي له عند ذاك أمراً، يلزم عليه بموجبه أن يخنقه وينفذ الحكم في الحال. وقد ألقي إلى القمامة جسد هذا التاجر، الذي كان يعول على ذلك القدر الكبير من أمواله وعلى التفات الباشا إليه، وحماية العلماء له لكونه حاجاً أي زائراً لمكة، وعلى معونة إخوانه له، حيث إنه كان انكشارياً. وسرعان ما استطاع أحمد كهيا إلصاق التهم بالحاج يوسف وإكساب عمله هذا صفة منطقية لدى الأهالي: أما علي باشا فقد رضي بما آل إليه الأمر لأنه لم يسترجع بهذه الوسيلة سنداً بقيمة (200) ألف قرش فحسب، وذلك عن المبلغ الذي قبضه من الحاج يوسف، بل تمكن في الوقت ذاته من أن يستولي لنفسه على قسم كبير مما تبقى من ثروة هذا التعس.

وقد تقاضى عين هذا المتسلم مبلغاً مهماً من أحد التجار الأرمن وذلك عن عمل، لو قام به في أوروبا، لقدَّرته أي حكومة فيها تقديراً فائقاً. فقد أنشأ هذا الأرمني بالقرب من المدينة تماماً، جسراً جميلاً من الأحجار المفخورة على أحد الجداول، كما أصلح الطريق العام حتى مقبرة قومه، وهو الطريق الذي أصبح تقريباً بحالة لا يمكن معها استعماله في الشتاء بسبب إهمال الحكومة.

وقد طلب إذناً لهذا الغرض من الحكومة. لكنه لم يستحصل فرماناً منظماً بشأنه. فأصبح بعدئذٍ مجبراً بسبب هذا الأمر على تأدية الغرامة. والأمر الذي لا يكون نادراً في تركيا، هو اضطرار الذين ينشئون الأبنية الفخمة إلى إقراض الحكومة المبالغ التي قلما يمكنهم استرجاع جزء منها ثانية. لذا فإن عدم ظهور الرعايا الأتراك الأغنياء بمظاهر الفخفخة، أمر لا يدعو إلى العجب.

وإضافة إلى هذا، فالظاهر أن الشرطة في البصرة ممتازة جداً. فقد، وُضِعت كثير من أكوام الحبوب في ساحة السوق الواقع وسط المدينة، وهي مغطاة بالحصران فقط. ولم يسمع أن سُرق شيء منها أو أية حاجة أُخرى.

ولعدم توفر قائمة المواليد والوفيات في الولايات الشرقية، فمن الصعوبة بمكان إفادة المعلومات على وجه التحقيق عن سكان المدن هناك. لذلك فإن سئل الأهالي عن هذا الأمر، فإنهم يجيبون عنه على الدوام، بعدة مئات من الألوف. إلا أن تعداد السكان هناك بصورة عامة ليس بالقدر الكبير الذي يظنه الناس في أوروبا استناداً إلى هذه الأخبار.

توجد داخل سور البصرة سبعون محلة، وإذا كان بعضها يحتوي على ما يتراوح بين 300 و400 بيتاً، فإن في بعضها الآخر ما يتراوح بين10 و20 بيتاً فقط. وجميع المحلات الأُخرى تتكون من بساتين النخل، كما توجد فيها أيضاً مقابر كبيرة جداً. وكما

أكَّد لي الأشخاص الذين لهم معرفة تامة بهذه المدينة، فإن من الممكن تقدير كل محلة بمئة بيت على وجه العموم إلا أن أغلبها مبني بالأحجار المجفَّفة في الشمس فقط، وهي بيوت صغيرة. وإذا اعتبرنا أن كل بيت منها يضمّ سبعة أشخاص، وهو أكثر من المعدل المتوسط، فيجب تبعاً لذلك أن يبلغ عدد الأهالي خمسين ألفاً على أكثر تقدير. على أنَّني أشك أن يبلغ تعداد السكان الأربعين ألفاً، فيما لو أحصوا.

والمذهب الذي يسود المدينة هو المذهب السُّني. وقد استوطن كثير من الشيعة في المدينة بسبب الاضطرابات الداخلية في إيران. ولما كان السُّنَّة يتحفظون من الشيعة أكثر مما يتحفظون من منتسبي المذاهب الأُخرى لنفس الدين، لذا يدَّعي أغلبهم أنهم من السُّنة أيضاً. وبصورة عامة، لا يؤدي المسلمون هناك، الفرائض التي يفرضها عليهم دينهم على الوجه الأكمل. ولا يفوِّت الأثرياء منهم تأدية الصلوات الخمس نهاراً، كي لا تتعرض الحكومة لهم ـ ما لم تجد عليهم تقصيراً آخر ـ بمحاسبتهم عن تأجيل الصلاة المترتبة عليهم. أما تأدية الفقير لصلاته، فلم يكن بأمر ذي بال.

وتؤلف طائفة الأرمن الشطر الأكبر من النصارى الشرقيين وقد نزح أغلبهم إلى هنا من إيران.

أما الصابئة فقليلون جداً. وقد جعلت أحد هؤلاء الصابئة من الصيَّاغ يدوّن لي حروفهم الهجائية. وكما أكَّدوا لي، فقد كان هذا

الشخص أحسنهم خطاً[1]. وإلى جانب ما تقدم فهناك كثير من البانيان وما يقارب مائة عائلة يهودية أما الأقوام الأوروبية، فمنها الإنكليز، الذين يزاولون تجارة واسعة ولا سيما بيع الصمغ اللك الأوروبي والملاءات البنغالية الفاخرة، وسائر أنواع الأقمشة الواردة من SURAT سورات ومنذ مغادرتهم أصفهان وGAMBRON (بندر عباس)، أقام في البصرة منهم بصورة دائمة، مستشار من بومباي مع بعض الكتبة. ويقيم في بغداد أيضاً تاجر عن هذه الشركة التجارية. ويعيش الممثل الفرنسي هناك دون أن توفق أعماله التجارية، وعلى ما يقال، فبالرغم من عدم تقاضيه لراتبه بشكل منتظم، فإنه يحيا حياة باذخة بأقصى ما يمكنه ولا يوجد هولنديون في البصرة، ولكن التجار هناك يستوردون التوابل اللازمة والعقاقير من (خرج). ويزاول التجار من الأهلين تجارة واسعة في البن مع اليمن. ويوجد إيطاليون في البصرة على اختلافهم، وهم يمارسون تجارة خاصة لا بأس بها مع البندقية ولفورنو عن طريق حلب. وفي الوقت نفسه يوجد راهبان هناك ينتسبان إلى المذهب الكاثوليكي الروماني، وقد شيّد هذان الراهبان الآن كنيسة صغيرة للمرة الثانية لأن الأولى التي كانت مشيدة في عهد حسين باشا، الذي مر بنا ذكره، قد تهدمت.

---

(1) الحروف الهجائية الكلدانية والصابئية الموجودة في الأثر المطبوع في باريس تحت عنوان (RELATIONS DE DIVERS VOYAGES CURIEUX) لا تختلف كثيراً عن استنساخي هذا. أما الاستنساخ الذي قام به KAMPPER فيختلف عن كليهما كثيراً، لذا لا يمكن الاعتماد عليه. ـ المؤلف ـ.

والبادية الكبيرة تبدأ حتى من قرب أسوار البصرة تماماً، حيث تكون الأرض هناك أيضاً خصبة، بمثل الأراضي التي تجاور النهر تماماً، والتي تكون مغطاة بأجمعها ببساتين النخيل وحقول الأرز. وهناك نقص فقط في السكان الذين في حالة تمكنهم من حفر الجداول وصيانتها. ومثال ذلك يظهر في محل لا يبعد كثيراً عن المدينة باستقامة الجنوب الغربي منها. فقد كانت هناك حتى إلى ما قبل ثلاثين أو أربعين عاماً قرية كبيرة، أما اليوم فلم يبق منها شيء عدا بناية صغيرة مشيَّدة على ضريح ولي مسلم، وهي الأخرى تقع الآن في الصحراء على بعد لا بأس به. والأراضي الممتدة من البصرة إلى الزبير، حيث توجد هناك أيضاً أرض مستنقعات جميلة، مكسوَّة من كافة أطرافها بملح الطعام ولا سيما في الأماكن التي أُنشِئت فيها سدود صغيرة لخزن مياه الأمطار وتبخيرها.

ومدينة البصرة المشهورة، إبَّان حكم الخلفاء الأولين، كانت تقع بلا ريب في موضع أوفر رملاً، يبعد بمسافة تتراوح بين 1 ونصف إلى 2 ميلاً ألمانياً نحو الجنوب الغربي باستقامة جنوبي المدينة الحالية، التي تحمل نفس الاسم. وهناك يصادف حتى الآن بقية سور إحدى المدن، يبدو للعين بأن اجتياز محيطه يستغرق ساعتين على أقل تقدير. وفي داخله جدران جامعين كبيرين يسميان (جامع علي برمكي) و(جامع صفران SAFFRAN)، وفيما عدا ذلك ما زالوا هناك يرشدون إلى مقابر العلماء المشهورين أمثال حسن البصري والزبير بن

علوان[1] وطلحة بن عبيد الله وغيرهم من الذين أمر دفنهم في البصرة معلوم على وجه التأكيد.

وجميع أولئك المشاهير من العرب غير مرغوبين لدى الشيعة ولا سيما الزبير وطلحة، لأنَّهما حنثا بيمين الصداقة، الذي أقسماه إلى إمامهما الكبير، وحاربا ضده من أجل عائشة، ولكن السُّنَّة يحترمونهما، لأنهما خدما تحت أمرة سيدنا محمد ﷺ كضابطين شجاعين، وندما قبل وفاتهما على قيامهما بوجه الإمام علي، الذي كان نسيب سيدنا محمد ﷺ وأصبح خليفة بعد ذلك.

وقد بنى السُّنَّة على قبورهم وقبور الأولياء الآخرين معابد للصلاة، هدمها الإيرانيون بأجمعها في 1156هـ. (1743م)، عندما حاصر نادر شاه البصرة الحالية. إلا أن السُّنَّة أعادوا بناءها ثانية فور انسحاب الأعداء منها. وعلى ما أكَّد عالم إسلامي في الزبير فقد حصلت في هذا الوقت المعجزة التالية:

وهي أن حمار أحد الذين يريدون الذهاب من البصرة الحديثة إلى البصرة القديمة فرَّ من صاحبه، فراجع الرجل المسكين العمال، الذين كانوا يشتغلون قرب قبر طلحة وشكا إليهم من أنه تجوَّل طويلاً في البادية، دون أن يوفق في العثور عليه، فتألم الجميع لما أصابه وتوجهوا بدعائهم إلى الولي ليعيد الحمار إلى صاحبه. وبعد مضي فترة وجيزة، شوهد الحمار راجعاً باتجاه ضريح طلحة، وهو يعدو بأقصى سرعته وكأن وراءه من يسوقه بالسوط.

---

(1) الزبير بن العوام.

وقد سقطت القبة الجديدة، التي شيّدت على قبر حسن البصري(*) مرة ثانية. ولكنهم لم يتمكنوا من التعرض للمعمار الذي شيدها بالعقاب لذنبه هذا: فقد ظهر الولي في منام أحدهم وأكَّد له أن إنشاء القبة لا يؤدي خدمة له وطلب عوضاً عن ذلك إنشاء برج صغير على قبره: وأضاف على ذلك أنه لا يود أن يرقد وسط البرج، بل يفضل أن يكون رأسه حذو الحائط تماماً، لكي لا يطوفوا حول قبره بشكل دائري[1].

ويرقد الزبير تحت قبة كبيرة، قرب جامع جميل ذي منارة واحدة. وعلى ما أكَّد لي إمام هذا الجامع، الذي روى لي الحكايات السابقة، فإنه حين ألقى على الزبير التحية ذات مرة، أجابه عنها. وقد سألت الكثيرين بعدئذٍ عما إذا ردّت إليهم التحية من أوليائهم في أي وقت ما. ولكن يبدو أنهم كانوا قنوعين جداً، فبموجب معتقداتهم لم يكونوا ليتوقعوا مثل هذا اللطف لآثامهم الكثيرة.

وقد أرشدني الإمام أيضاً إلى الشجرة، التي من المفروض أن الزبير قد قُتل تحتها. غير أنها كانت تقع داخل السور، في الوقت الذي تذكر فيه التواريخ العربية أنه فقد حياته خارج المدينة.

وفي مكان لا يبعد كثيراً عن هذه المدينة القديمة، دفن (عبد الله بن أنسَ) الذي كان والده حاجباً لسيدنا محمد ﷺ.

(*) الحسن البصري: الإمام الفقيه الزاهد، الحسن بن يسار البصري (21هـ - 110هـ) تابعي.

(1) يرقد بجانبه، تحت قبة خاصة، شخص يدعى (محمد بن سيرين) ويذكره المسلمون أيضاً بحرمة فائقة. ـ المؤلف ـ.

ولما كان المسلمون يرغبون في أن يدفنوا بجانب أوليائهم، فما زال كثير من الأموات يجلبون من البصرة الحديثة إلى البصرة القديمة.

لقد دمرت المدينة في آنها إلى حد كبير، حتى أنه لم يباشر بتشييد بعض البيوت الصغيرة حول قبر الزبير من جديد، إلا منذ ثلاثين أو أربعين عاماً وقد سُمّيت البصرة القديمة هذه منذ ذلك الحين بالزبير. سكن هذا المكان منذ ثمانية أو عشرة أعوام، عدد غفير من السُنَّة، الذين طردهم من نجد، مؤسس المذهب الجديد المسمى عبد الوهاب، حتى أصبح بالإمكان تسمية الزبير بالمدينة الصغيرة، وذلك لأنه شُيّد هناك أيضاً جامع آخر، إضافة إلى الجامع المذكور.

لم أوفق في الزبير في الاطلاع على أية معلومات بصدد الزمن والمناسبة التي خربت بها البصرة القديمة. وعلى رأي الإمام المذكور، فقد هدمت عاصفة قوية البيوت والجوامع جميعها مرة واحدة، وبنتيجة ذلك شيّد سكانها على الفور البصرة الحديثة، ولكن ليس من الجائز حدوث مثل هذا الأمر بهذه السرعة، بل على العكس من ذلك، فإن سقوط هذه المدينة على أيِّ حال كانت نتيجة طبيعية للإدارة السيئة لحكومة المسلمين[1] وقد نتج عن ذلك أن خلت البلاد الكلدانية، التي كانت غنية بالسكان في حينها من

(1) من الصعب الأخذ بهذا الحكم الذي جاء به نيبور، حيث إن التاريخ يؤيد ازدهار البصرة تحت ظلال الحكم الإسلامي. ـ المترجم ـ.

أهاليها حتى لا توجد فيها أي قرية إلا قرب الأنهر الكبيرة ويشاهد في البصرة القديمة حوض لنهر جاف أو على الأصح قناة محفورة يسميها العرب (DSIARRI ZAADE) كري سعدة أو (HAFFAR ZAADE)[1].

---

(1) مما لا شك فيه أن (DSIARRI ZAADE) كري سعدة هو النهر الذي يسميه اليونانيون (PALLOCOPAS) وقد سافر الإسكندر من بابل عليه قبيل وفاته. ويصف (ARRIANUS) هذا النهر في كتابه السابع بما يأتي: ـ«إنَّ نيبور قد استقى هذا الهامش من المؤرخ اليوناني «ARRIANUS» المولود في سنة (90) ميلادية ونشرها بالنص اللاتيني وقد تفضل الأستاذ الفاضل الدكتور روفائيل بيداويد بترجمتها من اللاتينية إلى العربية على النحو التالي. ـ المترجم ـ»: ـ وفيما كانت المراكب[1] تعد للسفر والمرفأ يُحفر عند بابل، نزل الإسكندر عن طريق الفرات إلى نهر پالاكوپا، وهو يبعد عن بابل نحو ثمانمائة غلوة[2] ينسلخ هذا النهر من مجرى الفرات عند فيضانه وهو لا ينبوع له. وينبع الفرات من جبال أرمينيا، وفي الشتاء يضيع بين الضفتين لقلة مياهه، إلا أنه في غرة الربيع وفي الانقلاب الربيعي خاصة، يصير كبيراً وتزخر ضفافه فيسقي أراضي الآشوريين، فالثلوج الذائبة في جبال أرمينيا تزيد مياهه بغزارة، وإذا لم توجه مياهه إلى پالاكوپا ويخفف مسيله في المستنقعات والغدران، غمر المنطقة كلها لشدة ارتفاعه. تبدأ المستنقعات من مجرى هذا النهر وحتى منطقة بلاد العرب مارّة بمخاوض كثيرة لتصبّ أخيراً في البحر عن طريق مسالك خفية. وبعد أن تذوب الثلوج وخاصة عند مغيب الثريا[3]، يعود الفرات صغيراً بعد أن يعبر القسم الأكبر منه إلى البحيرات عن طريق پالاكوپا. وإذا لم تسد مجاري پالاكوپا ثانية ـ إذ تستمد المياه إلى الجهة المقابلة فتتجاوز الضفاف ـ تتلاشى مياه الفرات المنحدر فيمتنع سقي حقول الآشوريين. ولذلك عني المرزبان البابلي كثيراً بسد منافذ الفرات في پالاكوپا «لكن هذه المنافذ تفتح بسهولة».

---

(1) triremis هو ضرب من المراكب القديمة ذات ثلاث صفوف من المجاذيف.

(2) الغلوة مقياس قديم للطرق طوله ستمائة قدم يونانية.

(3) الثريا هي السبعة كواكب في عنق الثور.

وقد مُدَّت هذه القناة ابتداءً من هيت وهي مدينة صغيرة تقع

= ولما كانت تلك الأرض كثيرة الطين لترطبها بمياه النهر، فهي لا تسمح برجوع المياه إلى الوراء بسهولة، حتى أنَّ (10,000) آشوري بذلوا ثلاثة أشهر كاملة في هذا العمل. إن حكاية هذه الأُمور للإسكندر دفعته إلى التفكير في مشروع مفيد للآشوريين: فعمل على إحكام سد منافذ الفرات عند منبع پالاكوپا. وبعد أن تقدم ثلاثين غلوة، عرضت له أرض حجرة، لو فرضنا أنها سويت لتتصل بمجرى پالاكوپا القديم، لكان نقلها للمياه عسيراً بسبب صلابة تربتها: فكان يرى تحويل المياه وإفاضتها في أوقات معينة من السنة أمراً هيناً. ولذلك ركب النهر عن طريق پالاكوپا فالبحيرات حتى نزل إلى بلاد العرب حيث وقع نظره على مكان طيب ابتنى فيه مدينة وحوطها بأسوار وجلب إليها جالية من الأجراء اليونان والمتطوعين ومن المقعدين عن مزاولة الحرب بسبب الشيخوخة أو لأسباب أُخرى.

ـ انتهت ترجمة الأستاذ الدكتور روفائيل بيداويد ـ.

ما أعظم النظام في هذه البلاد التي اتحد سكانها وحفروا جدولاً يمتد طوله إلى مسافة عدة أيام لغرض جعل البادية خصبة! لا بد أن عدد السكان في هذه الفترة كان وافياً، إذ أنهم لم يفكروا في حفر نهر (PELLACOPAS)، إلا بعد أن استوطنوا في كافة أطراف MESOPOTAMIA أرض ما بين النهرين، التي تستمد مياهها من كلا الجانبين. والظاهر أن حالة النهر المذكور كانت حسنة إبَّان قدوم المسلمين إلى هذه المنطقة، لأن كلاً من مدينتيهم الشهيرتين، الكوفة والبصرة، كانتا واقعتين عليه. وحيث إن تلك المدينتين قد تهدمتا خلال البضعة مئات من السنين التالية، فإن ذلك يدل على أن هذه البلاد أهملت بعد زمن قصير من حكمهم إلى حد يدعو إلى العجب. وربما كانت البحيرة الواقعة قرب مشهد علي والمسماة (بحر النجف) أو (بحيرة)، إحدى بحيرات البر التي كانت تستقى مياهها من الفرات بواسطة نهر (PELLACOPAS) كما يخبرنا به (ARRIANUS). وتوجد مناطق المستنقعات الأُخرى التي يغمرها الفرات لحدِّ الآن أثناء فيضانه بين السماوة والحلَّة.

ويبدو أن الإسكندر الكبير رجع من هذا الطريق وكان PELLACOPAS على اتصال بالفرات في القسم الأعلى والأسفل من بابل. وربما كان الجدول يستقي مياهه من النهر الأصلي من عدة مواقع أُخرى. لذلك يصادف إلى الآن =

شمالي الحلة على مسيرة حوالي ستة أيام منها وذلك من الفرات حتى الكوفة، ومنها وصلت إلى أبعد من ذلك أي إلى البصرة، حيث تصب في خليج يدعى بهور عبد الله (CHOR ABDILLA) أسفل المدينة بما يقارب الثلاثة أميال ألماني. وكما يروي العرب فإن كُلاً من شاطئيْ هذه القناة كان محاطاً بالأشجار وقد أخصبت هذه القناة الأراضي المحيطة بها إلى مسافة بعيدة، ولكن المياه لم تعد تصل إليها منذ سنوات عدة. وأصبحت الآن الأراضي المغلّة سابقاً، بادية يتجول فيها البدو فقط. لذا فإن هجر البصرة لا يُعدّ معجزة بالطبع بعد أن فقدت نهرها، وما ترتب على ذلك من فقدانها لكافة قراها

= في وسط MESOPOTAMIA القديمة عدة فروع تنساب من دجلة إلى الفرات وبالعكس من الثاني إلى الأول.

وعلى ما رأيت في مفكرة أحد الإنكليز، وكان قد سافر من حلب إلى البصرة، فإنه صادف في البادية في موضع يقع على بعد «44» ساعة من هيت باتجاه الشرق إلى الجنوب الشرقي، مدينة مهجورة بأجمعها، يبلغ ارتفاع أسوارها خمسين قدماً وعرضها أربعين قدماً وكل من واجهاتها الأربع تبلغ «700» قدم وقد علت الأبراج أسوارها. وفي تلك المدينة أو بتعبير أدق في تلك القلعة الكبيرة يوجد حصن صغير. وعلى ما بلغني بعدئذٍ عن هذه المدينة المهجورة، فإن العرب يدعونها «الحضر» ELKHADER وهي تقع على مسافة تبعد بما يتراوح بين 10 و12 ساعة فقط على مشهد علي. ومما لا شك فيه أن سبب ترك هذه المدينة يرجع إلى فقدان المياه: ولعل السبب في عدم نقل كافة أحجار هذه المدينة ليتنفع بها في البناء ـ كما كانت الحالة مع البصرة والكوفة اللتين لم يتبق منهما شيء على وجه الإجمال ـ يعود إلى عدم وجود المدن والقرى الصغيرة بجوارها.

ويبدو أن «PLINIUS» «ـ الكتاب السادس، الباب السابع والعشرون ـ» والمحررين القدماء الآخرين، أطلقوا اسم نهر الفرات على «PELIACOPAS» أيضاً.ـ المؤلف ـ

المجاورة فنزح السكان إلى سواحل الفرات التي تتوفر فيها المياه والتي يحتمل أنها كانت تفتقر إلى السكان حينذاك.

وقد وقعت المعركة الشهيرة بين الإمام علي (رض) وعائشة (رض) بموجب التاريخ العام قرب (KHOREIBA)، وهو موقع لا يبعد كثيراً عن البصرة. ولا يستطيع أهل الزبير في الوقت الحاضر تعيين موقع المعركة بالضبط، إلا أنه على حدّ قولهم، فقد جرى القتال في (وادي سيد SEBAN) (لعله سيسبان) وهو واد كبير يقع بين البصرة وجبل سنام. وهناك قرية تدعى (كويبده) ويمكن للمؤرخين تحوير هذا الاسم ببساطة إلى (KHOREIBA) وفي بقاع قليلة من العالم فقط، يمكن العثور على كل هذه الأصناف العديدة من التمر، كالأصناف المتوفرة في البصرة. حتى أن العرب يقسمون هذه الأصناف، كما هو الحال مع أدويتهم، إلى صنفين: بارد وحار. يعد أولهما مفيداً والآخر مضراً بالصحة. إلا أن هذا التصنيف لا يبين شيئاً بصورة عامة إلا في الإفادة بأن الصنف الذي يطلق عليه بلغة العامة اسم (البارد) يكون له طعم شهي وسعر غال، بينما يتوفر الصنف «الحار» بكميات كبيرة، كما أنَّ سعره رخيص، ويكون الغذاء الأساسي لفقراء الأهالي. يعتبر النوع المسمى بالتمر الخستاوي، أفضل الأنواع قاطبة وذلك لأنه لا يثقل على المعدة، مهما كانت الكمية المتناولة منه بينما يعد النوع المسمى (بالزهدي) أردأ تمر في البصرة لتسببه بالغازات الكثيرة. وهو يعطى هناك للحيوانات كما يُصنع منه الكحول. والفقراء فقط ممن لا يستطيعون شراء طعام أفضل يسدّون به جوعهم، يكتفون بتناوله.

ولا ينظر في بغداد إلى هذا النوع بمثل هذه الاستهانة. وربما ينمو هذا النوع من التمر في تلك التربة بشكل أفضل، أو لا توجد في بغداد أصناف متعددة من التمر لغرض الانتخاب، كما هو الحال في البصرة.

ونورد هنا الأنواع التالية بين أنواع التمر الأُخرى التي تنمو في البصرة:

حلاوي، استعمران، شكر، جيزي، ديري، خصاب، خضراوي، اشرصي، بريم، مكتوم ويوجد هذا النوع بجنسين أحدهما أحمر والآخر أصفر، قنطار، لولوي، تمر بنت السبع، خنيزي، أصابع العروس ودكل وكلاهما أحمر وأصفر، جوزي، اشكر، TSCHABSCHAB (جبجاب)، (حصاوي البغل)، SCHIIS شيص، MODDAD مدادي، BUMKIE (لعله بوبكي)، KISSIB «جسب، كسب»، HOTTRIE «حطري» وإبراهيمي[1].

وجميع هذه الأصناف من التمر تُستخدم لصنع الدبس الذي يتناوله الأعراب مع الخبز ولكن النوع الحلو الطعم من هذه التمور والمسمى بالحلاوة هو أنسبها لصنعه.

ونواة التمر الصلبة، هي الأُخرى لا تُرمى، بل تحفظ لغذاء الحيوانات وأظنني قرأت في أحد كتب الرحلات أن

---

(1) وقد سمعتهم في بغداد يتحدثون عن الأصناف التالية فقط من التمر: خستاوي، زهدي، أصابع العروس، دكل، إبراهيمي، بيدراية، SAADA, OWARAIE «سعادة»، BARBEU «بربن»، قوزي خورماسي MRASSA, OM FATTEL, KUSI CHURMASI مرصع «سكري» اشرسي AESCHARSI، مكاوي.

العرب في البصرة، إذا شاؤوا إنبات نخلة جديدة، فإنهم يعمدون إلى تكديس كمية كبيرة من نوى التمر يضعونها بشكل مجموعة أهرام الواحدة فوق الأُخرى على الأرض. أما الآن فإنهم لا يبذلون كل هذا الجهد، إذ على العكس من ذلك تنبت نخلة من نواة واحدة، بل إن الحاجة لم تدعُ حتى إلى زرع النواة لتوفر الفسائل بدرجة كافية. والفوائد المتعددة لمختلف أجزاء النخلة معلومة منذ مدة طويلة. أما أثمار الحدائق والمواد الغذائية الأُخرى، فمتوفرة هناك بكثرة ولكن الخشب مفقود ويحرق السماد بكثرة هناك، كما هو الحال في مصر، ويصنع النشادر من السخام.

والحرارة في أشد مواسمها هناك تبلغ درجة مرتفعة حتى أنَّ الأمثلة على ذلك تتوافر، وإن لم تكن سنوياً، في سقوط الناس في الشوارع مغشياً عليهم بسبب الحرارة. وإضافة إلى ذلك، فإن الجو لا يكون لطيفاً بسبب منطقة المستنقعات المجاورة، وقذارة المدينة ذاتها. وخلال شهر آب بأكمله لم أصادف الرياح الجنوبية الشرقية إلا في مدة تتراوح بين خمسة وستة أيام فقط. وفي أيلول أيضاً، تهبّ الرياح من الجنوب لبضعة أيام فحسب وفيما عداها كانت الرياح تهب دوماً من جهة الشمال والشمال الغربي، تؤثر الحرارة في جسم الإنسان خاصة أثناء هبوب الرياح الجنوبية الشرقية لأنها على العموم تتوقف عدة مرات خلال هذه المدة. فيعرق المرء كثيراً. وقد أصبحت الرياح أكثر تغيراً في حوالي النصف الأخير من تشرين الأول.

وكان الجو في آب وأيلول صحواً على الدوام تقريباً. وفي السابع من تشرين الأول ظهرت بعض الغيوم التي تكاثفت حتى 27 منه بصورة مستمرة. ومنذ ذلك التاريخ، ابتدأ موسم الأمطار مصحوباً بالرعد والبرق.

القتال بين البصريين والعرب

تحكم الساحل الشرقي لشط العرب ومصبّه قبيلة عربية تدعى كعب، وقد بحثت عنها سابقاً في بحث جزيرة العرب «ص319». لا تسكن هذه القبيلة في الخيم كسائر الأعراب في البادية، بل تقيم في المدن والقرى، وعلى الساحل الشرقي للخليج في الوقت ذاته. وقد كان الشيخ سليمان حاكمها الآن، إبَّان تسلمه للحكم، حاكماً لمنطقة صغيرة تعود لإيران كلياً. ولكن حين حدثت الاضطرابات الداخلية في هذه الدولة، ضم كثيراً من المناطق الصغيرة إليه، أما مدينة البصرة، فقد استولى منها على جزرها في الشط، الواحدة تلو الأُخرى، بل حتى على منطقة «دواسر» على الساحل الغربي للنهر: وصفوة القول، فإن هذا الشيخ كان خلال مكوثي هناك، حاكماً لمنطقة مهمة في إيران، وعلى كافة الجزر ومصبات شط العرب العائدة إلى البصرة سابقاً. ولم يكن ليدفع شيئاً إلى كريم خان، إذ إنَّ الأخير كان بعيداً بحيث لم تدعُ الحاجة إلى التوجس منه كثيراً. فإذا طلب كريم خان رسوماً منه، اعتذر عن ذلك شاكياً عدم قابليته على الدفع، معلّلاً ذلك بتقاضي الأتراك الأموال الطائلة منه بالتضييق. أما إذا طلب باشا بغداد الرسوم منه، فإنه كان حينذاك،

يشكو له أمر الإيرانيين معه. وكان يعرف جيداً كيف يجتذب إلى صفه بالأموال أنبل أعيان مدينة البصرة. وبذلك سمحوا للشيخ أن يضمّ القرى إليه، الواحدة تلو الأُخرى. فإن تلقى الأعيان هذا الأمر بسكون، فلم يكن المتسلم عند ذلك، ليرى من المعقول أن يشنها حرباً مع سليمان على حسابه الخاص. ذلك أنه طالما كان المتسلم باقياً في منصبه لفترة قصيرة، كما هي العادة، فقد كان قائماً ما دام يتقاضى الواردات من هناك وكان سليمان يؤدي هذه الواردات بسخاء: فإن رفض المتسلم الجديد تسليم قرى أُخرى إليه أو شاء أن يشنَّ الحرب عليه، فعند ذاك لم يكن ليدفع إليه شيئاً. وحتى باشوات بغداد خرجوا بأنفسهم إلى الحرب مع سليمان في بعض الأحايين. فوجد آنذاك أنَّ من الحكمة أن يؤدي لهم مبلغاً مهماً. فكان يدَّعي تارة أُخرى أنه موالٍ للأتراك. إلا أنَّه كان يرجّح في بعض الأحوال أن يدفع الأموال إلى شيوخ العرب الآخرين ليحدثوا شغباً يشغلون الباشا به من ناحية أُخرى. وقد اتخذ الشيخ «قبان» مقراً له، وهي مدينة صغيرة تقع على الفرع الشرقي من الشط، كما شيَّد سداً منيعاً على الفرع الآخر من النهر لجلب مياه النهر إلى ناحيته، لجعله أكثر صلاحية للملاحة. وفي عام 1765 كان في حوزته عشرة (GALVETTE) سفن حربية وسبعون (DAUNEK) دانقاً أو سفينة صغيرة يمارس بواسطتها التجارة. وإزاء ذلك كانت قوة المتسلم في البصرة تتناقص سنة بعد سنة، وقد بلغ خلال مكوثي هناك حداً من الضعف جعله لا يقوى على الوقوف حتى أمام هذا الشيخ الصغير.

وأخيراً قرر كريم خان أن يطلب الرسوم بنفسه من الشيخ سليمان فدخل إلى منطقته هذه السنة بجيش يحسب قدره. ولكن حظ مساعيه من النجاح لم يكن خيراً مما أصابه قائده أمير KUNEH خان في حملته ضد مير MAHENNNA[1]. انتقل سليمان على ظهر سفنه من جزيرة إلى أُخرى وخلّف وراءه المدن والقرى خالية للعدو. ولم يكن بمقدور كريم خان الوصول إلى الجزر، إلا بمصاعب جمّة بسبب فقدان وسائل المواصلات. فإذا تمكن بعد صعوبات كبيرة من الوصول إلى جزيرة ما، يكون سليمان آنذاك في جزيرة أُخرى حتى عبر أخيراً الساحل الغربي لشطّ العرب إلى منطقة البصرة حيث راجع كريم خان في النهاية، حكومة هذه المدينة وأوضح لها أن مصلحة المدينة تقضي بمساعدته الآن لمحو قوة الشيخ سليمان. فوعده المتسلم بأن يقدِّم له كل المساعدة، ولكنه أخذ يعتذر بين حين وآخر معللاً ذلك بأنه ينتظر قدوم كثير من الناس والسفن من بغداد ـ إلا أنها لم تصل في أي وقت من الأوقات. ولا ريب في أن سليمانَ قد رشى الحكومة في البصرة مرة ثانية، أو أن المتسلم لم يكن لديه المال الكافي للقيام بالحرب وعندما شعر الإيرانيون أخيراً، بأن الأتراك غير جادين في مساعدتهم، انسحبوا وسمحوا لذلك العربي أن يشغل منطقته تحت حكمه مرة أُخرى.

---

(1) الأمير مهنا، راجع تاريخ العراق بين احتلالين ـ لمؤلفه الأستاذ الفاضل المؤرخ عباس العزاوي ـ المجلد الخامس صفحة 20. ـ المترجم ـ.

ولعل أكبر ضرر لحق سليمان من جرّاء حملة كريم خان، هو أن الأخير أمر بكسر السدة في (CHOR SABLE).

وقد كانت البيوت في مدن سليمان وقراه من البساطة، بحيث إن الأعداء لو تكلفوا بهدمها، لما تكبَّد سليمان أي خسارة كبيرة من جراء ذلك.

ويأخذ المرء العجب، من أن كريم خان بعد أن طرد ثائريْن في هذا العام، هما الشيخ سليمان ومير «مهنا»، شر طردةٍ من منطقتهما، عاد فسمح لهما بأن يسترجعا منطقتيهما تحت نفوذهما مرة ثانية. ولكنه لم يكن بموجب نظام الحكم القائم هناك، ليستطيع المحافظة على تلك المنطقة. وقد أخليت المدن من سكانها إخلاءً تاماً، لذا لم تعد فيها بعد، الحرف أو كافة المواد الغذائية. أما القرى، فلم يكن في استطاعته المحافظة عليها لأن الأعداء كان بوسعهم أن يقفوا بسفنهم في أي مكان ويدمِّروا القرى التي تريد صداقة الإيرانيين. لذلك فلو شاء كريم خان أن يترك قوة الاحتلال في مدن الشيخ سليمان، فقد كان من الواجب أن تكون هذه القوة كبيرة، كما يلزم أن يتولى كافة نفقاتها بنفسه: وهكذا سيصبح في حالة حرب مستمرة لا يرجى له منها أي فائدة. ومن المحتمل أن سليمان اضطر تارة أُخرى لدفع مبلغ مهم إلى الإيرانيين لأنهم حافظوا بقدر المستطاع على نخيله، ولو قاموا بقطعها لألحقوا به ضرراً لا يمكن تلافيه بسهولة.

أما حسب ادعاء الأتراك، فقد كان بمقدورهم أن يسترجعوا

ثانية كافة الأماكن التي غنمها منهم بصورة تدريجية، الشيخ سليمان. بل إنهم لو هجموا عليه عند نفس الوقت مع كريم خان، لاستطاعوا بعناء قليل جداً إزالته تماماً. ولكن الامتناع عن حماية شخص يُقتفَىٰ يتنافى مع دينهم ومع تقاليدهم في إكرام الضيف: فعامل الأتراك جيرانهم المطرودين من ديارهم شر طردةٍ، بكرم، وسمحوا بإيجاد محل لهم ولقواتهم كملجأ، في إحدى المناطق العائدة لهم. إلا أن سليمان لم يكن راغباً في انسحاب قطعاته من منطقة البصريين بهذه السرعة، وذلك لأنه كان قبل كل شيء ينتظر حلول موعد جني التمر، الأمر الذي جعل الأتراك يرون حركته على جانب كبير من الوقاحة، فأمر باشا بغداد البصريين بإعلان الحرب على الفور على ذلك العربي القليل الوفاء وأن يستولوا على منطقته بأجمعها. وقد كان في حوزة المتسلم فيما عدا قطعاته الخاصة لواءان من المشاة (براتلي وتفنكجي)[1] إلا أنه لم يجرؤ على القتال بتلك القوة فقط، بل جمع بالإضافة إلى ذلك قطعة من (سردن كجدي)[2] وقَبِل كل من راجعه للتطوع دون أن يُعنى فيما إذا كان يعرف استعمال السلاح أم لا. وصفوة القول، إن المتسلم ألَّف بسرعة جيشاً قوامه يتراوح بين 4 إلى 5 آلاف نسمة وظن أن

(1) براتلي ـ حسب المؤرخ الفاضل الأستاذ عباس العزاوي فإن البراتلي هو الحائز على (البراءة) أي الامتياز وهذا صحيح. حيث إن هؤلاء الجنود على أغلب الظن من الجنود المسمين في بقية الألوية (جبه لي) والذين كان يجلبهم أصحاب البراءة.
تفنكجي ـ جنود الباشا المشاة ويستوفون رواتبهم من الباشا. ـ المترجم ـ.

(2) سردن كجدي ـ المتطوعون بالأجرة، يجمعون خلال الحملات فقط. ـ المترجم ـ.

بوسعه بهذه القوة مهاجمة سليمان، الذي كان في ذلك الوقت مع 1400 إلى 1800 محارب في منطقة DAUASIR دواسر أي إنه لا يزال على الساحل الغربي من شطّ العرب.

وعندما خرجوا من المدينة، أظهرت كافة القطعات شجاعة فائقة ولكنهم احتاجوا أياماً كثيرة لقطع المسافة التي تكاد تبلغ «10 ـ 12» ميلاً. أما المتسلم نفسه، فقد بقي مع أحسن قطعاته في المؤخرة على مسافة بضع ساعات بصورة دائمة. وكان أسطول (القاپودان باشا) مهماً وكان (القاپودان باشا) نفسه راكباً على BASCHTERDE أكبر التكنات ومعه فيما عدا هذه السفينة عشر تكنات أُخرى و(GALVETTE: KALBET) وكل هذه السفن من السفن الحربية، وتعقبها كثير من السفن الصغيرة محملة بالذخيرة والأفراد. وكان الأتراك يعتمدون بصفة خاصة على سفينة إنكليزية تجارية أعارها لهم الممثل الإنجليزي هناك، الذي كان كتاجر أفضل مما هو كرجل دولة، وعلى شابين إنجليزيين سيقومان بقيادة (تكنتين). وقد تجمَّعت القوات الأمامية على الساحل الغربي من الشط في موضع يقع مقابل الزاوية الشمالية لجزيرة (MOHARZI) محرزي، وقد رسا هناك أيضاً جزء من الأسطول كان يحمل الإنجليز. وفي رأس الجزيرة المذكورة، كانت السفن الحربية المعادية راسية أيضاً. وعلى موقع يقرب بساعتين من المدينة، ثبت المتسلم خيمته ورسا بالقرب منه «قاپودان باشا»، ذهب الأتراك في الليلة الأولى للنوم وهم مستريحو البال تماماً لاغترارهم بعظمة قوتهم البرية والبحرية. غير أنَّه بعد منتصف الليل، تسللت بضع

من السفن الحربية التابعة لسليمان إلى وسط أسطول الـ(قاپودان باشا) فلمَّا أيقظ العدو الأتراك من نومهم، تركوا سفنهم بسرعة فائقة، وكذلك استفاق كل من وجد منهم في مقر المتسلم: وقبل أن يتخذوا بعض التدابير الدفاعية، رجع رجال سليمان ومعهم «ثلاث تكنات» استولوا عليها.

وفي اليوم التالي نشرت سفن سليمان (GALWETTE) أشرعتها وسارت بمحاذاة الأسطول التركي حيث قامت بنهب بضع قرى جوار البصرة كما استولت على بعض وسائط النقل الصغيرة. ولكن سليمان لم يكن ليرغب آنذاك في محاربة البصريين مدة طويلة، فعقد معهم اتفاقاً تعهَّد بموجبه أن يدفع إليهم مبلغاً معيناً. وعلى الأثر رجع الجيش بأجمعه إلى البصرة تارةً أُخرى بعد غيبة دامت بين ثمانية عشر وعشرين يوماً، وسرح على الفور جميع أفراد الـ«سردن كجدي».

وبموجب وجهة النظر السياسية للممثل الإنكليزي فإن من غير الممكن أن يسخط الشيخ سليمان على الشعب الإنجليزي، بسبب إعارته البصريين سفينة وبعض الرجال لقيادة سفنهم الصغيرة. أما وجهة نظر سليمان فقد انصبَّت على أنه تعرض للهجوم سواء من الأتراك أم من الإنكليز، وقد قاموا بتهديده على أقل تقدير وقد عقد صلحاً مع الأتراك، أما بالنسبة إلى الإنكليز، الذين تأخروا عن إيراد ذكرهم في المعاهدة، فإن الأمر لم يكن بهذه الصورة لذا فإن سنحت له الفرصة، فلم يكن من المحظور عليه أن ينتقم منهم. أرسل الممثل (القنصل) اليخت الصغير CHAREDSCH إلى

أبي شهر. وقد سمح سليمان هذه المرة لليخت أن يمضي في رحلته بسلام. وحوالي منتصف تموز وصلت إلى الشط سفينة، قادمة من مدراس ولم تكن على مسافة بعيدة من البصرة، وقد شاهد قائد الدفة الذي كان يقوم بالحراسة ليلاً، كثيراً من السفن الصغيرة تنحدر من النهر ولكن لم يتبادر إلى ذهنه كونها للأعداء. فلما رأى رجال سليمان، أن الإنكليز لم يكونوا على استعداد، قفزوا إلى السفينة على الفور وهم يطلقون الصرخات العالية. واستولوا على السفينة قبل أن يتمكن ربانها من الخروج من حجرته(1) وكانت السفينة الإنكليزية الكبيرة التي جاء بها اليخت من CHAREDSCH قد وصلت أيضاً إلى مصبّ النهر. وفي اليوم التالي صادف رجال سليمان، الذين كانوا يرومون إيصال السفينة المستولى عليها من الفرع الغربي للنهر، إلى الفرع الشرقي إلى مينائهم قبان، صادفوا للمرة الأولى سفينة (اليخت) تسير في المقدمة ناشرة شراعها، دون أن تتوقع ما يخشى منه. ففاجؤوها هي الأُخرى وقادوها معهم وحين شاهدت السفينة الثالثة، السفينتين الإنكليزيتين تعودان أدراجهما، ومعهما مجموعة من السفن (GALWETTE)، تبادر إليها على الفور أمر الاستيلاء عليها. وحاولت الرجوع إلى الخليج، وذلك لأنه كان في وسع سفينة كبيرة، القيام بمناورة هناك على وجه أفضل مما تقوم به في النهر. ولكنها انغمرت في كثيب يقع أمام المصبّ. وقد انتظر الأعراب نفاد الماء إليها بدرجة كافية

---

(1) كان الضباط وحدهم من الأوروبيين أما بحارتها فقد كانوا جميعاً من الهنود. ـ المؤلف ـ.

حتى مالت السفينة على جانبها. وبذلك أصبحت كافة مدافعها غير قابلة للاستعمال. حتى إذا تمّ ذلك قفزوا إلى السفينة وأسروا ملاحيها. ومع المد الأول جلبوا السفن كافّتها إلى (قبان).

لم يكن الممثل الإنكليزي ليتوقع هذه الضربة من سليمان. وقد أجرى معه مخابرات، استمرت مدة طويلة، بشأن إعادة السفن. وأخيراً توصلوا إلى سبيل للاتفاق، ولكن سليمان لم يكن ليرغب في تنفيذه قبل تصديقه من الحكومة في بومباي. وقد أرسل في هذه الآونة إلى البصرة جميع الربابنة وقادة الدفة، بعد مضي ما يناهز الثلاثة أسابيع على أسرهم، وبعد مدة قصيرة وصل الملاحون جميعاً.

وقد روى هؤلاء الإنكليز كثيراً من الروايات التي تبيّن عدم معرفة العرب بطباع وعادات الأوروبيين، وبين هذه الروايات الرواية التالية:

شاهد أحد ضباط سليمان رباناً ينظر إلى ساعته، فأراد الاطلاع على هذه الحاجة. فلما سمع شيئاً يتحرك داخلها، أدخلها بسرعة في دلو مملوء بالماء ليغرق هذا الحيوان فيه، فلما استمرت الساعة في الحركة بالرغم من ذلك، قذف بها أرضاً فتحطم غطاؤها الخارجي وأخذ لولبها ينفكّ فجأة. وقد فزع الأعرابي من كل هذه الظواهر، حتى أنه سارع برمي الساعة إلى خارج السفينة.

في يوم 24 آب بعد الظهر، شاهدنا ثمانية سفن تعود للشيخ سليمان ناشرة شراعها تسير متجهة إلى أعلى النهر. ولذلك سادت

الحركة المدينة. وبالنظر لتخوف المتسلم من أن يستولي العرب على التكنات الراسية أمام دار القاپودان باشا، بل حتى أن يقتحموا المدينة نفسها، فقد ذهب في الليلة التي أعقبتها إلى (مناوي) مع جميع قطعاته بالرغم من أن أفرادها لا يعكِّرون راحتهم بسهولة في العادة. وقد طرق سمعنا في اليوم الثاني أن رجال سليمان نهبوا بعض القرى الرديئة العائدة لشيخ عشيرة المنتفك، وأحرقوها. ويسكن أولئك الأعراب بين البصرة والعرجة وقد حاصر هؤلاء في وقت ما المدينة بل أغرقوها بالمياه، ولكنهم الآن يؤدون الرسوم إلى باشا بغداد عن أنفسهم، لذلك يعيشون مع أهل البصرة بسلام.

لقد أوضح الشيخ عبد الله، الذي يحكم هذه القبيلة الآن، بأنه مضطر بسبب تصرفات سليمان أن يلوح بمهاجمة منطقته على الفور، كما دعا المتسلم بواسطة شخص من أكثر أقاربه صلة به، إلى الاشتراك في هذه الحملة: وقبل أن يتسلم ردّ المتصرف التركي شوهدت بعض قطعات جيشه تمرُّ قرب المدينة ولكن أي جيش؟ انحدر بعض الأعراب مع نسائهم وأطفالهم في الزوارق على النهر بينما كان البعض الآخر منهم يمرُّ بجماله غير المحمَّلة قرب المدينة وبمعيتهم جميعاً أكياس خالية يتوجهون بها صوب بساتين النخيل الواقعة في الحدود الجنوبية لمنطقة مدينة البصرة. أما سليمان فقد اقترب مرة ثانية بمراكبه «GALVETTE» وسائر سفنه الصغيرة من المدينة، على حين توجه المتسلم ثانية بقطعاته إلى المناوي. إلا أن سليمان لم تكن له نية في الهبوط إلى البر في موضع يظن وجود مقاومة له فيه، فشرع يجني ثمار النخيل من

القرى الواقعة قرب المدينة تماماً، وكان يتقدم بعمليته تلك متوجهاً إلى الجنوب بصورة مستمرة، بينما أعراب عشيرة المنتفك على العكس من ذلك يجنون التمر من الجنوب إلى الشمال. فكان كل منهم يقوم بعمله هذا في منطقة مدينة البصرة.

وفي العاشر من تشرين الأول عاد أعراب عشيرة كعب إلى بيوتهم وفي اليومين التاليين رجع أفراد عشيرة المنتفك أيضاً. وعند ذاك فقط تمكَّن البصريون من جني التمور التي خلفها لهم جيرانهم، فتبين من ذلك بجلاء تام، أن كلاً من الشيخين عبد الله وسليمان كانا على اتفاق بشأن الاستحواذ على تمور الرعايا العثمانيين.

وقد رغب في هذه الآونة أعراب قبيلة المنتفك أن يتظاهروا بأنهم أصدقاء البصريين ففي كل يوم يفد عدد منهم إلى المدينة، حيث يتحدثون كثيراً عن الاصطدامات التي جرت لهم مع عرب قبيلة كعب، لمنعهم من نهب بساتين النخيل، حتى أنه حدث ذات مرة أن بعث الشيخ عبد الله إلى المتسلم رأسين مقطوعين، طيف بهما قبل تسليمهما، في شوارع السوق إشارة للظفر. وكان على أهل المدينة ألا يكشفوا عن أفكارهم بتاتاً فيما يتعلق بذلك القتال، وعلى حدّ اعتقادهم فإن الأعراب قطعوا رؤوس الفلاحين الذين ماتوا مرضى، والأشخاص الذين اعترضوا على نهب بساتينهم.

كانت الحكومة العثمانية أثناء ذلك تبدي ارتياحها إلى هذا

التقدم الحسن لمجرى الأُمور لخشيتها من رغبة المنتفكيين من جهة والكعبيين من جهة أُخرى في الهجوم على المدينة. وأخيراً تخاصم أعرابي من قبيلة المنتفك مع جندي من جنود المتسلم واعتدى عليه، فلم يعد باستطاعتهم بعد تحمل مثل هذا التحقير داخل أسوار مدينتهم فاحتشد جمع غفير من (براتلي) و(تفنكجي) و(انكشارية) وضربوا الأعراب الذين لم يعجلوا في الخروج من المدينة ضرباً مبرحاً.

ويدفع الأوروبيون الذين يتعاطون التجارة مع البصرة 3 بالمائة رسوماً گمرگية عن كل بضاعة يجلبونها من الهند، في حين يجب على كافة الأقوام الشرقية دفع 7 بالمائة رسوماً گمرگية: وحيث إنّ بضائع أولئك الآخرين يجب أن يخمّنها موظفو الگمارگ، فهي ترتفع أغلب الأوقات إلى أكثر من ذلك. لذا فإن عدم وصول هاتين السفينتين الهنديتين سبَّب ضرراً بالغاً للحكومة، فجربت كل المحاولات لإقناع سليمان بإعادة السفن ثانية.

وقد تطوَّع في بغداد سيد نبيل ـ لم تمض بعد بضعة أشهر على تسلمه 600 «دوكا»[1] من سليمان لقاء حلّ قضية خاصة مع الباشا ـ تطوَّع بالذهاب إلى صديقه سليمان كمندوب فبلغ البصرة في أواسط تشرين الأول وواصل رحلته حالاً متوجهاً إلى «قبان»، ولكن سليمان لم يرغب في التعرف عليه الآن. وإذ بسط السيد إلى سليمان

(1) دوكا ـ عملة ذهبية تعادل ما يقارب تسعة ماركات ألمانية، تزن 3490 ميليغرام منها 3441 ميليغرام ذهب. ـ المترجم ـ.

الخدمات التي أداها له من جهة، وأيادي الباشا عليه من جهة أُخرى، أخذ سليمان يحصي المبالغ التي أداها مقابل تلك الخدمات، بل وتردد في قبول الفرو الثمين الذي بعث به الباشا إليه إشارة لعطفه. وأكَّد له أن العباءة السميكة أكثر لياقة لشيخ العرب من فرو الهواة الأتراك، سيما وأن من أرسلها مثله، شخص خادم للسلطان والنتيجة أن السيد استقبل ذلك الاستقبال، بحيث إنه أصبح ممتناً لاحتفاظه بلحيته وتمكنه من العودة إلى البصرة ثانية، دون أن يتلقى علقة.

وفي 26 تشرين الأول وصل مندوب آخر للباشا كانت منزلته أرفع من سابقه، وهو عربي أصيل اسمه عبد الله بك يعمل في خدمة باشا بغداد، كما أنه شخصية محبوبة لدى العرب قاطبة. وقد أرسل هذا الشخص رسولاً على الفور إلى قبان مخبراً الشيخ سليمان بوصوله. وقد توجَّه بنفسه في 28 من الشهر إلى هناك وبمعيته أيضاً الشيخ درويش وهو من أوجه أعيان البصرة. واستقبل كلاهما بحفاوة بالغة، بحيث إن التفخيم الدائم صرفهما عن الموضوع الأصلي. وبالنظر إلى أن الباشا أسبغ على سليمان شرفاً بإيفاده اثنين من أوجه موظفيه إليه، فقد أوفد سليمان هو الآخر أيضاً، أكفاء مستشاريه معهما إلى بغداد. وبهذه الصورة بسط لهما تفاؤله من أن مستشاره سيتوصل مع سيدهما إلى حلّ من الحلول. ما أكبر ذلك الذل لباشا يحكم مناطق أوسع مما يحكمه بعض ملوك أوروبا. ولكن الحكومة العثمانية في الألوية النائية ضعيفة إلى هذه الدرجة.

كان حظ البصرة في هذا العام نحساً جداً. فعادة تصل في الخريف خمسون (TRANKIS) من مختلف الموانىء من عمان، جميعها محمَّلة بالبن من الحديدة ومخا. ولو رغبت السفن التي وصلت مبكراً مواصلة سيرها متجهة إلى البصرة، لكان عليها أن تدفع رسماً گمرگياً لا بأس به إلى الشيخ سليمان، وأن تشتري منه تمراً عند عودتها. فلما بلغ خبر الاضطرابات في شط العرب إلى مسقط، نقل باقي البن الموجود هناك من السفن الصغيرة إلى سفينة حربية للإمام. ومع أنها وصلت في أواخر تشرين الأول إلى أبي شهر، إلا أنها لم تجرؤ على مواصلة رحلتها. وعلى ما سمعت في السنة التالية، فإن تلك السفينة وضعت كافة حمولتها في مخزن ما يقع في (CHAREDSCH)، التي سقطت هي الأُخرى وسائر الجزيرة، بيد مير مهنا. ولم تبلغني بعد ذلك أية معلومات وثيقة، عما إذا أعاد سليمان إلى الإنجليز شيئاً من السفن التي استولى عليها أم لا.

الطرق المختلفة عبر البادية

بين البصرة وحلب

إن أقصر طريق من البصرة إلى حلب يمرُّ خلال البادية، ولكنه طريق يزخر بالعشائر العربية إلى حدٍّ يجعل كل واحدة منها ترى نفسها مستقلة في منطقتها وفي وسعها أن تطالب السياح بعطية، لذا لا يستطيع أن يختار ذلك الطريق من لم تسنح له الفرصة على السفر بمعية قافلة كبيرة.

كانت التجارة في البصرة، خلال مكوثي فيها، متردية بحيث لم يستطيع أن يجتمع كثير من التجار هناك ليؤلفوا قافلة قوية إلى الحدِّ الكافي، مما اضطرني إلى اختيار طريق آخر، حيث أتيحت لي فرصة التعرف على بدوي، رحل بين البصرة وحلب أكثر من عشرين مرة عبر البادية. وهنا أرغب أن أبيِّن للقراء طريق الرحلة، الذي أرشدني إليه والذي زيد ببعض أسماء أضافها إليه أحد التجار.

يسير الطريق الاعتيادي بهذا الشكل:

الزبير، كوبيدة، شكرة، الخنقة، القصير وهي قلعة متهدمة، وادي ABUL M,RI,S، عيون صيد، أم GRAN (لعله أم القروز)

وهو بركة أو حوض حفر على نفقة زوجة أحد الخلفاء، الغضاري، DSIURTEMI، القايم أو الألثلة، وقرب مشهد علي NAHAME، الطقطقاذة أو الحياضية، ELHOSSIA,N، الأخيضر وهي القلعة القديمة المذكورة آنفاً. رأس العين، تميل. الكبيسة، عقلة حوران، ثغب الجاموس، المالعي، الرتفة، البردان، RUCHBA رحبة وهي قلعة قديمة على الفرات. جب غنم، الحمض، جبل بوشير، المذمة، الطيبة وهو جبل. وكانت هناك قرية بهذا الاسم تهدمت تهدماً تاماً منذ حوالي عشرين أو ثلاثين عاماً. ويتكون KUSSUR EL CHOE,N في هذه المنطقة من قصرين قديمين. قاع أبو الفياض، عنز الروثة، صهاريج، على جبل شبيت. ويوجد في هذه المنطقة أيضاً جبل باسم LAHAS. حقلة، عين سفيره أو عين DAHHAB حلب[1]، فإذا انعدم الأمن في الطريق المذكور آنفاً، فعندئذٍ تسلك القوافل طريقاً أعلى في البادية.

---

(1) يظهر هذا الطريق في خارطة رسمها شخص اسمه ARMISCHAL ملحقة بالقسم الثاني من رحلة IVES. ولكن تذكر ISSABER هناك (بدل الزبير)، GANAGA، شقرة SHAGARA (SCHAKRA) (KOWABDE بدل) QUIBDA (CHANEKE) (لعلها حناكية) (-BATTANKOSAR-) BATTAN CUSSORA، ABD MURRIS «ABUL MRIS» GERSME (DSJURTEMI) KUCKMA (RAHAME)، (ELTUKTEGANE) TICKDEGANA التفتفانة ALKADER «ELCHADER»، «RASEL AIN» AINIL RASALIN رأس العين TAMMEL «TAMAL» (لعله أبو كمال) CABASSE (KOBASE) لعلها كبيسة، OGLET HARAN (UKLETHAURAN) TOCAB JAMUS (TOGA DSIAMUS) MONEAVAL (ELMANAI) DUBILGAREM) (DSIUB GANNEM GEBOAL BUSCHIR (-BUSCHIR DSIABBEL-) LAHAAZ (LAHAS) HAGLA (HOKLA) INDAHAB (AIN DAHHAB). ـ المؤلف ـ.

وفي هذه الحالة، يلزم عليها أن تتزود بمقدار من الماء يكفيها لمدة أربعة أو خمسة أيام. وهذا الطريق نذكره أدناه:

من البصرة إلى الزبير، كويبده. شكره، خنقة، القصير، سلمان، الاثلة، قطرى، البدى، حجرة أو محيوز، العقرة، صواب، الصرايم، الصخنة بير قديم، أبو الفياض، الحمام، جبل الأحصى، HOKLE (لعلها عقلة) SFIRE، حلب.

أما من بغداد إلى حلب، فتسير القوافل على الطريق الآتي:

عقرقوف، الهيس، الفلوجة، الوحلة، أم الروس، صنيديج، هيت وهي قرية، المعيمرة، عين الأرنب UKLET HAURAN عقلة حوران ومنها تعقب طريق البصرة ـ حلب.

فإن لم يكن القتال ناشباً بين القبائل العربية أو بينها وبين الباشوات الأتراك وكان قائد القافلة رجلاً مستقيماً والسائح واقفاً على اللغة المحلية معتاداً على المعيشة في ظل العادات الشرقية، فإن رحلة خلال البادية لا تكون أمراً مزعجاً ولا محفوفاً بالأخطار. ولكن اجتماع هذه الشروط جميعها من النوادر.

وقد عرف القارىء من الأحداث التي مرَّ بنا ذكرها، مدى سرعة نشوب القتال في هذه البلاد وتوقفه مرة أُخرى. والاعتقاد السائد، أن المرء عندما يغادر المدينة في سفر لا يلاقي خلال رحلته كلها شيئاً يدعو إلى الخوف. ولكنه يصادف على أغلب الأحيان، وسط الطريق، الأعداء المتذمرين من الشيوخ المجاورين أو الباشوات الأتراك. وفيما عدا ذلك يتوقف الأمن بصورة دائمة

على أسلوب التفاهم بين الـ«كروان باشي» والأعراب، لأجل المرور بينهم بسلام. وأكثر الأسفار أمناً، هو السفر بمصاحبة عرب بني خالد الذين يجلبون في كل عام مجموعة كبيرة من الجمال إلى حلب للبيع، ويمرّون عبر طريقهم، قرب مدينة البصرة. ومما لا يبعث أيضاً على الخوف كثيراً، هو السفر بصحبة قافلة تجارية يقودها أحد أعيان البصرة، الذي يكون هو الآخر تاجراً في الوقت نفسه. ذلك أنه يعنى كثيراً بحماية القافلة وسمعته طيبة، مما يجعله لا يهمل حماية السياح، وقد اعتاد السفر منذ الشباب كما أنه يعرف شخصياً كافة الشيوخ الكبار، الأمر الذي يساعد كثيراً في تطمين أولئك السياح. ولعل أكثر تعرض السائح للأخطار وتكبده للنفقات يحدث عندما يتسلم قيادة القافلة شخص تركي، وهو ما جرت العادة عليه في القوافل التي تسير من بغداد إلى الشام وإلى مكة المكرمة. ويبيع الباشا أغلب الأحيان منصب «كروان باشي» في هذه القوافل إلى الشخص الذي يقدِّم عطاء أعلى من غيره، مثال ذلك، أن أحدهم تعهَّد بأن يؤدي هذه السنة «4000» دوكات فيما لو سمح له بقيادة قوافل الزوار الإيرانيين، الذين يسافرون في موسم معيَّن من السنة من بغداد إلى الشام، ويصحبهم عادة في السفر كثير من السُّنَّة والمسيحيين أيضاً، وتقدم بعد ثلاثة أسابيع شخصٍ آخر تعهَّد بدفع «6000» دوكات فرجحت كفته. ويقضي الأمر على شخص كهذا، أن يجمع عدداً كبيراً من الجند ويوزع هدايا ثمينة على كافة العشائر العربية التي يصادفها عبر الطريق: وليس في هذه النفقات التي تدفعها القافلة الكفاية، إذ إن قائد القافلة هو الآخر يريد

الحصول على مبلغ كبير في هذه الرحلة. وقد يتفق أحياناً، زعماء القوافل، ممن هم على هذه الشاكلة، مع العرب على مهاجمة القافلة في منطقة معينة ونهبها. وعلى ما يؤكد لي التجار من ذوي التجربة والسن المتقدم، فإنه إذا نهبت قوافل كبيرة من قبل العرب، فإن الذنب في ذلك بصورة عامة، يعود إلى مرشدي القافلة. وقد عرضنا من قبل أمثلة على ذلك في وصف جزيرة العرب في 382.

وكما روى لي شخص سافر في قافلة كهذه، فإن على كافة التجار دفع مبلغ معين عن حمولتهم. كما يجب ذلك على السياح الآخرين وذلك عن أنفسهم، قبل الشروع في الحركة. ويتعهد الـ«كروان باشي»[1] لقاء ذلك، بمرافقتهم بأمان إلى المنطقة المقصودة من قبلهم، دون أن يتقاضى منهم شيئاً غير ما تقدم. فإذا لمح أولئك السياح بعض الأعراب عن بعد، فعندئذٍ يتقدم نحوهم الـ«كروان باشي» ببعض رجاله ممتطياً الخيل، بينما يلزم على القافلة أن تتوقف عن السير طيلة تلك المدة وليس في وسع أحد ما إطلاق النار على العرب حتى وإن اقتربوا من القافلة كثيراً وهدَّدوها بالنهب. وأغلب الأحيان، تستغرق المداولات بين الشيخ والكراون باشي وقتاً طويلاً، فتارة يرجع أحدهم وطوراً يعود الثاني ملوّحاً باستعمال السلاح، وحيناً آخر يهين العرب الكروان باشي، وفي النهاية يتوصلون إلى الاتفاق. وفي كل ذلك يعرف الدليل كيف يقدم حساباً يقضي بموجبه على كل سائح أن

(1) أمير القافلة.

يدفع مرة ثانية مبلغاً لا يقلّ عما طلب منه في بداية الرحلة. وبصفة خاصة، تصعب الرحلة كثيراً في بادية العرب بالنسبة للشيعة، فليس عليهم أن يدفعوا أكثر مما يدفعه السُّنَّة إلى الكروان باشي فحسب، بل هم في الوقت نفسه يتعرضون على الأغلب إلى معاملة سيئة لكونهم من المنسوبين إلى المذهب الآخر.

بحث بعض السياح عن بريد الحمام الزاجل المستعمل في الأزمنة القديمة في البلدان الشرقية[1] والموجود مثله الآن في كثير من المدن، غير أنه لا يمكننا أن نتصور أن من الممكن إرسال الحمام الزاجل إلى مختلف الأقطار كسائر السعاة. وحيث إنه لا يوجد هناك بريد يرسل في وقت معين من مدينة إلى أُخرى، عني بعض التجار بتربية مثل هذا الحمام ليتمكنوا من إرسال أخبار سفرهم التي انتهت بسلام إلى عوائلهم. وقد التقيت في البصرة بتاجر بغدادي، اعتاد على استخدام هذا النوع من بريد الحمام الزاجل في كل رحلاته. وقد تربى هذا الحمام في بيته، وألف أن يتناول غذاءه في محل معين، وكان بإمكانه إضافة إلى ذلك أن يطير بحرية متعرفاً على معالم الأماكن المحيطة في الجوار. وقد اصطحبه في رحلته الأولى إلى الحلة والثانية إلى لملوم والثالثة إلى العرجة أو العرجاء وأخيراً إلى البصرة، حيث طيَّره مع قطعة صغيرة من الورق، وبذلك عاد الحمام إلى البيت رأساً. والحمامة التي تترك صغارها في الدار، رجوعها أمر محقق. وعلى ما

(1) VOYAGES DE PIETRO DELLA VALLE TOM.I, P.284.

أكدوا، فإن أنسب حمام لذلك الطراز من البريد، يوجد في بغداد، وهو من جنس خاص. ولست أشك في أنه لو عني أحد بذلك، لكان من الممكن أيضاً تربية الحمام الأوروبي على تلك الدرجة في الإتقان: وكما أكَّد لي فإن أحد الإيطاليين استخدم ذلك الحمام أيضاً لأجل أن يتوصل قبل أهل مدينته إلى معرفة الأرقام الفائزة ليانصيب سحب في مكان آخر. ولكن هذا الأمر ليس ضرورياً جداً بالنسبة لنا، لأن في وسعنا إرسال الرسائل إلى مختلف الأطراف تقريباً بسرعة وبكلفة رخيصة.

ويروي الكسندر هاملتون(1) أنه يوجد في منطقة البصرة غربان سود وغربان بيض. يوجد أولها في غربي الفرات والآخر في شرقه. ولو عبر واحد من تلك الفرقة إلى الطرف الآخر من النهر، لردّته الفرقة الأُخرى إلى الوراء. يعتقد أولئك السياح غالباً بسهولة، في كل شيء يقال. ولكنني شاهدت هناك غرباناً كلها سوداء اللون وأُخرى لونها أشهب كما شاهدت غرباناً أُخرى رأسها وذنبها وجناحها أسود. غير أن تلك الغربان كانت تارة في هذا الجانب وطوراً في الجانب الآخر من النهر. وعلى الأغلب مختلطة بعضها ببعض. وليس ثمة عربي سمع في أي وقت من الأوقات، أن الفرات يكون حدّاً فاصلاً بين هذه الغربان السوداء والبيضاء.

---

(1) ANEW ACCOUNT OF THE EAST INDIES VOL.I, P.78.

رحلة من البصرة ولملوم إلى مشهد علي

«تشرين الثاني 1765».

هناك طريقان من البصرة إلى بغداد: أحدهما على دجلة، والآخر على الفرات. ويكون الطريق الأول طويلاً بسبب التعرجات الكثيرة والكبيرة في النهر، بحيث إن السياح عندما يريدون السفر من بغداد إلى البصرة، عن طريق النهر لا يسلكون في سفرهم ذلك الطريق إلا فيما ندر. ولا توجد إزاء ذلك على الفرات، تعرجات بهذه الكثرة. ويسافر على ذلك النهر أيضاً إلى الحلة فقط ومنها يسافر عن طريق البر إلى بغداد رأساً، وبذلك يقصر الطريق كثيراً. وفي الفرات يوجد نوع من «المنازل» فإذا شاء أحد السياح أن يستعين بإحدى وسائل النقل الصغيرة جداً، فعليه أن يبرز «بويورولدي» (إجازة سفر ممنوحة من الحكومة) ويستأجر رجالاً من محطات معينة ليسحبوا زورقه لقاء بدل رخيص، فيتمكن أن يصل بهذه الواسطة خلال «ستة ـ ثمانية» أيام إلى الحلة. إلا أنه لا بدَّ في أيام الشتاء، أن يكون المسافر متمتعاً بصحة جيداً جداً. وبالنظر لكثرة اللصوص في ذلك الطريق، فقلما يجتاز أحد برغبته، هذا النوع من الأسفار. ولا يسلك ذلك السبيل إلا رجال

الدولة، الذين لا يجسر العرب بسهولة على مهاجمتهم، أو بصورة عامة الأشخاص الذين لا يتمكنون من تأخير سفرهم، أو الأفراد الذين لا يحملون معهم شيئاً أكثر مما يحتاجون إليه أثناء السفر.

ولبثت أنتظر حتى لقيت سفينة صغيرة محمَّلة تريد أن تتوجه إلى الحلة، فاستأجرت قمارة فيها وحجرة صغيرة مفتوحة تقع أمام غرفتي، لخادمي. ووجدت في السفينة، بعد ركوبي إياها، ضابطاً انكشارياً مريضاً على شفا الموت، يريد السفر إلى الحلة أيضاً. ومن الجلي أنه لم يكن بزميل سفر يرغب فيه جداً، سيما وأني أجهل المرض الذي أصيب به هذا الشخص. إلا أن ربان السفينة كان قد قبض مني أجرة السفر سلفاً، وقد أقنع خادمي وهو مسلم من البصرة، على التخلي عن محله لذلك المريض والبقاء في سطح السفينة. ولكي لا أكون أقل رحمة من المسلمين إزاء أحد المساكين، وخشية من تعرضي لبغضائهم فيما لو طردت هذا المريض، فقد استحسنت هذه المعاملة، وتركت نفسي لما قدره لي القدر. ومن الطبيعي أن مشاهدة جاري المريض، جعل السفرة للغاية غير مريحة. ولم أجد، أنا المعتاد على المعيشة بين العرب، سبباً آخر يجعلني غير مرتاح من قراري في اختيار هذه السفينة واسطة[1].

---

(1) نشير لمن أراد الاطلاع عن مختلف أنواع المضايقات، التي يتعرض لها الأوروبي في هذه الأرجاء، بقراءة القسم الثاني فحسب من رحلة IVES إلى الهند وإيران. ولم تخلُ رحلتي هذه أيضاً، من كثير من المضايقات ومختلف المشاكل، إلا أنني استطعت أن أتجنب كثيراً من الأُمور التي من ذلك الطراز والتي ذكرها «IVES»، وذلك لاعتيادي السفر بين المسلمين. ـ المؤلف ـ.

والواقع أننا احتجنا إلى 21 يوماً لنصل من البصرة إلى لملوم حيث غادرت السفينة، أي من 28 تشرين الثاني حتى 19 كانون الأول، وبذلك قمنا برحلة طويلة. لكنها أتاحت لي الفرصة، لمشاهدات عديدة تتعلق بعلم الفلك وقد أظهر رفاقي في السفر معونتهم لي في كثير من الأوقات، حتى أنهم التفوا حولي في بعض الأحيان، عندما كنت أضع الاصطرلاب (آلة الرصد) على الساحل، ليمنعوا عنه الريح بثيابهم الطويلة. وقد عينت خطوط العرض للمواضع المختلفة التي تقع في طريقي وهي:

في البصرة ذكرنا سابقاً	30°	30′
1 كانون الأول قرب المنصورية بالضبط	30°	52′
2 كانون الأول في ABADA (لعلها عباده)	30°	55′
4 كانون الأول في الكوت	30°	58′
6 كانون الأول في العرجه	30°	59′
12 كانون الأول في GRAIM	31°	17′
16 كانون الأول قرب السماوة	31°	19′
18 كانون الأول في جوار المنطقة المسماة ABU HARUK	31°	28′
19 كانون الأول في جوار لملوم	31°	43′
وبعدها في الحلة	32°	28′

وحيث إن الفرات لا يجري في هذه المناطق من الشمال إلى الجنوب، بل يجري على الأكثر من الغرب إلى الشرق، فمن الصعوبة بمكان تعيين طول الطريق عليه، خاصة حين يكون السفر بعكس التيار، حيث تندفع السفينة تارة إلى الأمام بتأثير المد وتارة

أُخرى إلى الخلف بتأثير الجزر أو الرياح العكسية[1] لذا فكثيراً ما كنا نضطر إلى سحب السفينة. وبما أن مستوى الماء كان منخفضاً جداً في هذه الآونة فغالباً ما ارتطمنا بالقعر. وعندئذٍ كان الملاحون المساكين يغوصون في الماء، حيث يلزم عليهم أحياناً العمل مدة طويلة لإعادة السفينة إلى المجرى ثانية.

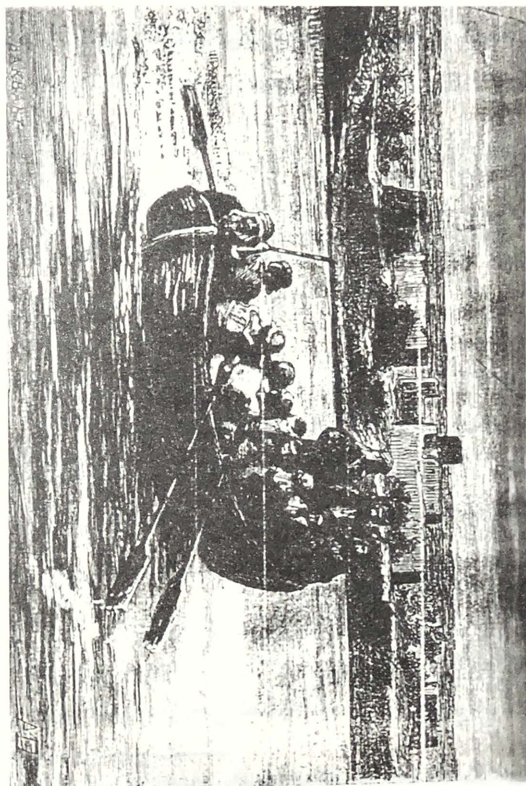
أقام السكان في إحدى مضارب قبيلة بني (HACHKEM) بني حجيم سدّاً على الفرات لخزن الماء فيه لمزروعاتهم وتركوا فيه ثغرة ضيقة فقط للعبور خلالها. وكان التيار أيضاً شديداً إلى حدّ أننا استغرقنا ما يقارب نصف يوم لتجتازه سفينتنا.

لم أستطع أن أثبت طول طريقنا بالضبط، سوى بالمحطات التي يتوقف فيها الرجال الذين يسحبون زوارق البريد. ويعد هؤلاء اثني عشر «ADAK» أو محلاً للاستراحة[2] من البصرة إلى القرنة، وسبعة من القرنة إلى المنصورية واثني عشر من المنصورية إلى الكوت واثنين من الكوت إلى العرجة، وأربعة عشر من العرجة، إلى السماوة، وثمانية عشر من السماوة إلى لملوم، وسبعة من لملوم إلى الديوانية، وأربعة عشر أُخرى من الديوانية إلى الحلة. وفي كل من هذه المواضع يحلّ نصف العمال بدل النصف الآخر

---

(1) يظهر المد والجزر في الفرات حتى العرجة الواقعة على بعد 14 ميلاً ألمانياً من القرية، وعلى بعد ما يقارب 28 إلى 30 ميلاً من الخليج الفارسي. أما على دجلة فلا يلاحظ تأثير المد والجزر إلى أبعد من (العزير)، وهي قرية اكتسبت اسمها من العزير الذي يتردد اليهود كثيراً للآن على قبره هناك. ـ المؤلف ـ.

(2) لعله أوتاح (خيمة للاستراحة). ـ المترجم ـ.



قرية على شاطئ دجلة

الذي يكون في العمل وكما لاحظت، فإن البعد بين محطة وأُخرى يقدر بين دقيقتين ونصف وثلاث دقائق، أي ما يعادل 4/ 3 الميل الألماني. وبموجب ذلك، واستناداً إلى مشاهدات خطوط العرض، فقد وضعت خريطة للرحلة موجودة في اللوحتين 40 و41 ويشاهد القارىء حالاً في النظرة الأولى إلى هذه الخريطة، مجرى الفرات من الحلة إلى الخليج، على طول امتداده.

وتصادف مختلف القبائل العربية بين البصرة وبغداد وعليها جميعاً تأدية الضريبة للباشا. وأول ما يظهر منها هي قبيلة المنتفك التي ذكرنا عنها آنفاً وعند وصف جزيرة العرب في ص386 أيضاً. وتعود إلى هذه القبيلة، تقريباً كافة القرى والمدن الصغيرة الواقعة على الساحل الغربي للفرات وشط العرب، من البصرة إلى العرجة ولها مثل هذه الممتلكات، في القسم الكائن على الساحل الشرقي للنهر، والممتد من القرنة إلى نفس المسافة باتجاه الشمال. تقيم هذه القبيلة بضعة أشهر في أطراف نهر «ANTAR» عنتر، إلا أنها تتجول في الشطر الأكبر من السنة في البادية مع قطعاتها، حيث تعيش هناك تحت الخيم كسائر البدو الآخرين. وقد أخلّوا بالأمن في طريق الفرات والبادية مراراً عديدة، بل إنهم حاصروا البصرة أيضاً في بعض الأحيان. ولو أرسل باشا بغداد قوة للتصدي لهم، فقد كانوا يعمدون إلى الانسحاب إلى أقصى أواسط البادية، حال بلوغهم الخبر، حيث لا يستطيع الأتراك اقتفاءهم. ولا يذكر أن قمعت هذه القبيلة في أي وقت من الأوقات كما قمعت في عهد سليمان الكهيا، الذي أصبح بعدئذٍ باشا لبغداد. وقد اعتاد هذا

الشخص، ووالد زوجته أحمد باشا الشهير على السواء، على الخروج في الحملات ضد الأعراب، بنفس الأسلوب الذي يخرج به للصيد، أي إنهما كانا يهاجمانهم بغتة. لذلك لم يكن في الوسع السفر خلال هذه المنطقة بأمان تام في أي وقت ما، كما في وقت حكمهما.

وقد أسر أحمد باشا ذات مرة شيخ (SAHDUN) سعدون، وهو أحد إخوان الشيخ عبد الله الذي يحكم الآن، ولكنه أعاده ثانية مظهراً كرم نفسه، بعد أن نبَّهه بوجوب حفظ نظام قبيلته في المستقبل، على شكل أفضل، وعلى أن يؤدي الرسوم بصورة منتظمة. ولكن بعد مدة، ثار الشيخ من جديد. فأرسل أحمد على أثر ذلك صهره سليمان كهيا لمقابلته، وقد توفَّق إلى إخضاعه في مدة قصيرة بعدد قليل من الجند، فأسر الشيخ مرة أُخرى.

ولا يزال العرب للآن يتغنون بالشجاعة التي أبداها شيخهم في هذه المناسبة: كيف دافع عن نفسه بالرمح بادىء ذي بدء، ثم بسيفه وبعدها بالدبوس «وهو نوع من الهراوات التي تُستعمل للضرب، اعتاد الشرقيون حملها على سروجهم»، وأخيراً بالركاب فزمام فرسه. ولكنها جميعاً لم تجد نفعاً. وكان سليمان قد تلقَّى أمراً بإعادة سعدون أسيراً إلى بغداد. وكان الغالب يريد من المغلوب إبداء بعض الاحترامات له. ولكن العربي المغتر، الذي ولد حراً، لم يشأ أن يتفهم هذا الأمر. فبعد أن عدَّد أسماء كثيرة من أجداده، سأل الكهيا، الذي يجهل حتى والده، «كان الكهيا كرجياً بالأصل، بيع أسيراً في شبابه» كيف يسوغ له طلب مثل هذا الذل

من عربي أصيل؟ وقد أغضب هذا الأمر سليمان إلى حدّ جعله يأمر بقطع رأسه على الفور، حيث أرسله إلى الباشا إشارة لانتصاره.

فرأى بقية الشيوخ على أثر ذلك، أن من الأرجح الآن الانقياد له. وقد جاء إليه في يوم واحد فقط بين خمسة عشر وثمانية عشر شخصاً من أشراف هذه القبيلة، وأبدوا رغبتهم في التفاهم مع الباشا. إلا أن سليمان، عاد ففكر أنه ليس في استطاعته أن يجمع بسهولة مثل هذا العدد من الشيوخ معاً تارة أُخرى. فأمر بقطع رؤوس هؤلاء أيضاً عن آخرهم[1]. وبذلك ضعفت عشيرة المنتفك بحيث إنها لم تجرؤ حتى الآن على الثورة ثانية.

أما أحمد باشا الذي كان يقدّر الشجاعة كثيراً حتى من أعدائه، والذي كان بصورة عامة شخصاً كريم النفس، فقد غضب جداً بادىء الأمر على التصرفات التي قام بها كهياه. ولكن أكثر العثمانيين يذكرون رحلة سليمان هذه دليلاً على شجاعته، بينما يرويها العرب إثباتاً للظلم الدنيء.

تحكم شواطىء دجلة قبيلة عربية كبيرة تدعى ببني لام. وتشغل هذه القبيلة أيضاً الباشا في بغداد كثيراً، في أغلب الأوقات. وعندما أصبح أحمد لأول مرة، باشا لبغداد، ذهب إلى أولئك الأعراب لمحاربتهم، عدة مرات، إلا أنه لم يوفَّق في الوصول إليهم. وذلك لأن لهم في المدينة جواسيس بصورة دائمة، فيذهب

---

(1) عامل سليمان اليزيديين في جبل سنجار بمثل هذه الخيانة، حيث أقنع أشراف الشيوخ بالمجيء من الجبل، وطلب العفو عن نهيبتهم، ولكنهم لم يكادوا يصلوا خيمته، حتى أمر بقطع رؤوسهم جميعاً. ـ المؤلف ـ.

الأعراب إلى المناطق النائية على جمالهم، عند أول خبر يردهم عن توجه القطعات نحوهم. ولما ظفر أحمد بالحكم مرة ثانية، تجمع بكافة قطعاته الخاصة أمام المدينة، وقام باستعدادات كبيرة، كأنه يريد بذلك أن يقوم باستعراض فخم في اليوم التالي. أما عرب بني لام الذين بلغهم ذلك النبأ، فقد كانوا ساكنين سكوناً تاماً لاعتقادهم أن الباشا لن يهاجمهم إلا إذا أهانوه من جديد، ولن يكون ذلك الهجوم على أية حال، قبل أن يستولي على مركز الولاية. ولكنه تحرك في الليلة الثانية على الفور مظهراً بذلك سرعة فائقة، بحيث تمكن من اللحاق بالأعراب قبل أن يبلغهم أي نبأ عن نواياه. فغنم بتلك الوسيلة مجموعة كبيرة من الجمال والخيول والحيوانات ذات القرون والأغنام وأمر بقطع رؤوس أبرز الشيوخ، فأضعفت هذه القبيلة لحد جعلها لا تجسر على رفع رأسها مدة طويلة.

كان الباشوات يتمكنون بمثل هذه الوسائل، أن يُرضخوا لحكمهم الأعراب الذين يقطنون ألويتهم ويملكون القرى والمدن فيها. ويمكن التصور بوضوح مدى اهتمام القبائل المتجولة باستمرار في البادية، بحكم السلطان والباشوات!

ويسمى بنو لام والمنتفك وسائر قبائل العرب الأصيلة أهل «BAAR» أهل البر أو البدو. وأهم أعمالهم الرئيسية، تربية الجمال، كما أنهم يعيشون تحت الخيام أكثر أوقات السنة، تاركين أمر الزراعة إلى الفلاحين الذين لا يأمهم أشراف العرب إلا في مواسم معينة من السنة لقبض الرسوم بكل صرامة.

يسمى «بنو كعب» المقيمون عند مصبّ شط العرب، والأعراب المتوطنون دائماً في المدن والقرى، عرب (HODDRI) حضر، حضري. وفيما عدا هؤلاء يوجد أعراب آخرون يعنون بتربية الخيل والمواشي والجاموس، ويمارسون الزراعة وينقلون أكواخهم الرديئة كما ينقل البدو خيامهم من محل إلى آخر، ويدعى هؤلاء «MOADAN» بالمعدان. ونصادف في القسم الشرقي من الفرات قبيلتين منهم كلتيهما من الشيعة وهما بنو «HAHKEM» حچيم والخزاعل. والأولى صغيرة لا تُرهب العثمانيين. أما قبيلة الخزاعل التي يسكن شيخها في لملوم، فهي تبلغ في بعض الأحيان حدّاً من الغرور، بحيث تشغل الباشا كثيراً. فقد استطاعت قبل بضع سنوات أن تتغلب على قطعات علي باشا تغلباً تاماً، وقد تضاعف غرور هؤلاء الأعراب عند اغتيال الباشا بعد مدة قصيرة من ذلك. فلا يسمح هؤلاء بمرور أي سفينة تقريباً من الفرات إذا لم ترض بدفع مبلغ كبير. إلا أن عمر باشا، قمع هذه القبيلة، قبل وصولي ببضعة أشهر، فأمر بقطع رؤوس ستة أو سبعة من أبرز شيوخ هذه القبيلة ونصب شيخاً جديداً حاكماً عليها. ولكن الشيخ السابق المسمى «حمود»، والذي كان قد هرب، عاد تارة أُخرى بعد انسحاب العثمانيين: فاضطر عمر باشا أيضاً الذي لم يرغب في الخروج إلى الحملة مرة ثانية، لأن يعهد بالحكم إليه من جديد. والحقيقة الواقعة أن أولئك الأعراب لم يجرؤوا الآن على توقيف السفن.

وفي منطقة قبيلة الخزاعل هذه، يكون ساحل الفرات منخفضاً للغاية ولا سيما في المنطقة المسماة «بأم الخنزير» حيث يوجد

القصب بكثرة إلى حدّ يبعث على العجب، كما تكثر في داخلها الخنازير الوحشية. والظاهر أن للنهر فروعاً عديدة هناك لأن عرضه لا يزيد أحياناً عن «40 ـ 50» قدماً[1].

وتوجد دائرة حكومية كبيرة في (الحسكة) باتجاه الشمال من منطقة هذه القبيلة، يقوم بإدارتها على الدوام آغا منسوب إلى باشا بغداد، مقرَّه في الديوانية ويعدّ هذا المنصب من أكبر المناصب في جميع الولاية. وهنالك خيَّالة قوية تحت تصرف هذا الآغا، وذلك ليبيِّن للعرب، أنهم سيتعرضون للجزاء فيما لو قاموا بمخالفة ما. وتتبين قلة اكتراث العرب بذلك مما أسلفنا ذكره آنفاً.

والأماكن التي تستلفت النظر وتصادف أثناء الرحلة من البصرة إلى لملوم، هي:

---

(1) ويظهر أن هذه المنطقة هي نفس المنطقة التي عبر منها الإسكندر أثناء عودته من رحلته من بابل إلى PALLACOPA (كري سعدة في الوقت الحاضر) وذلك قبيل وفاته «ص223». ويصف ARRIAN هذه الرحلة في كتابه السابع على النحو التالي: (إن نيبور قد استقى هذه الحاشية من المؤرخ اليوناني ARRIANUS ونشرها بالنص اللاتيني وقد تفضل الأب المحترم الدكتور روفائيل بيداويد بترجمتها من اللاتينية إلى العربية على النحو التالي: ـ المترجم ـ

سافر عن طريق المستنقعات ثانية وبابل عن يساره. وكان قسم من الجيش تائهاً في تلك المضايق بدون دليل، فأعطى لهم دليل تقدمهم وأراهم الطريق معيداً إياهم إلى مجرى النهر. وروى بعضهم أن قبور كثيرين من الملوك الآشوريين كانت مبنية في تلك البقاع. وإذ كان الإسكندر يتابع مسيره فيها، هبَّت ريح شديدة انتزعت زينة رأس الملك وتاجه، فسقط التاج في الماء لثقله، أما الزينة التي انتزعتها الريح فانتشبت في قصبة من القصب النامي عند قبور الملوك. انتهت ترجمة الأب المحترم الأستاذ روفائيل بيداويد

ويبحث PLINIUS أيضاً عن المستنقعات الواقعة جنوب بابل. ـ المؤلف ـ.

مناوي، وهي مقر القاپودان باشا، وعلى ما أسلفنا ذكره، وكما تشير اللوحة 39 (تقع في مقدمة هذه الترجمة)، فإنها تقع في البصرة في الأصل. ويستلفت هذا المكان نظر السائح بوجه خاص لأن عليه أن يدفع فيه، رسماً گمرگياً طفيفاً يستوفيه القاپودان باشا.

وعلى الساحل الآخر من شطّ العرب، مقابل المناوي، توجد قلعة باسم «كردلان» وهي الآن متهدمة تماماً.

أما «دير»، فهي قرية كبيرة تقع في الساحل الجنوبي من الشط، وعلى مسافة تبعد عن البصرة بيوم واحد تقريباً، ولحد الآن، يشاهد هناك تل كبير، يتألف من خرائب مدينة كبيرة، على وجهة نظر زملائي في الرحلة، فإن تلك المدينة، كانت تعود للبرتغاليين ولكن لم يتبق من أبنيتها القديمة أي شيء، إلا منارة جميلة، وهي المنارة الوحيدة التي تصادف خلال الرحلة كلها من البصرة إلى الحلة (باستثناء القرنة).

تقع «السويب» في الجهة الشمالية من الشط على نهر ينحدر من الحويزة وتدل تلال الخرائب الضخمة، على وجود مدينة مهمة هناك في الماضي السحيق ويجب أن يكون (CHOASPIS) لدى قدماء الجغرافيين، إما نفس هذا النهر الذي يصبّ في الشط هناك، أو نهر الحفار.

تقع «القرنة» في الزاوية التي يتصل فيها الفرات بدجلة وهي مبنية بشكل مزرٍ تماماً، إلا أن لها من جهة البر، سوراً مضاعفاً مشيداً بطابوق الجدران المجفف في الشمس فقط واستناداً إلى

المعلومات التي توفرت لديَّ في البصرة فإن هذه المظاهر جميعاً ليست بقديمة جداً. وقد شيَّدها الباشوان المذكوران سابقاً، وهما علي وحسين، اللذان اتخذا من هذا الموقع قلعة للحدود ضد الأتراك والفرس. وهناك في الوقت الحاضر خمس «أورتات» أو أفواج من الانكشارية، لكل منهم قدرهم «قازان». وبالرغم من أن القرنة، تتمتع بموقع ممتاز، فليس لها أي تجارة تذكر. وفي الوقت نفسه يجب على كافة السفن المارَّة من هناك أن تتوقف فيها، لأداء الرسم الگمرگي للانكشارية.

لم أوفَّق إلى تعيين خط عرض هذه القلعة. وقد جلبت رسالة توصية لضابط الانكشارية وهو ذو رتبة عالية ويقيم هناك، وقد عاملني بمجاملة فائقة، وطلب منِّي تناول الطعام معه، الأمر الذي لم أتمكَّن من رفضه. وعندما سمع بأني سأذهب إلى السفينة في الساعة الثانية عشرة، لقياس ارتفاع الشمس في الظهر، اضطررت إلى جلب أجهزتي بمظهر المجامل له. والواقع أنني قمت بنصب أجهزتي ولكن حيث إنهم أرادوا التطلع خلال المنظار الواحد تلو الآخر، وغمروني بفيض من الأسئلة المتوالية، فقد ضاعت هباء كافة الجهود التي بذلتها.

وكما ذكر آنفاً، فإن (نهر عنتر)، هو مقرّ شيخ قبيلة المنتفك ويجب أن تدفع كل السفن التي تمر منه، رسماً گمرگياً إلى ذلك الشيخ أيضاً، وهو يسمح باستيفائه في محل يسمى (تحته). وفيما عدا البيت الذي يسكنه موظفو الگمارگ، لا توجد بيوت أُخرى في هذا المحل. وحتى إلى قبل بضع سنوات، كانت السفن

الصغيرة المحملة بالتمور تدفع هناك (محمديتين) فقد (لا تكاد تعادل حتى نصف روبية)، إلا أن عليهم الآن أن يدفعوا خمس روبيات.

إن (المنصورية) قرية كبيرة، وموظفوا الگمارگ هناك منسوبون إلى آغا الانكشارية في القرنة. ولكن السفينة القادمة من البصرة، إذا دفعت الرسوم في القرنة، عليها أن تبرز هنا وصلاً بذلك فقط. في قرية الكوت أو (كوت معمر) يوجد موظفو الگمارگ العائدون إلى قاپودان باشا في البصرة.

والگمرگ في (العرجة)، عائد إلى آل صالح، وهي عائلة من أشرف عائلات عشيرة المنتفك. وقد كان في الـ(GRAIM) سابقاً محل للگمرگ أيضاً: غير أنه منذ أن هجر ذلك المحل كلياً، أصبح الرسم يُستوفى في السماوة. وموظفو الگمرگ في المدينة الأخيرة كانوا إلى قبل بضع سنوات رهن أوامر آغا (الحسكة)، أي طوع أمر الأتراك. أما الآن، فإن هذه الواردات يستوفيها شيخ قبيلة الخزاعل.

كان الشيوخ الجشعون جالسين في العرجة والسماوة في دائرة الگمرگ. وبالرغم من أنهم شرّفوني بزيارتهم، إلا أنهم كانوا وقحين إلى أقصى حدود الوقاحة. ولم يكونوا ليظهروا أي اهتمام برخصة المرور، التي استحصلتها من متسلم البصرة وقد استشاطوا غضباً، حيث حاولت إبراز فرمان السلطان. فرأيت من الأرجح أن أسارع إلى اكتساب رضائهم بقدر الإمكان. ذلك أن المسيحي، إذا تناقش مع مثل هذه الشخصيات، اعتبروا أقل كلمة

تصدر عنه إهانة تلحق بهم، فعليه عندئذٍ أن لا يدفع ضعف الرسوم فحسب، بل ربما تجاوز ذلك إلى عشرة أضعافها، كما أنهم بالإضافة إلى ذلك يسخرون منه.

وبيوت السماوة جميعها مشيَّدة من الطين المجفف في الشمس، وبذلك فإنها مزرية للغاية. وبالرغم من ذلك فإنها لو قورنت بأكواخ الفلاحين في الجوار، التي تكون أسوأ منها حالاً، لظهرت إزاءها كالقصور. وقد مات سكان هذه القرية الصغيرة بأجمعهم تقريباً، منذ بضع سنوات بسبب الطاعون. وتكون البادية التي تحيط بها تعجُّ بالأسود والنمور وبنات آوى، كما يتوفر فيها كثير من الملح.

تظهر على ساحلي الفرات وشط العرب كثير من القرى الصغيرة، ممتدة من القرنة إلى العرجة، إلا أنه كما يروى فإن الأراضي الكائنة في الجهة الشمالية من الفرات معمورة إلى مسافة ساعة فقط، أما الأراضي الواقعة في الجهة الجنوبية، فلا يتجاوز المعمور منها مسافة ساعتين. وهذه الأراضي الصالحة للزراعة، تمتد الآن بعيدة عن النهر كالبادية تماماً بسبب خلوها من السكان والجداول. تقع القرى بعيدة عن النهر بُعداً لا بأس به وهي مشيَّدة على أتعس طراز ويتجلى منها أن الشيوخ العرب لم يتركوا الشيء الكثير لسكانها المساكين. فالبيوت وأسوارها كلها من القصب. والخلاصة أنني لم أصادف في أي مكان، أكواخاً أردأ من أكواخ هذه المنطقة الخصبة بطبيعتها والمشهورة منذ أقدم الأزمنة، حيث كانت منطقة غنية بالسكان. وتكون كافة الأطراف الممتدة بين

العرجة والسماوة قاحلة والأسماء الموجودة هناك والمدرجة في اللوحة (40)، لم تكن حتى أسماء لبعض القرى الأُخرى.

وتسمى المنطقة الواقعة على جانبي الفرات بالجزيرة. حيث إن من المحتمل أن الجداول الكثيرة الموجودة في الوقت الحاضر، والتي كانت أكثر عدداً في السابق مما هي عليه الآن، تكون في أراضيها جزراً عديدة.

وسكان القرى الواقعة على الفرات سباحون ماهرون، شأنهم في ذلك شأن سكان القرى الواقعة على النيل. ولا تقل عن ذلك مهارتهم اللصوصية. والملاحون هناك، كما هي الحال في مصر أيضاً مهملون إلى حد لا يقومون معه بالحراسة في الليل. لذا يصعد صغار اللصوص أحياناً إلى ظهر السفينة: فإن صادف أن المسافرين كانوا جميعاً يغطّون في النوم، فعند ذلك يجمعون بسرعة كل ما تقع عليه أعينهم على ظهر السفينة الذي يفترشه المسافرون عادة، حتى إذا تمّ ذلك ألقوا بأنفسهم إلى الماء وبصحبتهم المسروقات. وحين حاولوا ذات مرة، أن يجربوا هذا الأمر مع سفينتنا، أصاب ضابط الانكشارية المريض، والذي لم يكن بوسعه النوم، مساعيهم بالفشل. وفي مرة أُخرى، التفّوا وراء السفينة بقوارب صغيرة وخفيفة جداً، فسرقوا خلال ثغرة المجذاف في غرفتي، آنية للاغتسال وبعض الحاجيات الصغيرة الأُخرى. وقد تنبَّهت من النوم على الأثر، فلم يتمكنوا أن يحصلوا على أكثر من ذلك. وقد دبّ فيهم الفزع بحيث ألقوا بأنفسهم إلى الماء من قواربهم الصغيرة، على إثر طلقة من المسدس.

وقد صادفنا الماء يشح بين العرجة والسماوة حتى أن السفينة انغمرت في القعر عدة مرات. وزيادة على ذلك، كانت الريح من جهة وتيار النهر من جهة أُخرى، يعاكساننا مما اضطرنا إلى سحب السفينة. وقد استوقفنا الأعراب ونحن في تلك الحال عدة مرات. فكنت آنذاك أجلس على ظهر السفينة مدجَّجاً بالسلاح وقد وضعت على رأسي عمامة كبيرة تعود إلى الضابط المريض. وكان بعض التجار البغداديين الموجودين في سفينتنا يقفون بعيداً وكأنهم رهن أوامري. فإن سأل الأعراب عن ركاب السفينة، أجابهم القاپودان على الدوام بأنه يقلّ آغا من بغداد مصحوباً بستة من الجوخدارية. ولست أدري هل اقتنع الأعراب بأنني آغا أم لا؟ ولكنهم كانوا يبدون على الأثر مجاملة فائقة، فيطلبون على العادة بضع تمرات. ولكنني بصفتي آغا، آمر بموافقتي على منحهم ذلك. وقد نهبت منذ ثلاثة أسابيع في هذه المنطقة، سفينة صغيرة محمَّلة بالتمر، عن آخرها، كما قتل بعض المسافرين الذين لم يشاؤوا تسليم أموالهم طوعاً. وقد تلتها بعد مدة، إحدى وسائط النقل النهري الأُخرى، حيث انغمرت في القاع وشرع الأعراب بتفريغها هي الأُخرى، ولكن السفينة خفَّت حمولتها بذلك فحرَّكها الملاح من هناك، فقتل بعض الأعراب الذين كانوا على ظهرها، يأمرون الربان بالبقاء هناك ولن يستطيع أوروبي ما أن يتصور بأن الركاب قد قاموا بمثل هذا العمل. ولكن الأعراب لهم طريقة أُخرى في التفكير. فقد كانوا يعلمون بوجود أشخاص من السماوة والقرنة في السفينة. لذا فقد طلبوا دفع الدية من هاتين المدينتين. وكان

المظنون أن يُجاب طلبهم هذا. ولو قمت خلال رحلتي هذه بقتل أحد الأعراب أو أصبته بجرح، فقد كان إخوانه آنذاك، يلقون القبض على الربان الذي يقوم بدوره بإلقاء القبض علي. فكان يلزم علي آنذاك، كمسيحي قد أهدر دم أحد المسلمين، أن أدفع أكثر بكثير مما يدفعه المسلم. فيتبيَّن من ذلك أن البنادق الجيدة للأوروبيين، الذين يجولون خلال هذه البلاد، تنفعهم في إلقاء الرعب في قلوب الأعراب أكثر مما تفيدهم لو استُعملت حقيقة.

وصلنا في 19 كانون الأول (لملوم) وهي قرية كبيرة ومقرّ شيخ عشيرة الخزاعل. ولكن الشيخ هو الآخر لم يسكن في محل أفضل من محلات أتباعه، إذ كان يسكن كوخاً رديئاً مبنياً من القصب.

أما الضابط الراقد أمام غرفتي، فلم يشف ولم يمت، وقد ضقت تماماً من السفر بصحبته. وبناء على ما سمعت من أن الطريق من هنا عبر الرماحية إلى مشهد علي، المدينة التي فكرت في زيارتها من الحلة، كان أميناً لحد كاف، فقد قررت أن أغادر السفينة الآن. وقد وافق على مرافقتي في الطريق ملَّا بغدادي فقير، وعدته بأن أسفِّره مجاناً إلى مشهد علي والحسين. ونزولاً عند رغبة رفيقي في السفر من جهة، وبسبب خادمي من جهة أُخرى، ذهبت في اليوم نفسه إلى قرية تسمى MASCHWARA مشيدة بشكل رديء وواقعة على الطرف الآخر من النهر. ذلك أن كلاً منهما كان من السُّنَّة لذا لم يرغبا في النزول إلى البر في لملوم.

وقد أعدَّ لي الشيخ هناك كوخاً رديئاً من القصب، لا يتسع

لمنام ثلاثة أشخاص إلا بمشقة. ولم يكن بيته بأحسن أو أوسع من ذلك ولم أجد أي سبب من هذه الناحية للشكوى من الشيخ. غير أن الخيول التي وعدني بوصولها في اليوم التالي لم تصل. فاضطررت لذلك على البقاء بجانبه ليلة أُخرى. ولم يعجبني هذا الرجل لأنه كان يظهر نفسه مجاملاً أكثر من المعتاد وينظر بنهم كبير إلى كل شيء معي. ولذلك السبب رغبت أنا والملا وخادمي أن نقوم بالحراسة مناوبة. وفي الوقت نفسه أشعلنا الضوء طيلة الليلة. وقد نام خادمي، الذي لم يعتد على السهر، فأحس اللص بذلك، وبينما هو مشغول بسحب حقيبة الكتابة الصغيرة، خلال الجدار إلى الخلف، استيقظت محدثاً ضجة، فأقبل الشيخ على الأثر وغضب كثيراً لحدوث مثل ذلك الأمر في قريته وركض إلى الخارج ليمسك باللص، وبعث فلاحيه إلى جهات أُخرى ولكنهم عادوا جميعاً دون أن يعثروا على أحد. ولم يبق لديَّ أي شك في أن اللص هو الشيخ نفسه. ولكنني رجّحت أن أثني الآن على ما بذله من جهد في ذلك، حتى أنني قدَّمت له هدية صغيرة. وحيث إن الشيخ لم يعد يتوقع أن بإمكانه مباغتتنا ثانية أثناء النوم، فقد وجدت في صباح اليوم الثاني خيول السفر معدَّة على الفور.

سافرت في 21 من الشهر إلى الرماحية على مسافة تبعد سبع ساعات ونصف أو ما يقارب خمسة أميال ونصف باتجاه الشمال الغربي والشمال. ولم أشهد طيلة ذلك الطريق أي جامع، ولكن كثيراً من القبب (KUBBETS) أو الأبنية الصغيرة المشيَّدة على قبور أشخاص يعدون من الأولياء، توجد بجوار القرى، وأحياناً في

أراضي الفرات الخالية. ومن المحتمل أن وجدت في السابق قرى بجوارها. وتكون الأراضي في الأطراف كلها خصبة جداً، غير أن كثيراً من الجداول الصغيرة التي كانت الأراضي تُروى بواسطتها في السابق، هي الآن جافة، كما أن القرى نادرة جداً. وتلوح أحياناً قطعان كبيرة من الحيوانات ذوات القرون والأغنام والخيول.

وبالقرب من الرماحية يوجد جدول كبير يستقي مياهه من الفرات الواقع على مسافة ما يقارب 1,5 ميلاً ألمانياً منه. ويصبُّ هذا الجدول قرب السماوة في ذلك النهر ثانية. وقد كان ذلك الجدول، إلى قبل بضع سنوات صالحاً للملاحة، إلَّا أن مياهه الآن إلَّا توجد إلا عندما يكون مستوى الماء في الفرات، عالياً للغاية. وقد كان في هذا الموسم جافاً تماماً.

والرماحية مدينة مشيَّدة على نطاق واسع، وهي مؤلفة من حوالي أربعمائة بيت. وهي محاطة بسور عال، إلا أنه كسور البصرة والقرنة، يتألف فقط من طابوق غير مفخور، وهو بالإضافة إلى ذلك ضعيف والعناية به مهملة، بحيث يستطيع المرء أن ينفذ من خلاله أحياناً. هنالك جامع مهم وحمام عام بديع جداً. وأغلب الدور مشيَّد بطابوق غير مفخور والقليل منها فقط، مشيَّد بالطابوق المفخور. ويعتمد السكان في غذائهم الأساسي على الزراعة وعلى بساتين التمور العائدة لهم. ويروى أنهم موفورو الغنى، إلا أن ذلك ربما كان قياساً على فقر الفلاحين في قرى تلك المنطقة. يستوفي شيخ عشيرة الخزاعل رسماً كمركياً طفيفاً في الرماحية. والظاهر أن الشيعة هم المتفوقون هناك.

وقد سكنت في الرماحية عند أحد السُّنَّة حيث كنا مرتاحين هناك. أما صاحب الدار، فكان ملا في أحد الجوامع مما جعله زميلاً لرفيقي في الرحلة. وقد جلس معنا في غرفة مكشوفة الواجهة لينصت إلى بعض الأخبار، وبذلك لمست الفارق بين عاداتنا وعادات المسلمين، فقد جلست والدة زوجته في الخارج على الجانب، بينما كانت زوجته التي لم تكن بعيدة عنا منهمكة بطبخ الأرز.

وفي سياق الأمور الأُخرى، بيّنت له أن الأوروبي الذي يزوج ابنته، لا يمتنع عن استيفاء المهر من صهره فحسب، بل على العكس من ذلك، فإنه يمنحه مبلغاً طيباً من المال، إذا ما كان غنياً. وبذلك يتمكن من تأمين حياة رغيدة له. وقد حظيت هذه العادة بإعجاب صاحب الدار كما سأل أم زوجته عما إذا أدركت ما كنت أرويه أم لا، ثم استطرد قائلاً: «لم تعاملوني بمثل هذه المعاملة يا أماه، فقد وجب علي أن أدفع المبلغ لكم قبل إعطائي ابنتكم...» وبعد أن تحدث الرجل على هذا المنوال مدة طويلة، قالت الأم أخيراً: «آه يا بني، لو أعطيتكما حقلي وبستان النخيل التي أملكها، فمن أين لنا أن نعتاش أنا وابنتي؟». وقد تابعت كلامي على أثر ذلك قائلاً، إنه لا يجوز بموجب قانوننا لأي رجل ما أن يكون متزوجاً بأكثر من امرأة واحدة، وإلا كلَّفه ذلك حياته، أما الأموال فتكون مشتركة ثم تؤول بعد ذلك تارة أُخرى إلى الأطفال. وقد اجتذب هذا الأمر المرأة العجوز إلى التحدث فقالت: «هل سمعت ما قاله السيد يا بني؟ فلو لم تكن لك زوجة أُخرى غير ابنتي، ولو كنت

واثقة من أنك لن تطردها، فكم كنت سأرغب في أن أمنحك عن طيب خاطر بيتي وأملاكي جميعها. وقد اشتركت في الحديث أيضاً المرأة الشابة التي كانت تتظاهر باستمرار بعدم إصغائها لهذه الأُمور جميعاً، فقالت: «آه يا زوجي، كيف تطلب أن تمنحك أمي بيتها أيضاً! وبذلك تقوم أنت بإعطائه بأجمعه لنسائك الأُخريات اللواتي تحبهن أكثر مني، إذ لا أراك إلا فيما ندر». وقد استمرت الأُم والابنة في الحديث معاً، حتى سألت أخيراً صاحب الدار عن عدد زوجاته فأجابني بأنهن أربع. وعلى حد قوله، فإن خدمته لم تتطلب إلَّا عناءً قليلاً، كما أن لكل من زوجاته بيتاً وحديقة تعيش هي وأطفالها عليها. أما هو فليس له بيت، كما أنه لا يحتاج إليه، إذ يجد الراحة والطعام لدى كل منهن. وكسائر المسلمين الذين يمتدحون لي تعدد الزوجات، لم يشأ أن يجيبني بصراحة، عن سؤالي عما إذا كانت حياته الآن، وله أربع زوجات، أكثر راحة وسعادة ممَّا كانت عليه، يوم لم تكن له أكثر من زوجة واحدة.

ملاحظات عن مشهد علي

وفي 22 كانون الأول سافرت مدة سبع ساعات أو ما يقارب خمسة أميال من الشمال الغربي متّجهاً نحو الغرب، إلى مشهد علي. فصادفت في طريقي هذا كثيراً من الجداول الجافة والقبب «KUBBETS» الصغيرة. كانت الأخيرة تسدّ حاجة الفقراء من السكان إلى بيوت العبادة، وذلك لفقدان الجوامع المنظمة. ولكن الحقول هناك، معمورة أكثر مما في الجانب الآخر من الرماحية. وقد أخذ مشهد علي اسمه هذا، من جامع فخم كان قد شُيِّد تبجيلاً لعلي «رض» خليفة المسلمين الرابع، ويزوره الشيعة من كافة الممالك باحترام بالغ، كما يزور مكة أصحاب المذاهب الإسلامية كافة. ويرغب الشيعة في زيارة هذه المدينة التي يعدّونها مقدسة لديهم، حتى بعد وفاتهم. لذا يجلبون موتاهم إليها لا من الرماحية ولملوم والحلة وبغداد والمدن المجاورة الأُخرى فحسب، بل في الوقت نفسه، من إيران والهند أيضاً. وكما يتحدثون في الزبير أو البصرة القديمة، فإن أحد الأموات، وكان قد مضى عليه سنة مدفوناً في الأرض، قد أخرج أخيراً من جديد، لإرساله إلى هذه المدينة. وهذا الوضع يؤمن للمدينة مورداً مهماً.

وقد صادفت في طريقي في الرماحية إلى مشهد علي، أربع جنائز، ومنها إلى الحلة خمس جنائز، وعندما تساءلت عما إذا كان يمكننا أن نخمِّن عدد الموتى الذين يجلبون إلى هذا البلد من الأماكن الأجنبية الأُخرى، بسبعة أموات في اليوم الواحد، أجابوني بأن هذا العدد لا يُعدّ مرتفعاً. واستناداً إلى هذا التخمين، فإن عدد الأموات الأجانب الذين يدفنون هناك سنوياً، يتجاوز الألفين. ويحصل كل من يدفع مبلغاً كبيراً، على قبر قرب جامع إمامه. أما من يدفع مبلغاً متوسطاً، فيمكن دفنه أيضاً ضمن سور المدينة. أما من لم يرغب في دفع أكثر من أربع إلى ثماني «STUVER»[1]، فيعين له محل في خارج المدينة. ولا أظنهم يدفنون الموتى داخل الجامع نفسه. وعلى كل حال، لا يصادف في الجوامع الأُخرى للمسلمين أن يدفن فيها غير مؤسِّسيها أو زوجاتهم وأبنائهم أحياناً. وعلى العموم، لا يود المسلمون أن تكون مقابرهم داخل أسوار المدينة[2].

والشيعة يشيرون إلى أن قبر الإمام علي (رض) هناك في الجامع.

وقد نتج عن هذا الأمر، أن شُيِّدت آنذاك مدينة في ذلك الموضع. وهي تقع في منطقة مجدبة خالية من النبت كالسويس

(1) يعادل الـ STUVEN أو الـ STUBER 0,05 ماركاً ألمانياً، وقد كان ستون STUBER يعادلون «تالير ألماني» واحد، وكان الـ«تالير» الألماني يعادل بدوره ثلاثة ماركات. ـ المترجم ـ.

(2) كثير من قبور المسلمين موجودة داخل أسوار المدن. ـ المترجم ـ.

وجدة. إذ لا تتوفر المياه فيها. أما المياه التي يُحتاج إليها هناك للطبخ والاغتسال، فتصل بواسطة قنوات تمتد تحت الأرض أما الماء الصالح للشرب، فيجلب من مسافة ثلاث ساعات، محمَّلاً على ظهور الحمير. وتكون الأرض في إحدى جوانب المدينة مشبعة بالكلس بحيث يمكن إحراق التربة بعد خلطها بالسماد الجاف، لغرض الحصول على الكلس الصالح للبناء. وحيث إن الكلس هناك زهيد الثمن جداً، بينما يكون الخشب مرتفع السعر للغاية، فإن البيوت جميعها مشيَّدة بالطابوق المفخور والمبني بالكلس، بل إنها معقودة بشكل قبب، مما يجعلها شديدة المقاومة. أما الجانب الآخر من المدينة، ففيه منطقة واسعة منخفضة يكسوها الملح، ويسميها العرب بالبحيرة أو بحر النجف أيضاً. وكما يؤكدون فإن هذه البحيرة يجب أن تكون بحيرة «ساوة» التي جفَّت عند ولادة سيدنا محمد ﷺ[1].

وسكان هذه المدينة، بعضهم من السُّنَّة كما أن البعض الآخر من الشيعة. وفي غير هذه الأمكنة يكون الامتعاض بين أتباع كل من هذين المذهبين على أشدَّه، بحيث إنه إذا ذهب سنِّي إلى إيران، أو شيعي إلى مدينة تركية لوجب عليه على الإطلاق، أن يؤدي صلاته بموجب العادات المحلية، لكي لا يصيبه الأذى من الأهالي. أما في مشهد علي ومشهد الحسين، فإن العلاقات بين أتباع المذهبين حسنة إلى حدّ لا بأس به. إذ يعيش قسم كبير من السُّنَّة هناك مع الشيعة، لذا يلزم عليهم أن يطمئنوهم نوعاً ما. وعلى الشيعة أيضاً

(1) ترجمة تاريخ العصور الحديثة العام لسملر ـ القسم الأول الباب 14ـ. ـ المؤلف ـ.

أن يلتزموا جانب الهدوء لكي لا يتركوا الفرصة لباشا بغداد، أن يتقاضى من الإيرانيين مبالغ أكبر عن منحهم الحرية في زيارة مرقد الإمام الأول. وهناك ما يقارب خمسة آلاف زائر سنوياً، يفدون لزيارة مرقدي الإمام علي والإمام الحسين. وليس لأداء مراسمهم أيام معينة كما هي الحال مع الحجاج إلى مكة. غير أن الشيعة يعتقدون أن دعاءهم أكثر استجابة، في أشهر معينة، وهم لذلك ينتخبون السابع والعشرين من شهر رجب، وشهر رمضان، والعاشر من محرم، كأنسب الأيام. وقلما يسمع هناك من يقسم باسم الإله، بل إنهم جميعاً يقسمون باسم علي، كما هي الحال في مشهد الحسين إذ يقسمون باسم الحسين، وفي مخا إذ يقسمون باسم شاذلي، حيث يسمع في كل لحظة من ينادي بخشوع: «يا علي يا شهيد، يا حسين يا شهيد يرحم الله ذكراكما».

إن الشكل الخارجي لمدينة مشهد علي، يشبه كثيراً مخطط مدينة القدس الحديثة، كما أنها تقاربها في السعة أيضاً. وقد رسمت مخططها. والمدينة كلها مُحاطة بسور، ولها في الوقت الحاضر بابان فقط: «باب المشهد» المؤشر عليه برقم (1) و(باب النهر) المؤشر عليه برقم (2)، أما (باب الشام)، وهو الباب الثالث والمؤشر برقم «3»، فقد سُدَّ بحائط وسور المدينة مخرب الآن، بحيث يمكن الولوج إلى المدينة من عشرين موضعاً بكل سهولة. وفيما عدا الجامع الفخم المشيّد على قبر الإمام علي، والمؤشر في المخطط برقم «4» هناك ثلاثة جوامع صغيرة أُخرى. وقد تكوَّنت التلال المؤشرة برقم «5» من الأوساخ التي نقلت على

الحمير من شوارع المدينة، كما هي الحال مع التلال الكبيرة المتعددة قرب القاهرة[1] ويشير الرقم «6» إلى المقبرة العامة، أما الرقم «7» فيعين المنطقة التي يجلب فيها الماء إلى المدينة من تحت الأرض. وأكثر ما يلفت النظر في هذه المدينة، هو الجامع المشيَّد فوق قبر الخليفة والإمام علي (رض) وقد رسمت مظهره بقدر ما ساعدتني به الظروف، في اللوحة المرقمة 42 تحت الحرف (آ). وليس هناك في أي مبنى بالعالم سقف أثمن قيمة من هذا السقف. ذلك السقف الذي أنفق عليه نادر شاه، هادم إيران. كم من أعمال يقوم بها أمثال هذا الطاغية، لذرّ الرماد في عيون الشعب! لم يكن في قيامه بتلبيس القبة الكبيرة وسطح المنارتين القائمتين عليها بالنحاس شيء خارق للعادة، ولكن الأمر أصبح كذلك، عندما استعان بالنار في طلي كل هذا النحاس بالذهب عن سعة، حتى أن اللوحة المربعة الشكل ذات 8,5 إصبعاً تكلفته تومان ذهب أو ما يقارب (10) تالير ألماني[2].

---

(1) الجزء الأول من الكتاب ص112. ـ المؤلف ـ.

(2) يبحث محمد مهدي خان في كتابه «تاريخ نادر شاه» الترجمة الألمانية صفحة 374 عن هذا الموضوع بما يلي: إن تمسك نادر شاه بدينه، دفعه إلى تذهيب قبة الجامع المقدس في مشهد علي أو النجف الأشرف، وقد بلغت تلك المصاريف مبلغاً طائلاً. وقد أُصلحت جدران هذه البناية المقدسة بسخاء من قبل صاحبة الجلالة الملكة كوهرشاد بيكم التي أرسلت لذلك مائة ألف نادري «وهو على أغلب الظن روبية، أي ما يقارب 66,666 من التاليرات الألمانية» من خزينتها الخاصة كما أرسلت مبخرة مزيَّنة بأحجار كريمة وآنية من الذهب، الذهب الخالص ليحرق فيها البخور داخل البيت المقدس. . . . وقد دفعت السلطانة «راضية بيكم» ابنة شاه حسين «20000» نادري «وهو ما يقارب 13333 من =

وقد أضفى هذا الأمر منظراً رائعاً، خاصة عند سطوع أشعة الشمس عليه. وبما أن البناية ليست مرتفعة فحسب، بل إن المدينة كلها مشيَّدة على مرتفع، لذا فإن القبة المذكورة تظهر من مسافة خمسة إلى ستة أميال ألمانية وفي أعلى القبة كف مفتوح يمثل كف علي، في الوقت الذي يشاهد فيه عادة على الجوامع التركية، هلال أو عمود فقط، وتوجد حول الجامع ساحة خالية يقام فيها السوق يومياً، بينما يوجد أمامه شمعدان ضخم للغاية ذو مصابيح متعددة. والكل مُحاط بالأبنية التي يسكن فيها كبار خدم الجامع. إذ ليس من الممكن أن يكون لكل من يخدم هذا الجامع محل هناك، حيث كما أكَّد لي، أن عددهم يتجاوز المائة، وبينهم عدد كبير من الدراويش الفقراء الذين يجلسون أمام المدخل، يدعون للزوار بالخير، مقابل عطاء بسيط.

وقد تجرأت كثيراً باقترابي الزائد من محلّ يقدسه للغاية الشيعة والسُّنَّة على السواء. وربما طلبوا مني اعتناق الإسلام لو دخلت في الجامع. ولم أرغب أن يكلفني حبي للاستطلاع مثل هذا الثمن الغالي. وقد أكَّد لي في هذه الآونة، زميلي في الرحلة وكثير من الشيعة، أن في داخل الجامع من الأشياء الثمينة ما يدعو إلى العجب. وهناك أيضاً القبة المذهبة بكثافة، والتي تظهر عليها الآيات بحروف كبيرة مطعمة بالميناء، وتوجد على الجدران كتابات مخطوطة بحروف كبيرة مذهبة، وليس على البقاع، عدد

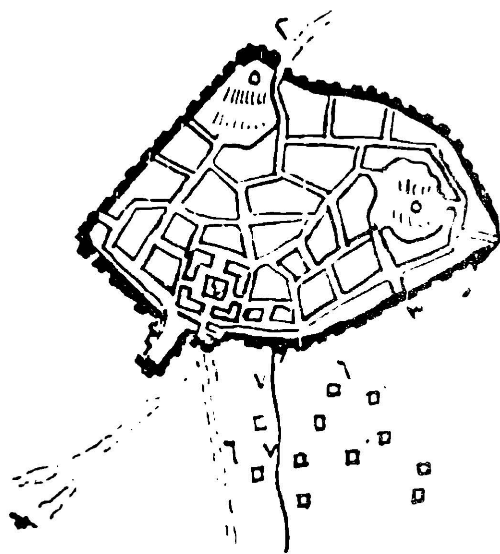
= التاليرات الألمانية» بواسطة مدير خزينة بلاطها، وذلك لترميم جامع في كربلاء «مشهد حسين». ـ المؤلف ـ.

كبير من الشمعدانات المصنوعة من الفضة فحسب، بل عليها ما هو مصنوع من الذهب الخالص، ومزيَّن بالأحجار الكريمة. وبصفة خاصة، يبحث بإعجاب عن قيمة الخنجر، الذي هو من نوع الخناجر التي يتمنطق بها الهنود. وهو معلق على ضريح الإمام المُحاط بالجدران. وكما يقال، فإن هذا الخنجر مزيَّن بأحجار ثمينة لا تقدَّر بثمن، وكان قد أهداها خليفة من (AURENGZEB) أورنك زيب قتل منذ بضع مئات من السنين.

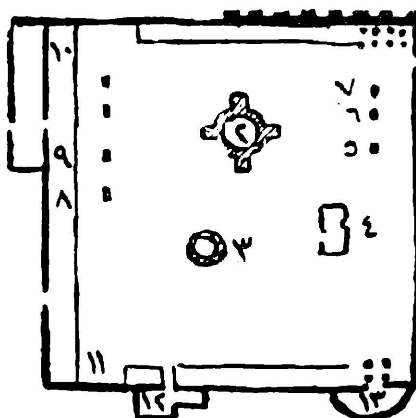
وهذا الكنز الكبير بيد المتولي (ناظر الجامع) والحاكم. ويرسل باشا بغداد أيضاً وفق العادة، ضابطاً ذا رتبة عالية في كل عام إلى هناك، عليه أن يتحقق من وجود كافة تلك القطع.

وتقع مدينة الكوفة الشهيرة سابقاً، على مسافة ما يناهز خمسة أرباع الميل من مشهد علي، باتجاه الشرق فالشمال الشرقي، في منطقة منخفضة خصبة. ولا يزال مجرى (DSIARRI ZAADE) كرى سعدة يظهر للعيان للآن (PALLACOPAS). إلا أن المياه في الوقت الحاضر لا تجري فيه أبداً. أما الأراضي المجاورة فهي جميعها فقيرة. وليس في المدينة أحد من السكان بعد. والشيء الذي يسترعي الانتباه هناك في الوقت الحاضر، جامع كبير جرح واستشهد فيه الإمام علي. وقد تبقَّى منه النزر اليسير جداً باستثناء الجدران الأربعة. ويظهر له مخطط في اللوحة 42 تحت الحرف «ب».

مخطط النجف الأشرف ـ رسمه نيبور سنة 1765



مخطط مسجد الكوفة كما وصفه نيبور سنة 1765



ويُسمَّى الباب المؤشر بالرقم «1» «باب الفيل» أما الرقم «2» فيشير إلى بناية تتوغّل عميقاً في الأرض. ولكنَّه غير صافية. ومن المحتمل أنَّها كانت صهريجاً للمياه. ويطلق عليها العرب اسم الـ«سفينة». وعلى ما شاء أن يؤكده لي دليلي، وكان من مشهد علي، ويعمل دليلاً لإرشاد الزوار الإيرانيين إلى الآثار التي تستحق المشاهدة هناك ويرجو إقرار كونه من أحفاد قدماء الكوفيين، فإنَّ سفينة نوح استقرت على الأرض في هذه البقعة.

تُسمَّى البناية الصغيرة الدائرية الشكل والمؤشرة بالرقم (3)، اسقاخانه «SIKKE KHANE»، حيث يتجلَّى من عنوان هذا المحل، أنَّ مياه الشرب، كانت تُوزّع منه سابقاً، ولكنَّه ليس بالقديم. إذ يظهر على بابه حجر نُقشت عليه كتابة عربية تطابق خط الكتابة العربية المستعملة حالياً، بينما لم تكن هذه الكتابة معروفة بعد في عهد الإمام علي. وقد شُيِّدت بناية صغيرة في الموضع الذي اعتاد الحسن والحسين (رضي الله عنهما) إقامة صلاتهما فيه، وهي مؤشرة بالرقم «4». وهناك محراب في أقصى جدرانها الخلفية، يقع في الموضع الذي كان من المفروض أنَّ الإمام موسى الكاظم قد صلَّى فيه. وتُسمَّى الأعمدة المؤشرة بالأرقام 5، 6، 7 بمقام سيِّدنا عيسى فمقام سيِّدنا موسى ومقام إبراهيم الخليل. لأنَّه كما يظنُّ المسلمون، فإنَّ عيسى وموسى وإبراهيم عليهم السلام، قد صلّوا في هذه الأمكنة. ويشير الرقم 8 إلى الموضع الذي كان من عادة الإمام زين العابدين الصلاة فيه. أما الرقم 9، فهو الموضع الذي يفرض أن نوحاً وعلياً قد صلوا فيه

وهناك أيضاً منبر صغير بسلَّمه الذي يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام. يشير الرقم «10» إلى الموضع الذي شيد فيه نوح أولِ بيت له بعد مغادرته السفينة، ويشير الرقم «11» إلى قبر شخص يسمى جعفر بن معمر «1» أما الرقم «12» فهو ضريح مسلم (ابن عقيل IBN AKEL) ابن أخ الخليفة علي وقد استشهد مع هاني بن عروة الذي أضافه في داره[1] وقبر الأخير معين بالرقم «13» ولم يشيّد هذان المسجدان، إلا في الفترة الأخيرة من تاريخ الشيعة. وذلك لاعتبارهم «مسلماً» وهانياً وكل من ضحّى بحياته في سبيل علي وأحفاده، من الشهداء. وفي داخل الجدران المحيطة بذلك الجامع، توجد بضعة أعمدة مرتبطة مع بعضها بالجدران، إلى جانب حجرة صغيرة لتأمين راحة الزوار الذين يرغبون المكوث هناك بضعة أيام.

وقد رأيت في مسجد مسلم كتابة تأثرت معالمها قليلاً بمرور الزمن، يفهم منها أن شخصين هما (محمد بن محمود الرازي) و(أبو المحاسن بن أحمد التبريزي) قد شيَّدا ذلك الأثر في عام 681هـ والكتابة مدونة بالشكل التالي:

هذه العمارة مشهد... مسلم بن عقيل بن أبي طالب عليه السلام في أيام الصاحبين المخدومين على الحق والدين... وشمس الدين ولدي محمد بن محمود الجوني أعزَّ الله أنصار دولتهما بتولي أرقاب عبيدهما محمد بن محمود الرازي وأبي

(1) مقام جعفر بن محمد الصادق.

المحاسن بن أحمد التبريزي عفى الله عنهما في شهور سنة إحدى وثمانين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله».

وهناك على قبر معمر بن جعفر[1] المؤشر في اللوحة «43» بالحرف «آ»، كتابة كوفية، وتكتب تلك الكتابة بالحروف العربية المستعملة في الوقت الحاضر، على النحو التالي: «بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد هذا قبر[2] جعفر بن معمر رحمه الله وغفر له صلى الله على محمد وعلى آل محمد».

أما الكتابة التي وجدتها على جدار هذا الجامع والمؤشرة بالحرف ب، فلا تحتوي على شيء آخر غير الآية 256 من السورة الثانية. ولكن بما أن الدكتور (REISKE) أبدى رغبته في أن أخلف ورائي كافة الكتابات الكوفية التي قمت باستنساخها، لفائدة الذين يعنون بدراسة هذه الكتابة، فإنني لم أودعه هذه الكتابة فحسب، بل أعطيته كلّاً من الكتابتين الصغيرتين المؤشرتين بحرفي «ج» و«د» وفي بغداد نماذج كثيرة للكتابات المزركشة الحديثة للخطاطين العرب، مخطوطة بالأحرف الكوفية في الأدوار الأخيرة.

وقد شيَّدت زوجة سليمان باشا، عادلة خاتون، التي توفيت منذ بضع سنوات، جدران هذا الجامع القائمة باتجاه الشمال الغربي، فرممت بعضها وأعادت تشييد البعض الآخر. كما أمرت بإنشاء

---

(1) يظهر أنه مقام (جعفر بن محمد) راجع صفحة 125 جعفر بن معمر.
(2) لعله مقام (أي موضع صلاة).

بناية صغيرة، ذات قبة واحدة، قرب هذا الجامع المتهدم، إجلالاً لابنة نوح عليه السلام. وقد دلوني على موضع هناك، يقال إن جثمان الخليفة علي قد غسل فيه. وكما أفاد دليلي، فإن لهذه البناية حجرة صغيرة، تقع بالضبط في الموضع الذي كانت ابنة نوح، تخبز الخبز فيه. أما البناية الصغيرة الأخرى، فقد أُهديت لبنات علي الثلاث ومن المحتمل أنَّهنَّ مدفونات فيها. وقد دلّوني على جامع آخر يبعد عن الجامع الكبير بما يقارب ربع الساعة باتجاه الشمال الغربي، يطلق عليه اسم (SAHHELE)[1] أو صاحب الزمان أو مهدي وقد رووا لي عن ذلك حكاية مفصَّلة، لم أفهم منطوقها بالضبط. ولا تصادف عدا هذه أية أشياء أخرى في الكوفة، غير عدَّة تلال صغيرة تخلفت من أنقاض الأبنية، ويتبيَّن من ذلك، أنَّ الأبنية هناك، مشيَّدة بالأحجار المفخورة على الأكثر، لذا فإنَّها أشد مقاومة من أبنية البصرة. وقد يعثر أحياناً على بعض المسكوكات القديمة تحت هذه الخرائب، ولكنَّهم لا يعيرونها أية أهمية. وحيث إنَّ المسلمين لا يجمعون مثل هذه المجموعات، كما أنَّه ليس من عادة الأوروبيين زيارة مشهد علي «على حدّ علمي لم يصل للآن أي أوروبي إلى هناك» لذا فإنَّ أي سائح لن يتوقع شراء مثل هذه الأشياء هناك.

لم يشاهد خادمي شيئاً أكثر إلفاتاً للنظر في الكوفة من قطعة عمود، يروى أنَّ الإمام علياً ذاته بشخصه الكريم، قد حملها معه

---

(1) السهلة أو مسجد سهيل.

من البصرة إلى هناك؛ وقد كان هذا العمود داخل الجامع الكبير قرب مبنى السفينة. وكما يُقال، فإنَّه يمتاز بأن من لم يستطع إحاطته بأكمله، فإنَّ أُمّه لم تكن مخلصة لأبيه، وقد أراد عامة الناس بأجمعهم، ممَّن كانوا معي هناك في نفس الوقت إجراء هذه التجربة ليعرفوا هل أنَّ هذا المدعو أباهم، والذي أشارت بذلك أُمَّهاتهم إليه، هو أبوهم حقاً. وقد عاد جميعهم مستبشرين، إلَّا سائس الخيل، أرادوا إقناعه جميعاً بأنَّ العمود أخذ في الاتساع بسببه. وقد كان من المضحك جداً مشاهدة الجهد الكبير الذي بذله الرجل البائس، لإحاطة العمود بأكمله وكان عقلاء المسلمين، ينظرون إلى هذه التجربة على ماهيتها، أي إنَّها كانت تمضية لوقت الفرد الاعتيادي.

رحلة من مشهد علي إلى الحلة

وفي الخامس والعشرين من شهر كانون الأول سافرت من مشهد علي إلى «كفيل»[1] الواقعة على مسافة أربع ساعات ونصف باتجاه الشمال، ثم منها إلى الحلة الواقعة باتجاه الشمال إلى الشمال الشرقي، على البعد نفسه، وهكذا يبلغ مجموع المسافة بين المدينتين تسع ساعات أو سبعة أميال ألمانية، إن كفيل هو اسم «حسقيل»[2] باللغة العربية، ولا يزال مئات من اليهود سنوياً يزورون قبره هناك. إلا أنه ليس لهذا النبي خزائن من الفضة أو الذهب أو الأحجار الكريمة، ويرجع ذلك إلى أن اليهود، حتى ولو رغبوا أن يقدموا له مثل هذه الهدايا لما تركها المسلمون لهم مدة طويلة، وعلى اليهود أن يكونوا ممتنين للسماح لهم وتمكينهم من زيارة هذا المكان، ولا يشاهد في مسجد النبيّ شيء آخر، غير قبر محاط بالجدران تحت منارة صغيرة. وصاحبة أو حامية هذا المحل المقدس عائلة عربية لها هناك جامع صغير وجميل ذو منارة واحدة. ولم تكن تدفع للأتراك أي ضريبة عن الأراضي المجاورة

---

(1) الكفل.

(2) ذو الكفل هو اسم حزقيال.

بسبب هذا النبي وبالإضافة إلى ذلك، كانت هذه العائلة تكسب الكثير من المسافرين الذين يرغبون بكل سرور في الاستراحة هناك بعض الوقت ويحاط قبر حسقيل والجامع وبضعة مساكن عربية كلها بسيطة بسور قوي يرتفع إلى علو ثلاثين قدماً ويبلغ محيطه 250 خطوة مضاعفة (ما يقارب ألف ومائتي قدم). وقد شُيِّد هذا السور للمرَّة الأولى، على نفقة رجل يهودي يسمى سليمان يسكن في الكوفة ومن المحتمل أن اليهود أنفسهم، هم الذين يتولون العناية به على نفقتهم، لأن فائدته تعود عليهم أكثر مما على غيرهم. وليس من النادر أن يفد العرب في الموسم الذي يأتي اليهود فيه إلى هناك، ليباركوا لهم على سلامة الوصول، وأكثر من ذلك لطلب الهدايا منهم، ولو تمكن اليهود أن يتفاهموا مع العرب بسلام، لاستفادوا من ذلك كثيراً، حيث إن اليهود جبناء لدرجة أن بضعة أفراد من المسلمين، يتمكنون من إرهاب عشرة أو حتى عشرين ضعفاً من اليهود. ولهذا أصبح العرب في بعض الأحيان وقحين جداً: وعندئذٍ لم يكن لليهود سبيل آخر للنجاة غير أن يغلقوا أنفسهم في قلعة صغيرة أو خان كما كانوا يدعونها. ولم يتجاسر اليهود على إطلاق النار على أعدائهم من هناك، حتى لو كانوا يمتلكون البنادق ويعرفون كيفية استعمالها، إذ إن ما يسفكه اليهود من دم المسلم، لا يدفع ثمنه غالياً إلى حد يدعو إلى العجب فحسب، بل إن العرب لا يألون جهداً أيضاً من ترقب قافلتهم في فرصة أُخرى ومهاجمتها بل نهبها. لذا على الزوار البقاء في الخان ريثما ينجدهم من الحصار متصرف الحلة أو باشا

بغداد، إذا كان عدد الأعراب كبيراً، وهذا يكلفهم دائماً أكثر مما يطلبه العرب منهم. وفي الحالة الأخيرة يضطر العرب إلى الانسحاب بخفي حنين أو ببعض الهدايا البسيطة، الأمر الذي يكون إنذاراً لهم بعدم التمادي كثيراً في الوقاحة مع اليهود مرة أُخرى.

ويصادف المرء في الطريق بين الكفيل[1] والحلة، عدَّة أنهر صغيرة، جميعها تقريباً جافة في هذا الموسم. ولا يشاهد ما يستلفت النظر غير بيت هنا أو هناك، لأحد الفلاحين وقد بُني بالطابوق غير المفخور، وقبب صغيرة مختلفة على قبور صغار أولياء المسلمين.

(1) الكفل.

بقيت في الحلة في 26 من الشهر. وفي اليوم التالي، شرعت فوراً بالسفر إلى مشهد الحسين، المدينة التي شُيِّدت في موضع مشهور لدى المسلمين باسم «كربلاء». وتقع على مسافة ما يقارب السبع ساعات أو خمسة أميال ألمانية من الحلة باتجاه الشمال الغربي ولا يشاهد على طول هذا الطريق شيء آخر غير القرية المسماة (TOMASIE)[1]. وهي قرية كبيرة بكثير من بساتين النخل، يجب أن يكون الشاه عباس[2] أول من عمَّرها.

لم تكن منطقة كربلاء مأهولة بعد، عندما فقد الحسين والكثير من أقاربه وأصدقائه حياتهم هناك[3]، غير أنَّ تلك الموقعة، سبَّبت إعمار هذه المنطقة، حيث جلب الماء من الفرات إلى هناك، وتُشاهد هناك في الوقت الحاضر غابة واسعة للنخيل[4]. تكون المدينة التي في داخلها أوسع من مشهد علي، كما أن عدد سكانها

(1) (الطهماسية).
(2) لعله يقصد الشاه طهماسب.
(3) ترجمة تاريخ العصور الحديثة العام لسملر ـ الجزء الأول ص 195ـ. ـ المؤلف ـ.
(4) لهذا السبب يطلق محمد علي خان اسم «الحديقة» على هذا المكان، تاريخ نادر شاه ـ الترجمة الألمانية ص 374ـ. ـ المؤلف ـ.

أكثر منها أيضاً. إلا أن بيوتها ليست متينة نسبياً ومعظمها مشيَّدة فقط بالطابوق غير المفخور، كما هي الحالة في البصرة والحلة. وهناك خمسة أبواب لسور المدينة، ولكن السور هو الآخر، مشيد فقط باللبن والطابوق المجفف في الشمس، وقد تخرب بأجمعه الآن.

وأكثر ما يستدعي الانتباه هناك، هو جامع كبير يضمّ في داخله مسجداً يسميه الشيعة بمذبح الحسين وقد شُيِّد هذا المسجد في عين المكان الذي داست فيه الخيول على حفيد محمد ﷺ هذا، وقد دفن فيه.

وقد وجدت أن محاولة وضع رسم تخطيطي لهذا الجامع، أخطر عاقبة من سابقه في مشهد علي. ولم أتمكن من التجاسر بالدخول إلى صحنه حتى في وضح النهار. وقد قمت في هذه الأثناء بالذهاب إلى هناك ليلاً مرتدياً عمامة تركية، برفقة زميلي في الرحلة. وحيث إن كافة الأطراف كانت مضاءة احتفالاً بالعيد، فقد رسمت بعد عودتي رسماً لها، يوجد في اللوحة 42 «ج» ليعطي للقارىء فكرة على الأقل عن طرز إنشاء هذا الجامع. وجداره من الأمام يحفل بالنوافذ وهو يشكِّل منظراً غريباً في هذه البلاد، التي لا يشاهد فيها زجاج النوافذ. والواقع أنَّ من المحتمل أنها كانت هدية من إيراني أرسلها إلى هناك من معمل في شيراز. وتقوم قبة عالية خلف البناية الأمامية، حيث الإمام حسين مدفون تحتها. وتحيط بها أربع منارات صغيرة، وعلى مسافة أبعد منها في الخلف تقوم قبة أُخرى أوسع منها عرضاً بكثير ولكنها ليست عالية للغاية، لذا لم أتمكن من إظهارها في الرسم من تلك الجهة. وهذه الأبنية جميعاً كائنة في ساحة خالية مُحاطة

من كافة أطرافها الأربعة، بمساكن العلماء والدراويش. وهناك أمام المدخل الرئيسي للجامع، شمعدان نحاسي كبير جداً ذو عدة مصابيح، كما هي الحال في مشهد علي. ولا يمكن مشاهدة أي ذهب في الخارج، إلا أن هناك كما يقال، عدة حاجات ثمينة قرب ضريح الحسين، وإن لا يمكن مقارنتها بأي شكل من الأشكال، مع الحاجيات الموجودة قرب ضريح الإمام علي «رض».

ويشير الشيعة هناك أيضاً، إلى مقابر كثير من أقرباء الإمام الحسين وأصحابه، ممن فقدوا حياتهم في الحرب التي جرت في كربلاء وهؤلاء جميعاً يعتبرهم الشيعة من الشهداء وقد شيدوا جامعاً كبيراً داخل المدينة، إجلالاً للعباس الذي كان أخاً للحسين من أُمّ أُخرى وقد تحدثوا إلي بأُمور كثيرة عنه، ولكنني أود أن أذكر منها الرواية التالية فقط:

حين اشتد العطش بالحسين، أمر العباس أن يحفر في الأرض في الموقع المسمى «CHEIMA KAA» خيمكاه أو المخيم، والذي سنبحث عنه مباشرة بعد انتهاء هذا الموضوع. فلما لم يجد العباس الماء هناك، ذهب ممتطياً جواده إلى محل يبعد ساعة واحدة باتجاه الشمال، حيث ملأ قربته فيه. وفي طريق العودة، التقى بفريق من الأعداء، حاولوا أخذ الماء منه فبتروا إحدى يديه في تلك المحاولة. فتناول الماء باليد الأُخرى التي بتروها أيضاً. وأخيراً أمسك العباس القربة بين أسنانه، إلا أن سهماً أصابها آنذاك، جعل الماء ينسكب عن آخره. فعاد ثانية دون أن يتوفق في إرواء غليل أخيه المحبوب.

ومن الأماكن التي تستحق الانتباه، والتي يزورها الزوار الوافدين إلى هناك، هو الموضع الذي سقط فيه جواد الحسين بصاحبه. ويقع هذا الموضع خارج المدينة، على الطريق المؤدي إلى مشهد علي. ويقوم عليه بناء صغير يأمّه الزوار. وقد روى لي دليلي بصورة مفصلة، ما تحدَّث به الإمام لعائلته هناك، وعن ماهية الأوامر التي أصدرها إلى ضباطه، ولكنني لا أرى لزوماً في ذكرها جميعاً. وقد ضرب خيمته أخيراً قرب (CHEIMA KAA)[1] الموضع الذي أصبح في الوقت الحاضر حديقة كبيرة في الطرف الآخر من المدينة. ويشاهد الآن حوض كبير في نفس الموضع الذي لم يتمكن العباس من العثور على الماء فيه، وبموجب اعتقاد الشيعة فقد استمد هذا الحوض مائه بواسطة المعجزة ويعد هذا الحوض مقدساً لديهم، وفي هذه الحديقة الآن، بناية مخربة عن آخرها، تقع بالضبط في الموضع الذي ضرب الحسين فيه خيمته. وتقع قربها بناية صغيرة قليلة الارتفاع دفن فيها القاسم العريس وكثير من الشهداء الآخرين، وأما صاحبة داري التي كانت أرملة عجوز، متمسكة بشيعيتها فقد سُرَّت كثيراً لدى سماعها بزيارتي قبر القاسم المشار إليه. فقد كان هذا الأخير وليّها المفضل وقد تحدثت إلي، والدموع تملأ عينيها، عن أن هذا الشاب، الشجاع كان على أهبة الزواج، أي إنَّ القاضي كان قد عقد قرانه بحضور الشهود حين استشهد بمعية الحسين والشهداء الآخرين، في النهار الذي سبق ليلة زفافه،

(1) المخيم.

وقد كانت هذه المرأة الطيبة القلب ملمَّة بكل كلمة تبادلها كلا المحبين بينهما، قبيل نشوب القتال.

وقد كنت هناك عند بدر شهر رجب بالضبط، حيث أخذ مئات الزوار يتوافدون إلى هناك حوالي هذه الآونة ليقضوا ليلة كاملة بجانب ضريح الحسين. وبما أنهم لا يملكون تقويماً مطبوعاً، لذا فإنهم على الأغلب ليسوا على بيِّنة من أيام احتفالاتهم على وجه الضبط. لذا فإن أكثرهم، يمضي ليلتين في الجامع، ليطمئن إلى عدم فوات الوقت المرهون.

والأمر الذي يستوجب تحفّظ السائح، سيما لو كان شيعياً، هو جماعة حثالة الانكشارية المطرودين من بغداد لسوء سلوكهم. ويطيب لهؤلاء بصفة خاصة، البحث عن أغنياء الإيرانيين، للتصرف عليهم، فيعطون لهم فكرة سيئة جداً عن الحكومة العثمانية والسُّنَّة على الإطلاق، الذين لا يحمل الشيعة عنهم فكرة طيبة جداً. فإذا اتصل أجنبي ما معهم ـ أي مع سوقة الانكشارية فإنهم يبحثون على الفور عن وسيلة ما تمكنهم من التشاجر معه فيتهمونه بحجة تحدثه بسوء عن هذا أو ذاك أو الحكومة وحتى عن الدين ولديهم في الحال الشهود على ذلك. فإن لم يشأ الإيراني، الذي يجهل التركية والعربية على السواء في أغلب الأحيان، أن يقع بيد الحكومة، فعليه عندئذٍ أن يدفع الدراهم.

وقد شاء أحد هؤلاء الذين طبقت سيرتهم الآفاق، وكان حسن الهندام أن يتعرف إلي في أحد المقاهي، وهو يحسبني تاجراً أرمنياً،

فلما وجد أمامه أوروبياً زاد فرحاً، وامتدح الخدمات الكثيرة المتبادلة بينه وبين الأوروبيين في حلب واستانبول حتى أنه أخبرني بأسماء البعض منهم. وقد أكَّد لي أنه سيكون عظيم الامتنان، لو أتيح له ثانية إسداء خدماته في مثل هذا المحل الذي أجد نفسي فيه غريباً كلياً، ذلك المحل الذي يعيرون الأوروبيين فيه أهمية قليلة كنصيب النصارى الشرقيين من اهتمامهم.

وكنت قد سمعت مراراً في إيران مثل هذه المداهنات التي لا تعني شيئاً. إلا أنني لم أكن معتاداً على مثل هذه السرعة، في تقديم العروض من الأتراك والعرب المستقيمين. لذلك فقد التزمت على الفور جانب الحذر كثيراً. وعندما علمت بعدها مع أي شخص كنت أتحدث، صرت أتجنَّب آنذاك الاتصال مع كافة الجماعات هناك.

وأود أن أذكر في هذا المضمار أيضاً، أن الكعبة لدى المسلمين، ليست وحدها الملجأ الأمين للحمام، بل إن ندرة التعرض إليهم هناك هي نفسها في الجوامع القائمة على ضريحي علي والحسين وفي «جامع DSJAMEA» الجامع الأساسي في الحلة وكذلك في المدن الأُخرى.

ويشتد الإقبال هناك بصورة تدعو إلى العجب على الطرات «الترب» والمسابح المصنوعة من المكيل وذلك لسرعة تآكلها بنتيجة لكثرة استعمالها وهي تُصنع في معمل في مشهد الحسين، يعود لإحدى العوائل منذ عدة سنوات. وتعدّ هذه العائلة نفسها من

نسل السادات، أو من أحفاد النبي، وتنتسب إلى المذهب الشيعي. غير أنه عليها أن تدفع مقابل هذا الامتياز ـ امتياز المعمل ـ مبلغاً مهماً سنوياً إلى باشا بغداد.

وتُباع هذه الحاجات المقدسة في بناية صغيرة في جامع الإمام. وقد جعلت صاحبي الملا، يشتري لي قسماً منها، ورسمت من الطرات التي جلبها بأشكال وأحجام مختلفة، بضع طرات صغيرة. وهي تبدو فيه منحوتة بأشكال جميلة. اشتريت هناك أيضاً ملفاً من الورق بطول ستة أقدام وثلاث بوصات ويبلغ عرضه ثماني بوصات. وقد رسمت عليه الكعبة والضريح النبوي الشريف، وأضرحة أعظم الأئمة والأشياء الطريفة التي تُعرض للزائر في هذه الأماكن. وجميع هذه الأشكال مرسومة بصورة بدائية وملونة دون اقتصاد في تذهيبها وطلائها بالفضي. إن الحصان (البراق) الذي اتخذ محمد ﷺ طريقه إلى السماء عليه، والجمل المحمل بالستار الثمين، الذي يرسل كل سنة من القاهرة إلى مكة، والأسد (ويُراد تمثيل علي به)، وجواد علي الملون الشهير (دلدل)، وعبده الصادق (عنبر)، وسيفه الشهير (ذو الفقار)، والختم الذي كان على ظهر النبي محمد ﷺ، كانوا جميعاً مرسومين على هذه الورقة. ولو أنني حفرت الرسم بكامله على النحاس لغرض الطبع لأصبح قرائي قليل الشكر لي. ولكن نظراً لتعدد البحوث عن السيف «ذي الفقار» في تاريخ العرب فقد رسمته في لوحة ف. وله شكل خاص وكبر خارق للعادة. ذلك من شخصية شهيرة للغاية، وقوية كعلي، كان لا بد لها أن تتملك سيفاً خاصاً كبره خارق

للعادة. فلو قارنا السيف في الرسم المذكور مع الأشكال الأُخرى في الرسم نفسه. لتبين لنا أن طوله يقارب (ستة أقدام ونصف). وسيجد الأوروبيون رسمه غريباً. ولو فرضنا أن من المحتمل أن علياً كان يملك سيفاً ذا حدين، وأن المسلمين الحاليين، كما هو معلوم، يعرفون السيف الاعتيادي فقط، لذلك فلا يعتب كثيراً على الرسامين الشرقيين حين يرسمون ذا الفقار بنصلين. ألا يرسم الرسامون الأوروبيون في أكثر الأوقات رسوماً غريبة للأشياء الشرقية التي لم يروها؟. وفي نفس هذه اللوحة يشاهد أيضاً تحت الحرف (غ)، شكل لختم النبي الموشوم على ظهر محمد ﷺ، وهو يبدو في الصورة منقوشاً بالكتابة العربية، إلا أن أحد العلماء السُّنَّة أراد أن يؤكد لي، أن العلماء حتى الآن، لم يتفقوا على الأوصاف الأصلية لهذا الختم.

إن (البراق) مرسوم على الورق المذكور على شاكلة جواد مسروج وله رأس امرأة ذات شعر طويل، وله جناحان صغيران وذنب عريض متجه إلى الأعلى.

عدت إلى الحلة من مشهد الحسين أو كربلاء برفقة ما يقارب المائتين من الزوار. وقد سافر الآن إلى هناك كثير من الناس ممن لم يحضروا في مشهد علي قبل البدر، وذلك لأداء زياراتهم، بينما اتخذ الآخرون الطريق المؤدي مباشرة من كربلاء إلى بغداد ـ ويقدر الطريق من مشهد الحسين إلى مشهد علي بمسافة سبع ساعات أو خمسة أميال ألمانية ـ وتبدو أولاً، على بعد ميل واحد تقريباً من المدينة المذكورة، بساتين النخيل غامرة المكان، ويكون الطريق بعدها

رملياً، ولا يصادف المرء أي بناء سوى خان (KNESA)[1] وهو كراون سراي يقع في محل لا يبعد عن كفيل[2]. ولا يكون هذا الطريق في العادة، أميناً بالنسبة للمسافرين المنفردين، وخلال إقامتي هناك، عاد إلى مشهد الحسين ذات مرة، أُناس قد نهبهم العرب. وفي اليوم الثاني وصل أُناس قد نهبتهم خيَّالة الباشا الذين يفرض فيهم حماية الأمن في الطريق. فكان على هؤلاء المسافرين أن يسلموا كل ما له قيمة مما بمعيتهم. ولم تستثن بنادقهم أيضاً. وقد أطلق سراحهم بعد ذلك. ويقدر الطريق من كربلاء إلى بغداد، بمسافة ست عشرة ساعة كما يلي:

خمس ساعات إلى «المسيب» وهي قرية على الفرات، لها جسر شُيّد على العوامات.

أربع ساعات إلى الـ«كروان سراي» المسمى (BIR UNUS)[3] ومنها إلى بغداد، عن طريق الحلة، في سبع ساعات.

---

(1) ربما يقصد خان النص أو النصف.

(2) الكفل.

(3) لعله بئر النص (بئر النصف).

ملاحظات عن الحلّة

تقع مدينة الحلة على خط العرض «″30، ′28، °32» على الساحل الغربي للفرات. وهي مدينة على جانب من السعة حتى في الوقت الحاضر، إلا أنها تعجُّ ببساتين النخيل. والقليل من البيوت فقط، ما هو مشيَّد بالطابوق المفخور، في حين أن البيوت الأُخرى، استعمل في بنائها الطابوق المجفف بالشمس وفي داخل المدينة جامع ذو منارة واحدة فقط، بينما تشاهد في خارج المدينة جوامع أُخرى متعددة، منها المسمى بمشهد الشمس، الشهير لدى الشيعة. وربما كان ذلك هو السبب في المحافظة عليه وحسب رواياتهم، فإن الشمس ذات مرة، طلعت بعد ميعادها بساعتين مجاملة للإمام علي الذي تأخر عن موعد صلاة الصبح ذلك اليوم وقد شيد بعدها مشهد الشمس أو «جامع الشمس» في نفس الموضع الذي أدى الإمام علي صلاته فيه آنذاك.

كان حاكم (متصرف) هذه المدينة يتبع أوامر باشا بغداد. ولهذا الأخير موظف للگمرگ يبقى على الدوام، وله بدوره عدد من الموظفين. ذلك أن تجار بغداد والبصرة بصفة عامة، يفضلون

إرسال بضائعهم من مدينة إلى أُخرى عن هذا الطريق، بدلاً عن نقلها على دجلة.

ويظهر أن منصب القاضي في الحلة متوارث. إذ إن الشخص الذي كان يشغل ذلك المنصب خلال إقامتي هناك، كان فيه منذ سنوات طويلة، كما أن والده أيضاً كان قاضياً لهذه المدينة.

يقرب عرض الفرات في هذه المدينة من أربعمائة قدم، وعليه جسر رديء يقوم على اثنين وثلاثين عوَّامة ربطت بعضها بالسلاسل. كان عرض النهر في هذه الآونة على أوطأ مستوى له، ولكنه لن يلبث أن يأخذ في الارتفاع في أواخر كانون الأول أو بداية كانون الثاني.

ومما لا ريب فيه، أن بابل تقع جوار الحلة وذلك ليس لأن الأهلين ما زالوا إلى يومنا الحاضر يطلقون على هذه المنطقة اسم «أرض بابل» فحسب، بل إن هناك أطلال مدينة قديمة لا يمكن أن تكون إلا بابل. فإن سلَّمنا بقول الآخرين، يتبين لنا أن الحلة أيضاً، تقع ضمن أسوار بابل القديمة. غير أن المرء يجب أن لا يتوقع عند ذكر الآثار العتيقة في بابل القديمة، أنها بعظمة الآثار الرائعة التي تُشاهد في إيران ومصر.

فالرخام الضخم الموجود في برسيبوليس، كان بالضبط قرب المدينة، بل إنه كان على التل الذي شُيِّد عليه البلاط الشهير. والأحجار الكلسية التي شُيِّدت بها الأهرامات الكبيرة قرب القاهرة، قطعت في نفس الموضع. وبالإضافة إلى ذلك تصادف التلال المكونة من الأحجار الكلسية في جميع الجهات التي تقع

في الجنوب من ذلك الموضع، في أماكن لا تبعد كثيراً عن النيل، بل إنها تقع جواره تماماً. هذا إلى أن تلال الجرانيت تصادف في القسم الجنوبي من مصر قرب النهر تماماً، بينما لا تصادف مثل هذه الظواهر في دجلة والفرات من الخليج حتى الحلة وبغداد، بل إلى أبعد من ذلك شمالاً، حيث إن الأراضي لا تعدو عن كونها مستنقعات فحسب. فلو أن البابليين شاؤوا تشييد أبنيتهم بالأحجار المقطوعة، لوجب عليهم آنذاك جلب هذه الأحجار من أماكن بعيدة جداً، ولكلفهم هذا الأمر تكاليف باهظة للغاية. لذا فإن أفخر أبنيتهم قد شُيِّدت بطوابيق مربعة الشكل ذات قدم واحد، يقرب سمكها من سمك الطوابيق المستعملة لدينا في الوقت الحاضر. وقد فخروا هذه الطوابيق على نفس النمط الذي فخَّر به أجود ما رأيت من الطوابيق. ولو أنهم ألصقوا هذه الأحجار بالكلس، لكان من الممكن أن نصادف من بقايا هذه الأبنية، أكثر مما نصادفه الآن. غير أنهم بنوا هذه الأحجار بمادة رديئة لا تتماسك على نحو قوي جداً، لذلك نقلت أحجار أبنيتهم القديمة تدريجياً، وشيّدت بها أبنية جديدة في المدن والقرى المجاورة الواقعة على الفرات. وحتى الـ(كروان سراي) الكبير والبديع الذي نزلت به في الحلة شيد منذ بضع سنوات بتلك الأحجار.

إن القلعة والحدائق المعلقة الشهيرة الواقعة قرب الفرات تماماً، كما يذكر سترابو وسائر الكتَّاب اليونانيين الآخرين في أخبارهم، لم يعد يشاهد منها، كما أعتقد، سوى بقية في موضع يبعد بثلاثة أرباع الميل الألماني عن الحلة، باتجاه الشمال

فالشمال الغربي وهي بالضبط على مقربة من النهر، على الضفة الشرقية منه. وجميعها عبارة عن تلال كبيرة متآكلة كثيراً، وقد نقلت جدرانها البارزة فوق الأرض من هناك منذ زمن بعيد. إلا أن جدرانها الأساسية ما زالت باقية، وقد شاهدت بنفسي الأشخاص الذين يستخرجون الأحجار منها لنقلها إلى الحلة. وفي الوقت الذي لا يشاهد في كافة المنطقة الممتدة من الخليج إلى كربلاء أي شجرة تقريباً، ما عدا أشجار النخيل والفواكه الأُخرى، تصادف هنا وهناك، بين تلال الخرائب هذه، شجرة أُخرى يبدو أنها متقدمة في العمر. وعلى ساحلي الفرات من تلك المنطقة كلها، تشاهد تلولاً صغيرة متآكلة ممتلئة بشظايا أحجار الجدران. وفي الجنوب الغربي، على مسافة ميل وربع من الحلة، وعلى الساحل الغربي للفرات أيضاً، تبدو بقايا أُخرى لبابل. وهنالك تل جميعه من أحجار الجدران الجميلة المذكورة. وفوقه برج قائم يبدو هو الآخر ممتلئاً بأكمله من الداخل بأحجار الجدران المفخورة، غير أن أحجاره الخارجية، ـ ومن يدري كم كان سمكها ـ فقدت بمرور الزمن. وهنالك في ذاك الجدار السميك، أو بتعبير أصح، كومة لأحجار كبيرة، ثغرات صغيرة هنا وهناك تنفذ إلى الداخل تماماً، من المحتمل أنها أحدثت لتنظيم التهوية بصورة طليقة، وللحيلولة دون تكاثف الرطوبة في الداخل، مما يؤدي أخيراً إلى الإضرار بالمبنى.

لقد كان من الواجب أن يكون المنظر الذي يطلّ عليه البرج، رائعاً في العهد الذي ازدهرت بابل فيه، وكانت أطرافها جميعاً

عامرة، إذ يشاهد من سفح ذلك البرج مشهد علي بجامعه الذي يبعد بمسافة لا تقل عن ثماني ساعات وقد شاهدت ذلك البرج أو كومة الأحجار في سفرتي الأولى إلى الحلة وحسبته برجاً قديماً للحراسة.

ويطلق رفاقي عليه اسم بئر نمرود[1]، ويروون أن ملكاً يحمل ذلك الاسم، شيّد هناك بلاطاً كبيراً فخماً. فإذا حدث البرق، شرع برمي السهام إلى السماء، وكأنه يريد محاربة الله. فيفخر بأنه أصاب الله بجرح، إذ يبرز سهاماً سقطت ثانية من السماء، ملوثة بالدم وأخيراً عاقبه الله بالحشرات، التي أخذت تلاحقه بحيث لم يجد خلاصاً منها حتى في بلاطه الفخم، حتى انتهى الأمر أن قتلته تلك الحيوانات الصغيرة... الخ.

لم أجد فرصة في الحلة للتعرف على علماء المسلمين عدا القاضي الذي لم يكن ليعرف شيئاً عن «بئر» وبلاطها، غير الخرافة المذكورة. إلا أنني بعد مطالعتي ثانية لما سجله هيرودوت في كتابه الأول في الفصل المائة والسبعين عن معبد بلوس وبرجه الثابت، وجدت من المحتمل جداً أنني قد عثرت هنالك من جديد على بقيته ـ أي بقية البرج ـ لذا أود أن يفحصه أحد ممَّن سيعقبني فحصاً دقيقاً، ويصفه بعدها. وقد سافرت إلى هناك لوحدي بصحبة دليل الطريق فحسب. ولم أكد أفحص تلك الكوم من الأحجار إلا قليلاً، حتى رأيت بضعة من العرب الخيالة، متجهين نحوي. فوجدت أن من الأسلم الرجوع إلى المدينة ثانية. فلو أنني كنت

(1) لعله هو «برس» أو برج بابل.

أدري آنذاك أنني بالقرب من برج بابل، لأصبحت أكثر جرأة ولكنني لم أجد من المعقول وقتها أن أتعرض للنهب بسبب تلك الكوم القليلة من الأحجار، أو أن أخرج بسببها للسفر ثانية. ويشاهد بالقرب من هذا البرج قبتين صغيرتين أو بيتين للصلاة، مشيدين منذ ما يقارب الأربعمائة سنة، وقد تخرب قسم منهما، وعليهما كتابات صغيرة بالطين المفخور، تستلفت النظر.

وكما هو معلوم فإن البابليين كانوا قد أودعوا مشاهداتهم في علم الفلك، لمن سيخلفهم، على أحجار مفخورة. وبذلك شاء العلماء الأوروبيون، أن يستنتجوا أن علمهم - أي علم البابليين -، كان ضئيلاً أو معدوماً. إلا أن مجرد اعتمادهم على هذا الأسلوب السالف الذكر، يجعل لي رأياً آخر في هذا الصدد. إذ أن نفس ذلك الطراز من الكتابات بالحجارة المفخورة، متوفر في بغداد وغيرها من المدن في تلك المنطقة التي تكون فيها الأحجار المقطوعة نادرة وباهظة، كما هو متوفر في إيران التي يتيسر فيها الرخام الجميل بتكاليف قليلة جداً: ولهذا لا يمكننا من جهة، الادعاء بأن العرب والإيرانيين لم يملكوا مواداً أُخرى للكتابة، كما لا يمكننا من جهة أُخرى أن ندعي أنهم كانوا جهلاء في الفنون، بل على العكس من ذلك، يمكننا أن نستخلص أن البابليين كانوا في منتهى الرقي في صنعة الكتابة والفنون. ذلك أن قوماً يستطيعون قطع الحروف وإعطاءها الشكل المناسب، ويفخرونها بشكل جيد، فتلتصق الواحدة بالأُخرى «كما يملأ المرتب في عصرنا هذا هيكل الطبع»، حيث يمكن قراءتها بعد

مضي ستمائة أو سبعمائة سنة «كما اطلعت بنفسي على كتابات راسخة في القدم كهذه»، لا يمكن أن يعتبروا على أية حال، جهلاء لفن الكتابة.

وحيث إن البابليين أرادوا رسم الأخبار المتعلقة بالمعلومات الفلكية المهمة، بنفس هذه الكيفية، فإن ذلك يدل بلا ريب، على أن علمهم كان أكثر مما عرف عنه بواسطة كتاباتهم الأُخرى، التي تعطي بعض الأخبار لمن جاؤوا بعدهم، عن مشيّد أحد الأبنية.

ومن المحتمل أن المواد الاعتيادية للكتابة، التي استعملها البابليون، كانت رديئة وغير صالحة للحفظ. ويظهر أن علماءهم في الفلك، قد فطنوا نتيجة التجارب الطويلة، إلى أن مشاهداتهم المهمة، قد ضاعت أو حُرِّفت نتيجة تكرر استنساخها، لذا فإن إحاطتهم إياها بالجدران، كان عملاً صائباً. ولو عرضت الكتابات هذه للهواء الطلق، لوجب تجديدها كل خمسمائة أو ستمائة سنة تقريباً، بينما لا تجدد الكتابات المعتنى بها إلى حد ما داخل البناية، إلا بعد مضي ألف عام أو ما يزيد.

شيّد أحد المسلمين قبة صغيرة في هذه المنطقة إجلالاً للنبي إلياس، ويعتقد العامة، أن النبي المذكور مدفون هناك. غير أن الأمر ليس مؤكداً، وكذلك روايتهم عن سكنى أيُّوب في منبع يقع جنوبي الحلة، على مسافة نصف الساعة منها. ولا يزور اليهود القبة المشيدة على القبر المعزى للنبي إلياس، ولا القبة المشيدة على المنبع للنبي أيوب.

السفر من الحلّة إلى بغداد

تحركت من الحلة في 5 كانون الثاني سنة 1766 ويمتد الطريق المؤدي منها إلى بغداد، مستقيماً تقريباً باتجاه الشمال على النحو الآتي: ـ أربع ساعات إلى المحاويل، ومنها إلى الإسكندرية في أربع ساعات، ومنها إلى BIRUNUS بثلاث ساعات، ومنها إلى خان أسعد بثلاث ساعات، ومن خان أسعد إلى بغداد بأربع ساعات. ويوجد كروان سراي كبير في كل هذه المحلات المذكورة وقد شُيِّد اثنين منها منذ بضع سنين، تاجر غني، كما شيد بالإضافة إليها جسراً جميلاً قرب بغداد. ويعطى في أوروبا وسام الشرف لشخص كهذا، تقديراً لخدماته للمصلحة العامة. إلا أن سليمان باشا، أرغمه على أن يقرضه مبلغاً كبيراً. ومن الطبيعي أن ذلك المبلغ، لم يعاد في أي وقت من الأوقات. ويوجد بالقرب من كل «كروان سراي» من الأربعة المذكورة، أكواخ قليلة العدد فحسب، وفي الشرق من MHAVIE (لعلها المحاويل) قرية بنفس الاسم وتوجد بين BIRUNUS وخان بني أسعد، قرية MAHAMUDI المحمودية التي بنتها قبل بضع سنوات فقط عادلة خاتون زوجة سليمان باشا. أما الأراضي الباقية، فجميعها قاحلة،

بالرغم من أن الأراضي في كافة النواحي خصبة جداً. ولو لم تكن البلاد تفتقر إلى السكان، وهؤلاء بدورهم إلى الثروة، لكان من الممكن إرواءها من مياه الفرات، بجهد ونفقات قليلة.

وكلا النهرين متقاربان هناك بحيث إن المسافة بينهما ـ على ما أكَّدوا لي ـ تبلغ ست ساعات فقط في محل يبعد بضعة أميال باتجاه الشمال من بغداد، وفي وسع السائح أن يقطع المسافة بين الحلة وبغداد، والبالغة 13 أو 14 ميلاً، بكل سهولة خلال يومين في الصيف وخلال ثلاثة أيام في الشتاء. وحيث إن المطر كان غزيراً، كما أنني لم أكن على عجلة من أمري، لذا فقد احتجت أربعة أيام لذلك. ولم يصاحبني طيلة هذه الفترة رفقاء سفر آخرون، سوى بعض الأشخاص الذين يسوقون البغال وينقلون بضائع التجار إلى بغداد. وقد كانوا يتفوهون بكلمات سباب بذيئة متعددة، بحيث لم أسمع مثلها من المسلمين في أي مكان آخر، خلال رحلتي جميعها. إن من عادات بقية الأعراب تحاشي ذكر أسماء نسائهم وبناتهم لأن هؤلاء السوقة يريدون في كل لحظة أن ينالوا من شرفهن، فيسمون أُمَّهات وجدات غيرهم، حتى الجيل الخامس والسادس، بأبشع النعوت، يفعلون ذلك كله على سبيل المزاح. وأصحاب البغال (قاطرجي KATERDSJI) هؤلاء من الحلة أو بابل القديمة. غير أني لم أجد بقية أهل الحلة، يختلفون عن سائر المسلمين الآخرين. وعلى العموم لا يسع المرء أن يحكم على أخلاق مدينة بكاملها على ضوء أخلاق أصحاب البغال، الذين هم من أوطأ طبقة.

بغداد في رحلة نيبور

karsten Niebuhr

ترجمها من النسخة الفرنسية

الدكتور مصطفى جواد

بغداد في رحلة نيبور
karsten Niebuhr[1]

مدينة بغداد من أعمال الخالص، في خط العرض 20، 33 وهي قائمة على الضفة الشرقية من نهر دجلة وفيها مقرّ الباشا الكبير وحولها سور من الآجر من جهة البر، وقسم كبير منها في داخل السور خلو من البناية والزراعة، غير أن القسم المسكون منها كثير العمارة وخصوصاً النواحي الشاطئية وناحية السراي أي ناحية قصر الباشا فهناك تقوم أكثر الأسواق والدكاكين وتمتد أكثر الطرق.

إنَّ بغداد كثيرة السكان بالنسبة إلى مدن الشرق الأخرى التي تكثُر فيها البساتين، وطرقها ضيقة جداً، والأسواق الكبيرة فيها معقودة السقوف كلها، ويرى الإنسان فيها كما يرى في القاهرة طرقاً وأزقة تُسدُّ أفواهها في كل ليلة، وعامة المنازل والمساكن شاهقة مبنية بالآجر مطلّة على الطرق، ليس لها من الشبابيك إلا

---

(1) كارستن نيبور Karsten Niebuhr سائح ألماني ولد في لودينكورث Ludingworthe سنة 1733م وتوفي في ميلدورف Maldorf سنة 1815، كان من أوائل المستكشفين في جزيرة العرب وأقطار عربية أخرى.
رحلة نيبور «ج2، ص239» النسخة الفرنسية، طبع امستردام بهولندا.

القليل، ومنها ما ليس له شيء منها البتة، وذلك على غرار طراز العمارة الإسلامية المألوفة، ولهذا لا يظهر منظرها من الخارج، وفي داخلها، كجاري العادة، صحن صغير مربع تشرف عليه أكثر الغرف وخصوصاً الغرف الجميلة. إن طراز العمارة هذا عند الشرقيين، على ما بان لي، هو السبب الأقوى في شكواهم من الحرّ بالصيف، فإن الشمس حينما تتكبد السماء[1] تكون هذه الصحون المربعة الصغيرة المحفوفة بالجدران العالية كأنها أفران ذات حرارة لا تُطاق، وذلك لخلوها من الهواء خلواً تاماً، ولهذا السبب يكون لكل عمارة متميزة بعض التميز سرداب أي قسم في منخفض من الدار، معقود في أعلاه، وفيه مروحة «بادكير» على شكل مدخنة، فوهتها العليا واسعة من جهة الشمال، فالريح في بغداد تهبّ في العادة، كما في القاهرة وجزيرة خارك[2]، في فصل الحر أي القيظ، من الجهة الشمالية، ولا يسقط الثلج كثيراً ببغداد كما يحدث في بلادنا غير أننا رأينا في أول شباط صقيعاً ثخنه نصف أصبع، والناس يسمون هذا الوقت بوقت البرد القارس، ويزعم ناس أن عشرين إنساناً قد جمدوا في هذه الليالي ويؤكدون زعمهم، ولا يستبعد ذلك، ونحن نعلم أن فقراء هذه البلاد يمشون عراة، على التقريب، ومنهم من ينامون في الطرق فلا مأوى لهم.

ولكي أطلع القارىء حقّ الاطلاع على حال بغداد ووساعتها وضعت لها لوحاً تخطيطياً، فلها من جهة البر ثلاثة أبواب: باب

---

(1) تكبدت الشمس السماء: صارت في كُبيدائها أي وسطها.
(2) خارك جزيرة في خليج البصرة.

المعظم المرموز إليه بالرقم (1) وقد أخذ هذا الاسم من أبي حنيفة، فإن أهل السُّنة يسمونه «الأعظم» أي الأشرف، وتربته على مسافة نصف ساعة من ذلك الباب، والباب الثاني هو الباب الوسطاني، وقد رمز إليه بالرقم (2) ومعنى الوسطاني: الأوسط وهو على مقربة من البرج الأعظم، والثالث باب الطلسم وكان يؤدي إلى داخل المدينة ولكن السلطان مراداً [الرابع] كان قد انتزع بغداد من العجم، ودخل فيها من ذلك ثم أمر بسدّه وردمه بالآجر، وبقي مردوماً إلى اليوم[1]، والرابع هو (قارولغ قاپي) المرموز إليه بالرقم (4) وعند الجسر باب يسمونه «باب الجسر»[2]، وقد رُمز إليه في اللوح التخطيطي بالرقم (5)، وعلى كل من البدنات العشر «البروج» التي في سور المدينة ستة مدافع أو سبعة إلا أن نصف عددها ليس لها متكآت، وتلك البدنات صغيرة جداً بالنسبة إلى

---

(1) نسخت كتابة منقوشة عليه بتفصيل، يعلم بها أن الخليفة الناصر لدين الله كان قد أنجز هذا البنيان سنة 618 هجرية أي سنة 1221م، وذلك مما يدلّ على قدم بغداد وهذه الكتابة هي:
بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. أمر بعمارته سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة [على] كافة الأنام أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين، خليفة رب العالمين وحجة الله عز وجل على الخلق أجمعين، صلوات الله وسلامه على آله الطاهرين ولا زالت دعوة المدعي (كذا) على اتباع الحق منازله (كذا مناراً) والخلائق لها أتباعاً وأنصاراً، وطاعته المفترضة للمؤمنين أسماعاً وأبصاراً، وافق الفراغ منه سنة ثمان عشرة وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين».

(2) كتب السائح الاسم بلفظه العربي بالحروف اللاتينية فلذلك جاءت ترجمته مطابقة لاسمه العربي. «المترجم».

عدد المدافع، وليس على باب «قارولغ قابي» وباب الطلسم والباب الوسطاني مدافع، وربما كان السبب أن أحمد باشا أقام مضربتين مدفعيتين «بطاريتين» في الموضع المرموز إليه بالرقم (6)، وبين هذه البروج الضخمة بروج صغيرة أخرى، لا يمكن الدفاع عنها إلا بالأسلحة النارية الخفيفة. وفي السور نفسه من الداخل عقود كثيرة ذوات طبقتين إحداهما فوق الأخرى، وعليه مدافع هاونية لحفظ الخندق بسلاح ناري، إلا أن السور ركيك جداً والخندق جاف، وليس في خارج السور من بنايات تحصينية «استحكامات»، ولذلك يستطيع العدو الأوروبي أن يستولي بسهولة على هذه المدينة[1]، مع أنها مشهورة بحصانتها ومناعتها، فإن نادر شاه حاصرها غير مرة فلم يبلغ من حصارها غرضاً ولا استولى عليها.

وفي الركن الغربي من بغداد قلعة صغيرة تُسمّى «إيج قلعة» أي القلعة الداخلة، وقد اتخذت في هذه الأيام «دار صناعة» ومخزناً للبارود، ولا تفيد شيئاً آخر غير ذلك، ولا يسكن فيها إلا الجنود الينكچرية. وفي أوروبا لا يرخّص للغريب بسهولة من أن يدخل مثل هذا الحصن، وقد حاولت أن أدخلها فدخلتها، ولم يعرض لي في الدخول والخروج إلا بعض الاستيقاف، كالذي لقيته في دخولي من أبواب بغداد، فإن فيها رجالاً من الينكچرية المذكورين يحفظونها، والسبب في تلك السهولة أن الجنود الأتراك يتساهلون في الخدمة، ما وسعهم التساهل كما أنهم لا يحيون أحداً

(1) الْحَظْ هذه النظرة العدوانية الخبيثة من هذا السائح. الذي ادعى أنه ساح لجمع المعارف البلدانية. «المترجم».

بالسلاح، وليس من الواجب عليهم أن يتعرفوا حال من يدخل ومن يخرج، وإذا ساءت حالة الجو فإنهم يبقون في مراكزهم، فإذا اعتدلت حالة الجو وقفوا لدى الباب يتعاطون الأدخان بالتوتون في سبل أو يلعبون النرد «الطاولة»، واختصر ذلك بجملة واحدة فأقول: إنهم لا يهتمون بشيء أبداً، ما داموا لابثين في مراكزهم مستعدين لما يطرأ من شغب في الطريق.

والسراي أي قصر الباشا بإزاء القلعة على شاطىء دجلة، قرب موضع الرقم (7) من اللوح التخطيطي وهو وسيع جداً وفيه مرافق كثيرة أكثرها رديء البنيان متشعث الأركان.

والمدرسة المستنصرية التي نوّه بها المؤلفون العرب في آثارهم كثيراً، موضعها بقرب الرقم (8) من اللوح، وهذه المدرسة ليست مقصورة على العلماء اليوم، وقد اتخذ مطبخ هذا المقر المجمعي العلمي القديم دار للمكس «الگمرگ»، ومعظم البناية جُعل خاناً للقوافل يُعرف بآت ميداني، وأكثر مبانيها متداعٍ للخراب، وعلى طول البناية من جهة النهر كتابة طويلة يفهم منها أن الخليفة المستنصر بناها سنة (630هـ ـ 1222م) وإذ كان الناس العابرون للجسر متوافرين لم يكن انتساخي للكتابة متسنياً لي دون اجتذاب انتباه الناس إليّ، فلذلك وكلت نسخها إلى ملّاء من الملّائين، وقد قابلت ما نسخه بالأصل ونقلته تحت هذه الصفحة[1].

(1) هو: «قد أمر بإنشاء هذه المدرسة الشريفة لطلاب العلم وتسمى المدرسة العظمى دولة العز وأسعد الخلائق المحجة البيضاء عبد الله وخليفته في أرضه الخليفة أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين أمتع الله =

وقد بنى المستنصر أيضاً بعد ثلاث سنوات من ذلك جامعاً عظيماً[1] في محلة سوق الغزل، وقد رمز إلى موضعه في اللوح بالرقم (9) إلا أنه لم يبق منه إلا المنارة والجدران الخارجة مع مدخلين عجيبين عند قهوة رديئة وفوق الباب يرى الرائي كتابة هذا نصها «أمر بعمله سيدنا ومولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين أعلى الله تعالى معالم الإسلام بهمته العلية، وأزهى (كذا وأرسى) دعائم الإيمان بإيالته [الرضية] وذلك في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة».

إن المدرسة التي هي اليوم عظمى المدارس ببغداد قد أسّسها للحنفية والشافعية سنة «758هـ» رجل اسمه مرجان، إن مرجان هذا بنى أيضاً جامعاً كبيراً (كذا) وعمارات أخرى للأمة، وذلك يدلّ على أنه كان يعلم علم الكيمياء، أي صناعة الذهب، وقد حكم مرجان والياً ببغداد عدة سنوات في غيبة سيده فليس من المستبعد أن يُظن فيه غنى استطاع معه وبه أن ينشىء هذه المؤسسات الخيرية.

= المسلمين بإعزاز سلطانه وأيّد دولته بطول حياته وذلك سنة ستمائة وثلاثين (كذا). ولا شك في أن مختصر الكتابة جاء مصحفاً ومحرّفاً ومضطرباً.

(1) الجامع الذي ذكره الرحالة هو جامع القصر الذي عُرف بجامع الخليفة ثم بجامع الخلفاء ثم بجامع سوق الغزل الذي أصبح اليوم مطلاً بمنارته الفخمة على شارع الجمهورية بعناية مديرية الأوقاف العامة. وقد أنشأ هذا الجامع الخليفة المكتفي في أواخر القرن الثالث للهجرة، وبقي إلى وقعة هولاكو سنة 656هـ، فأصابته النار وأقيمت هذه المنارة الحالية في عهد الملك أباقا بن هولاكو وولاية علاء الدِّين عطا ملك الجويني على بغداد والعراق سنة 678هـ، فلم يكن المستنصر بالله منشئه وإنّما بنى فيه ما ذكره مؤلف كتاب الحوادث بقوله في حوادث سنة 635: «وفي آخر شعبان انتهى من عمارة باب جامع القصر ممّا يلي الرحبة وفتح. وفتحت المزملة التي عملت بالجامع المذكور أيضاً» (ص103).

والكتابة المنقولة في الأسفل[1] وقد وكّلتُ نسخها إلى ملّاء من الملّائين مكتوبة على المدرسة المذكورة، ولم أستطع مقابلتها بالأصل، لأني رأيت شباناً وصبياناً عند المدرسة فخشيت أن يسوؤهم صنعي[2]. ورأيت كتابة طويلة جداً باللغة التركية على خان أي «منزل قيروان» يسميه الناس «خان جغال» وقد أنشأه سنة «999هـ» أي سنة 1590م سنان باشا على عهد السلطان مراد [الثالث] وتحت الكتابة التركية سطران باللغة العربية وقد نسختهما في أسفل الصفحة[3].

---

(1) «بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. أوقف هذه المدرسة الشريفة على طلاب العلم على الإمام الأعظم محمد بن إدريس الشافعي المطلبي والإمام الأقدم نعمان بن ثابت الكوفي، هذه وقفت المدرسة دار الشفاء المولى الأمير الصاحب الأعظم ملك أعاظم الأمراء في العالم مشير السلاطين مرشد الخواقين مشيد قواعد الخيرات، باني مباني المبرّات المفتقر إلى مغفرة الملك المنان مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن السلطاني الأولجاتي تقبّل الله منه في الدراين طاعاته، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وسلم، وذلك سنة «758».

(2) كثير مما ورد في هذا المنقول عديم الصحة والأمانة، فراجع نص ما بقي من الكتابة في كتاب دليل خارطة بغداد «ص220».

(3) هما: «عمر هذا الخان وما فيه من البنيان في أيام دولة السلطان ابن السلطان: السلطان مراد خان، خلّد الله ملكه وسلطانه، وأفاض على كافة العالمين عدله وإحسانه سنة 999». قلت: كان هذا الخان داراً ملحقة بالمدرسة النظامية مجاورة لها من الشمال، وتُعرف بدار نظام الملك ثم أنشئت خاناً وبقي الخان إلى أيامنا هذه، ويعرف بخان جغال ثم اشتراه آل دانيال اليهود وغيرهم وجعلوه قبل عدة سنين أسواقاً للبزازين والجوهريين ولا يزال كذلك، ولا أعلم مصير الكتابة التركية والكتابة العربية الرائعة ذات الخط الجميل، ومديرية الآثار العامة يومئذٍ هي المسؤولة عن ذلك وأمثاله، وكذلك القول في الكتابة الإيلخانية العربية التي كانت على جدار جامع حسين باشا بالحيدرخانة.

وفي بغداد تكيات أي ربط لمختلف الطرائق الصوفية «الدراويشية» وهي القادرية والبكتاشية والمولوية والرفاعية والنقشبندية والقلندرية والشاكرجية «الشاكان». إنَّ تكية الشاكان لها فندق للفقراء الهنود الذين يقدمون هذا القطر حجاجاً، وإن مؤسس الطريقة القادرية عبد القادر، وكان شيخاً مشهوراً من صقع جيلان، وقد ولد سنة «560هـ»[1] وبلغ عمره، كما قيل، تسعين سنة، إنه مدفون ببغداد، وقد رمز إلى قبره في اللوح التخطيطي بالرقم (10) وهو تحت قبة عظيمة جداً، ولتكيته واردات مالية وقفية تقوت أكثر من ثلاثمائة إنسان، ولأكثرهم فيها حجر وغرف يسكنونها بالمجان، إن هذه التكية بعيدة عن النهر، ولها كرد[2] يُساق ماؤه إليها من دجلة في ساقية، وبينما كنت أتأمل بعجب قبة القبر والمسجد العظيمة، عظمة هي دون فخامة «قصر العيني» الذي هو إحدى التكيات على النيل قرب القاهرة، جاءني درويش فدعاني بأدب بالغ إلى دخول بيته في التكية، فحدثني هو وآخرون من الدراويش بمنقبة وكرامة للشيخ عبد القادر، شيخه العظيم، قالوا:

«كان الشيخ عبد القادر ذات يوم يعظ على منبره، والناس متوافرون في مجلس وعظه، فسكت فجأة وأخذ أحد زوجي قبقابه من إحدى رجليه، بإحدى يديه فرمى به إلى الجدار (والقبقاب

---

(1) الصحيح أنَّه ولد سنة «491هـ»، وتوفي سنة «561هـ» كما في فوات الوفيات وغيره. «المترجم».

(2) الكرد مأخوذة من الفارسية بمعنى العنق، والظاهر أن أصله جلد لعنق حيوان يستقى به على حيوان على طريقة الادلاء والاسقاء.

حذاء من خشب صورته في أ ب من اللوح الثاني من كتابي في وصف البلاد العربية) فغاب القبقاب، وبعد دقائق رمى بفرد قبقابه الآخر فغاب كالأول، ولم يعلم الحاضرون لمجلسه سبب فعله، ولا ما صار إليه قبقاب الشيخ، وبعد انتظار غير طويل علموا أن السبب هو أن تجاراً كانوا قد قصدوا بغداد من أحد الأقطار للاتجار فيها، وزيارة الشيخ عبد القادر، فقطع عليهم اللصوص العرب الطريق وسلبوهم ما معهم، وفي حالهم المحزنة أخذوا يصلون ويدعون ويستغيثون بقوة الشيخ الكبير عبد القادر، فأصاب القبقاب (الذي رماه بحضور الحاضرين من آلاف مجلسه) رأس كبير من اللصوص المذكورين فظنوا في بادىء الأمر أن فرد القبقاب هو لأحد المسافرين، فآذوه وقسوا عليه، غير أنهم لم يلبثوا أن رأوا فرد قبقاب آخر يصيب رأس لص آخر منهم، فاعتقدوا أن في الأمر فعل ولي من أولياء الله، التزم أن يحمي المسافرين، فأطلقوا المسافرين جميعاً بأموالهم، وتركوهم يتمّون سفرهم بأمان وسلام، وبعد أربعة أسابيع وصل التجار المذكورون إلى بغداد حاملين معهم فردَيْ القبقاب ثم سلموهما إلى الشيخ عبد القادر، وشكروا له غوثه إياهم، وأذاعوا بين الناس تلك الكرامة التي حدثت من أجلهم.

إن عرض دجلة في هذه المدينة بين (600) قدم و (620) قدماً، وعليها جسر ركيك من الزوارق وعدة زوارقه أربعة وثلاثون زورقاً صغاراً، مربوطاً بعضها إلى بعض بثلاث سلاسل متينة، وحينما يعتدل الجو ويقل هيجان النهر يكون الجسر عميم الفائدة

سهل العبور، فإذا خالفت الريح جرية النهر يكون العبور خطراً وإن يفض النهر فجأة ولم يحلوا سلسلة الجسر من ضفة النهر فإنها تتقطع، وليس تقطعها بغير الممكن، فقد رأيناه يحدث في كانون الثاني سنة «1766م» «1180هـ» حين هبّت ريح عاتية من الجنوب الشرقي، وفي أول هذا الشهر كان الوقت طيباً فقد نزل فيه الثلج على الجبال التي يجري ماؤها إلى نهر دجلة، فزاد ذلك في مائه زيادة عظيمة في منتصف الشهر المذكور، وتكسّرت سلاسل الجسر فجرف التيار الزوارق والتجار، وغرق في تلك الحادثة شيء من الماشية، أما الذين كانوا على الجسر فرموا بأنفسهم إلى الزوارق فسلمت بذلك أرواحهم، واستمرت زيادة النهر متعاظمة بعد ذلك أياماً حتى طفحت المياه من مجراها، وأغرقت في الأيام 19، 20، 21 من الشهر أرباض بغداد، ثم إنَّ المياه أخذت في الهبوط منذ اليوم العشرين ولم يطفح النهر بعد ذلك كثيراً، حتى شهر مارس/آذار «مارت» فإنَّ مياهه زادت مرة ثانية بالموصل ثم ببغداد بسبب الثلوج الساقطة على الجبال.

إنَّ الفرق بين أعلى مستوى لماء دجلة وأخفض مستوى له هو، على ما يقال، عشرون قدماً، ولم أستطع أن أذكر النواحي الغربية لبغداد إلا على نحو تقريبي فإنها منخفضة جداً، وكانت في أيام كوني ببغداد قد غرقت جمعاء، فهي رطبة كثيرة اللثق[1]، وفي هذه الجهة كثير من البساتين غير أنها قليلة السكان بالنسبة إلى الأقسام المسكونة

---

(1) اللثق ها هنا الماء والطين المختلطان كالوحل.

الأخرى من المدينة، وإنَّ طرفها الشمالي كان مشيّداً من غير شك على بقعة من بغداد العتيقة[1]، وكانت تمتد، بلا ريب، من هناك إلى مشهد موسى بن جعفر، ففي هذه الأرض جميعها آثار بنايات ومساجد وقبور مسلمين مشاهير ماتوا في هذه المدينة.

ويشاهد في اللوح التخطيطي في رمز 11 من اللوح XLLX تكية أي رباط للدراويش وهي عمارة عتيقة شاهقة وفوق مدخلها كتابة أصابها كثير من البلى والتلف، ولم يمكن أحداً قراءتها ونصها في أسفل هذه الصفحة[2] والذي بنى هذه التكية هو الملك قلج إرسلان ابن الملك مسعود من غير شك وكان ذلك سنة «584هـ ـ 1188م» وفي أعالي هذه البناية كما تدور آيات من القرآن مكتوبة بخط كوفي كبير الحروف على الآجر وقد أصاب أكثرها تلف بمرور الزمن المبيد، تلف لا يورث العجب فليس من المعقول أن تبقى سالمة أشياء فخارية بعد ستمائة سنة، إلا أن رغبتي في وقف القارىء على حال هذه الكتابة والزخرفة والتزايين المتداخلة فيها

---

(1) لم يكن أعلى غربي بغداد أيام نيبور وفي عصرنا جزءاً من بغداد العتيقة لأنها كانت قريبة من مقابر قريش أي الكاظمية.

(2) هو: «الملك العادل قلج أرسلان ابن الملك مسعود ابن العدل (كذا) قلج أرسلان من طائفة سلجوق وذلك في سنة أربع وثمانين وخمسمائة» «المؤلف».
قلت: هذا القول أعني نسبة بناء الرباط إلى الملك قلج أرسلان السلجوقي من أوهام المؤلف، والصحيح أن الرباط من إنشاء الخليفة العظيم الناصر لدين الله العباسي «575 ـ 622» أقامه باسم زوجة سلجوقي خاتون بنت الملك قلج إرسلان المذكور المشهورة بالأخلاطية المتوفاة سنة 584 أي السنة التي أرّخ بها البناء وقد فصلنا الكلام عليه في مجلة سومر «مج10، ص234، سنة1954» ويُعرف برباط الأخلاطية أو الخلاطية أو رباط الرملة، «المترجم».

حملتني على نقش أولها الذي هو أقل بلى من غيره[1] في اللوح XLIII قرب E، وهذه الحروف كثيرة الاتصال بالتي على اللوح X في كتابي «صفة بلاد العرب» وقد كنت نسختها باليمن، وبهذا نستدل على أن العرب بذلوا جهدهم في تزيين خطهم في القرن الذي ازدهرت فيه العلوم بينهم، ولو استمروا على هذا الطراز من الخط لزاد تعب العلماء الأوروبيين العصريين زيادة فاحشة في قراءة الكتب والكتابات العربية. والكتابة المنقوشة على غطاء إناء من الفخار الذي عُثر عليه بالقرب من طاق كسرى (وقد صورت في رحلة سمويل ايف Somuel Eves) هي من هذا النوع بالتحقيق، وقد ذكروا للسائح المذكور أن تلك الكتابة هي بالخط الفارسي القديم أي الخط الفرثي.

وبقرب الموضع المرموز إليه بالرقم (12) من اللوح التخطيطي ميل[2] عتيق صغير دُفنت تحته زبيدة زوج هارون الرشيد وهي امرأة مشهورة في تأريخ العرب وكانت وفاتها سنة «216هـ ـ 831م» وفي «1131هـ ـ 1718م» دفن حسن باشا زوجه عائشة بنت مصطفى باشا إلى جانب زبيدة[3] ووضع على قبرها رخامة كبيرة

(1) ونصه بحروف العرب المستعملة الآن «بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦﴾» «المؤلف».

(2) الميل باصطلاح أهل بغداد القبة المخروطية الشكل وتكون في الغالب لترب الأئمة والأولياء «المترجم».

(3) نسبة هذه التربة القائمة إلى اليوم في مقبرة الشيخ معروف الكرخي في غربي بغداد إلى السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد من الأوهام الشائعة بين العوام منذ عصور، =

كُتبت عليها الكتابة المذكورة في أسفل هذه الصفحة[1]، وأصلح الباشا المذكور التربة ورمّمها وبنى عدة مساكن للفقراء السائحين[2]، وبالقرب من هذه التربة في الموضع المرموز بالرقم (13) قبر رجل يسمى «بهلول دانه» وكان من ذوي القربى[3] لهارون الرشيد ومسخرة له، وله كتاب برأسه مملوء من نوادره وحكاياته يتحدث بها العلماء الفقراء في القهوات بالليل، وقد

= ولعل ما كتبه حسن باشا على قبر زوجه عائشة كان من أسباب إشاعته وتثبيته بين الناس، والصحيح أن زبيدة دُفنت بمقابر قريش أي الكاظمية الحالية، وقد ذكر عز الدين بن الأثير في تأريخه احتراق قبرها وقبر ابنها الأمين سنة «443» بسبب فتنة مذهبية.

أما التربة القائمة المذكورة آنفاً فهي تربة السيدة زمرد خاتون والدة الخليفة الناصر لدين الله وزوج الخليفة المستضيء بأمر الله، ذكر ذلك ابن الأثير وابن الدبيثي وسبط ابن الجوزي والصفدي ومؤلف الحوادث وغيرهم في تواريخهم، والظاهر أن اسم زمرد قرىء مصحفاً إلى زبيدة في كلا الاسمين زاي ودال. «المترجم».

(1) الكتابة هي «إلى روحها الفاتحة. هذا قبر المرحومة المغفورة (كذا) الموفقة للخيرات الجارية ست زبيدة بنت جعفر بن منصور الدوانيقي وزوجة هارون الرشيد من خلفاء بني العباس، توفيت سنة مائتين وست عشرة. إلى روحها الفاتحة. هذا قبر المرحومة المغفورة الصالحة العفيفة الساعية إلى الأفعال المرضية، والأعمال اللاتي تستجلب المرضاة الإلهية عائشة خانم بنت المرحوم مصطفى باشا وصاحب السلطان محمد خان عليه الرحمة والرضوان، وزوجة الدستور المكرم والوزير الأفخم والي بغداد دار السلام أبو الخيرات (كذا) حسن باشا يسّر الله له الخير كما يحب ويرضى ويشاء، وتوفيت في شهر رمضان سبعة وعشرين ليلة القدر في سنة واحد وثلاثين ومائة وألف» «المؤلف».

(2) الظاهر لنا أن الباشا رمّم المساكن والبيوت فقد كان قرب تربة زمرد خاتون مدرستها المعروفة بمدرسة الأصحاب ورباطها المعروف برباط زمرد خاتون.

(3) ليس له قرابة مع هارون الرشيد. «المترجم».

سمي في الكتابة المكتوبة على قبره بعد وفاته بزمن طويل وذلك في سنة «501هـ» بسلطان الفقراء الروحي وهي الكتابة المعلّقة تحت هذه الصفحة[1] وفي الأخبار المأثورة عنه ما يدلّ على أنه كان يصحو أحياناً ويتفصى من حالة الجذب. ولا أذكر من أخباره المأثورة إلا هذه الحكاية:

«تراهنَ في زمانه رجلان على أن يعبر أحدهما نهر دجلة سباحة ويدفع له الآخر مبلغاً من النقد، فاستطاع الرجل العبور سالماً، وكانت أُمه قد أوقدت ناراً في الضفة الأخرى من النهر ليتدفأ بها في أثناء عبوره ثم يلبس ملابسه، فأحدث فعل الأم نزاعاً بينهما، وذلك أن المغلوب في الرهان ادعى على صاحبه الإخلال بشروط المراهنة لاستعانته بأمه في التدفؤ، فترافعا إلى القاضي فلم يحكم لذلك الذي عبر النهر باستحقاق المبلغ المعين بينهما، وبلغ ذلك «بهلول دانه» فغاظه وأمضه فوضع في رأس نخلة سامقة في بستان الخليفة برمة فيها لحم وأوقد تحتها ناراً، فلما رأى الخليفة ذلك ضحك منه، فقال له «بهلول دانه»: إن كانت هذه النار لا تنضج هذا اللحم الذي في البرمة فكيف يستطيع عابر النهر وهو في النهر أن يتدفأ بالنار الموقدة على الضفة؟ فاستعلم الخليفة الأمر فأعلمه به بهلول دانه، فاستدعى الخصمين وأمر المراهن الملتزم أن يؤدي إلى مراهنه المبلغ الذي اتفقا عليه.

وبالقرب من قبر «بهلول دانه» نحو الرقم (14) من اللوح بنيان صغير متداع إلى الخراب في داخله قبر رجل اسمه «يوشع» يزوره

---

(1) هذا قبر سلطان المجذوبين والنفس المطمئنة (كذا) سنة خمسمائة وواحد.

اليهود دائماً، وفي هذه الناحية القاحلة غير المزروعة الآن مسجد صغير[1]، ذو منارة صغيرة، وفيه قبر زاهد مشهور جداً اسمه معروف الكرخي أبو طاهر. إن المنارة بُنيت سنة «612هـ ـ 1215م» كما ورد في كتابة منقوشة عليها، والمسلمون يذكرون أن معروفاً الكرخي ولد من أبوين نصرانيين ولكنه لم يقل قط «باسم الأب والابن والروح والقدس» وإنما كان يقول مكان ذلك «بسم الله الرحمن الرحيم» وقيل إنَّ والدته حبسته لذلك في سرداب مظلم أربعين يوماً، لم تعطه فيها شيئاً سوى الخبز والماء، ولما انصرمت الأربعون يوماً رأت حول ابنها نوراً عجيباً، ووجدت أيضاً كل الطعام الذي كانت تتركه له في أيام السجن، فظنت أمه أن ابنها قد مسَّه شيء من الجن، فطردته من الدار فقصد إلى الإمام موسى بن جعفر فأسلم على يديه وصار عالماً كبيراً ثم دعا أهله إلى الإسلام فأسلموا على ما وردت به الأخبار.

وبين تربة زبيدة وتربة الشيخ معروف الكرخي ميدان يجتمع فيه كبراء بغداد مرة في كل أسبوع، يترمون[2] وينتضلون[3] للتمرن على الرمي وقد كان مرتضى باشا السلحدار (أي حامل السيف) أقام هناك

---

(1) هي منارة المسجد المعروف في خطط بغداد بمسجد الجنائز قال ابن الجوزي في وفاة أبي غالب محمد بن الحسن الماوردي المحدث الوراق المتوفى سنة «525»: «ودفن على باب مسجد الجنائز بقرب قبر معروف الكرخي على الطريق». «المنتظم 10: 23». «المترجم».

(2) قال الجوهري في الصحاح: «يقال: خرج يترمى أي يرمي في الأغراض وأصول الشجر». «المترجم».

(3) وقال الجوهري أيضاً في الصحاح: «انتضل القوم وتناضلوا: رموا للسبق». «المترجم».

أسطوانتين صغيرتين عليهما كتابة بالتركية لتعيين مدى غلوة[1] السهم، الذي رمى به هناك، وبالقرب من الأسطوانتين الصغيرتين قبتان عتيقتان بعض العتاقة، فإن صحّ أن الباشا المذكور كان قد رمى بسهم من إحدى الأسطوانتين إلى الأخرى، فقد كان خارق القوة لأن المسافة بينهما ستمائة خطوة مضاعفةً أي زهاء ألفي قدم وسبعمائة قدم، ولما كان مرتضى باشا أحد بواشية[2] بغداد كان قادراً على أن يزيد في تباعد الأسطوانتين اللتين أقامهما نصباً لقوته الخارقة. وبالقرب من حلب ميدان مثل هذا مع أسطوانتين على ذلك النحو، وقد أمرت خادمي بأن يقيس المسافة التي بينهما فلم تكن، إلا ثلاثمائة وخمس وعشرين خطوة مضاعفة، وفي آت ميدان، وهو هضبة وراء «دار صناعة» استانبول كثير من أمثال هذه الأسطوانات، أما كون كبراء القاهرة لا يزالون يعالجون النضال والرمي فقد أشرنا إليه في القسم الأول من هذا الكتاب[*].

وفي شمال بغداد الغربي على ثلاثة أرباع الساعة سيراً، غربي دجلة قرية كبيرة تسمى «الكاظم» وهناك المسجد الكبير المرموز إليه بحرف H في اللوح XLII مع تربتين لإمامين من أئمة الفرس (كذا)

---

(1) هي رمية سهم أبعد ما يقدر عليه وسيذكر المؤلف أن مرتضى باشا ولي ولايته بغداد من سنة «1061هـ» إلى «1065» «المترجم».

(2) البواشية هو جمع التكسير الصحيح لباشا التركية وأما جمع الباشا على باشوات فهو غلط من وجهين أحدهما أن الألف ينبغي أن تُقلب ياء بناءً على القاعدة الصرفية في جمع الاسم المقصور، والآخر أن الباشوات جمع مؤنث وأهل الرتبة ذكور لا إناث. «المترجم».

(*) أي القسم الأول من كتاب الرحّالة. (المترجم).

هما الإمام موسى الكاظم (أي الصبور) وابن ابنه (حفيده) محمد الجواد الذي ذكرته قبل هذا. وهذا المشهد الإسلامي مدعاة للفخر فإن قبتيه الشاهقتين والمنارة كانت قد زُيِّنت ظواهرها على الطراز الفارسي بحجارة مطلية[1] وهي اليوم في تكسر مستمر، وموضع هذا المسجد ليس بمنفسح الأطراف كما هو حال مشهد علي ومشهد الحسين فإن المنازل والدور قائمة على حفافيه وحياله. وقد قتل موسى بن جعفر سنة «185هـ»[2] بأمر من الخليفة القائم يومئذٍ (كذا) لأنه تدخّل في أمور تستوجب التهمة وهي أن جماعة كبيرة من شيعة العلويين اجتمعوا في داره، فلذلك تراه الشيعة «شهيد الشهداء» ويزورونه زيارات مختلفة للتعبد لديه. وسكان قرية الكاظم هم من الشيعة على التقريب، وإذ لم يكن لأصحاب هذا المذهب وأتباعه حرية في الإعلان بمذهبهم وواجباته ببغداد نفسها يزور هذا المسجد كل يوم ناس كثير منهم من أهل بغداد، وإنَّ أكثر الشيعة الذين لا يستطيعون نقل موتاهم إلى مشهد علي لعجزهم عن الإنفاق أو غير ذلك يدفنونهم في مقبرة موسى الكاظم، وفي هذا ما يكسب المشهد أموالاً وفيرة.

إن بغداد التي أنشأها الخليفة المنصور كانت في غربي دجلة، ولا شك في أنها كانت في الموضع المذكور آنفاً أعني القسم الشمالي من الربض الحالي، بالقرب من تربة موسى الكاظم[3]، وفي شرقي

(1) يعني المؤلف بهذه الحجارة «الكاشي».

(2) الصواب سنة «183».

(3) أصاب الرحالة الحقيقة في تعيينه موضع مدينة السلام أي مدينة المنصور، وفاق =

النهر كانت قد بُنيت قلعة وأنشىء ربض إلا أنه لم يبق منها إلا قرية المعظم التي بإزاء قرية الكاظم على التقريب مع انحراف قليل، على مسافة كيلومترين من بغداد الحالية، إن هذه الناحية من ربض بغداد العتيقة بالجانب الشرقي لم يحافظ عليها حتى اليوم إلا كون أبي حنيفة دفيناً فيها. وكان أبو حنيفة رجلاً عليماً عابداً زاهداً جليل المقام عند أصحابه وأتباعه، ومع ذلك فقد ألقاه الخليفة في السجن لأنه كان أنقى ضميراً وأصحّ ديانة من أن يتقلد له القضاء أي الحكم الدنيوي بين الناس، وقد زاد مقامه رفعة وشرفاً بعد موته فلقّب بالأعظم أو الأعزم[1]. ومعناه «المكرم». وكل أهل السُّنة المعروفين بالحنفية، وأكثرهم أتراك، يقلدونه في مذهبه، ولم يقتصروا على بناء مسجد جميل على قبره ومنارة بل أقاموا حياله قلعة لها ست بدنات ولها خندق، والشيعة[2] لا يحترمون أبا حنيفة ولا يحبونه، ولم يكتفوا بإهمال قبره وقبور مؤسسي المذاهب الأخرى بل دنّسوها أيام كانت بغداد بأيدي الفرس وذلك هو الذي بعث السلطان مراداً (الرابع) على أن يعلن في سنة «1638م ـ 1048م» الحرب المشهورة على بغداد ليطرد الفرس منها، كما فعل الأتراك بهم من قبل، ومن حكايات تلك الحرب المشهورة على بغداد ليطرد الفرس منها أنَّ أحد العلماء سافر إلى

= بذلك جميع من حاول تعيينه من الباحثين الآخرين كلسترنج. «المترجم».

(1) هذا تلفظ الأتراك لكلمة «الأعظم» العربية، ومنهم مَن يقول: «الآزم» لعجزهم عن النطق بالعين والظاء. «المترجم».

(2) أراد بالشيعة الدولة الصفوية ومن لفَّ لفها، وسيوضح المؤلف ذلك. «المترجم».

استانبول وتوسل أن يؤذن له في أن يخطب بإحدى الجمع في أحد المساجد الكبيرة والسلطان حاضر، ولما كان الناس لا يعلمون مراده أذنوا له في ذلك من غير تلكؤ، وبعد أن رقي المنبر وصف الضيق الذي فيه المسلمون ببغداد، وذمّ مذاهب الرافضة أي الملاحدة الذين ملأوا مشهد الإمام الأعظم من القاذورات ثم قال: «إن حدوث ذلك واستمراره سيكون عاراً على السلطان وآل عثمان الذين يدعون أنهم حنفية، ما لم ينتقم السلطان من الفاعلين فينقذ المسلمين من نير الملاحدة».

وقبر أحمد بن حنبل أحد أئمة السُّنة الأربعة الكبار كان بين الكاظم والمعظم وقد جرفته دجلة بمياهها[1].

وعكركوف «عقرقوف» على عشرة كيلومترات في غرب بغداد وهو صرح له شبه كبير بصرح الحلة إلَّا أنه مبني باللبن لا بالآجر وعلى كل ستة أسواف من اللبن ساف من القصب بثخن أصبعين، وفي هذا البنيان بل في هذه الهضبة المشيدة ثقوب صغيرة، تنفذ على ظاهر هذه البنية نفذاً أفقياً إلا أنها اليوم مسدودة، وارتفاع الصرح سبعون قدماً، وجانبه الشمالي عمودي على التقريب، ويدلّ ذلك على أنه كان له مدخل غير أنه عال بحيث لا يُستطاع الصعود إليه إلا بسلم. وفي الجوانب الأخرى التي فيها الأرض

(1) لم يكن قبر الإمام أحمد بن حنبل بين الكاظمية والأعظمية، بل كان في شمال الكاظمية الغربي بمقبرة باب حرب، أما القبر الذي كان بين الأعظمية والكاظمية على الضفة الغربية من دجلة فكان لعبد الله بن أحمد بن حنبل. «المترجم».

أشد صلابة، بتأثير الشمس حتى لتحيلها إلى تراب قد أثّرت الرياح في هذه البنية فغيَّرتها، غير أن القصب يمسكها كثيراً لأنه هو أكثر نتوءاً وبروزاً، وذلك مما يجعله أدوم وأبقى من اللبن.

إن كثيراً من السياح قالوا: إن عقرقوف هو صرح بابل مع أن صرحها كان ولا شك بالقرب من الفرات، وعقرقوف غير بعيدة عن نهر دجلة ولا يستطاع اليوم معرفة السبب الذي بعث على إنشاء هذه البنية، فلعلها الموضع الذي اتخذه قصراً للاصطياف بعض خلفاء بغداد الأولين أو بعض ملوك الفرس المقيمين ـ كانوا ـ بالمدائن ليتنسم الهواء النقي البارد على مكان علي[1]. وعلى مقربة من عقرقوف تلال كالهضاب الصغيرة، فيها آثار منازل مثل كسر الآجر، ولعلها بقايا دور ذوات بساتين أو أطلال بليدة، أو آثار بغداد العتيقة.

---

(1) قلت: قال ياقوت الحموي: «عقرقوف: هو عقر أضيف إليه قوف فصار مركّباً مثل حضرموت وبعلبك» وهي قرية من نواحي دجيل (كذا) بينها وبين بغداد أربعة فراسخ وإلى جانبها تل عظيم من تراب (كذا) يُرى من خمسة فراسخ كأنه قلعة عظيمة لا يُدرى ما هو إلا أن ابن الفقيه ذكر أنه مقبرة الملوك الكيانيين وهم ملوك كانوا قبل آل ساسان من النبط... وقد ذكر أهل السير أن هذه القرية سُمّيت بعقرقوف بن طهمورث الملك...» (معجم البلدان)

وأصلح ابن عبد الحق البغدادي قول ياقوت فقال: عقرقوف من أعمال نهر عيسى لا نهر دجيل، وذكر حمزة الأصفهاني في تاريخه أن كيكاوس ملك الفرس أحدث بنية شاهقة في الهواء قال: «وأنا أقدرها البنية التي وراء بغداد المسماة بالعقرقوف (كذا)...»

والذي أثبتته البحوث الحديثة هو أن عقرقوف بقايا صرح معابد «دور كوريكالزو» الملك الكاشي من الملوك الكاشيين الذين حكموا أواسط العراق في الألف الثاني قبل الميلاد. «المترجم».

والمدائن المدينة الجميلة التي بقيت بعد موت محمد بضع سنين مقرّاً لملوك الفرس هي على مسافة ستة عشر كيلومتراً، في جنوب بغداد الشرقي، على نهر دجلة ولم يبق منها اليوم إلا قسم من قصر عظيم يسمى «طاق كسرى»، وهذا البنيان بالآجر والجص ولا كتابة فيه البتة، وإذ تعذر عليَّ الذهاب إليها لا أقول في وصفها شيئاً غير أن تاجراً أوروبياً ذكر لي مؤكداً قوله إنَّ بعض زائري الطاق قاس مدخله بنفسه فوجده واسعاً ومقدار اتساعه ثمان وتسعون قدماً، وارتفاعه نحو من مئة قدم وعشر أقدام[1]، وهذا يدلّ على أن القصر كان واسعاً جداً. وفي هذه المدينة المهجورة قبور جماعة من صحابة محمد أشهرهم سلمان پاك المشهور في تاريخ العرب ويسميه أصحابه في الأغلب سلمان الفارسي، قيل إنَّ والديه كانا متميزين وكان مجوسياً يعبد النار، وأراد أن يتنصَّر أي يكون نصرانياً بالشام، ولكن راهباً نصرانياً نصحه بالرحلة إلى جزيرة العرب وأخبره بأنّه سيلاقي نبياً يجدّد دين إبراهيم، ولكيلا يستغويه أحد من المتنبين أي مدّعي النبوات قال له: «إنَّ في ظهر النبي المنتظر علامة كالخاتم». ورأى سلمان العلامة في ظهر محمد، مع أنَّ محمداً كان يخفي ذلك كل الإخفاء، وعلماء المسلمين لا يزالون مختلفين في أمر هذه العلامة ثم إنَّ المسلمين ببغداد الذين كلمتهم وحادثتهم في سيرة سلمان ليسوا على وفاق في كونه توفي بالمدائن وهو والٍ

(1) يزيد عرضه على خمسة وعشرين متراً وارتفاعه على مستوى التطبيق سبعة وثلاثون متراً «المترجم».

عليها، أو قاض فيها[1] غير أنه اشتهر كونه حلاقاً للنبي محمد، ويُعَدّ اليوم إماماً لجميع الحلاقين. إنَّ حلاقي بغداد يقصدون في يوم من أيام كل سنة إلى المدائن ليزوروه زيارة دينية ويحملون إلى تربته شموعاً طوالاً ونذوراً يسلمونها إلى القيِّم على قبره[2] وينتهزون هذه الفرصة فيزورون قبر حذيفة اليماني[3]، وعبد الله بن سلام اللذين يستأهلان الاحترام لما لهما من الصلة بمحمد.

ولا تقل عدة مساجد بغداد عن عشرين مسجداً ذوات منائر، وهي غير المساجد الصغار التي ليس لها منائر، وفيها وفي أرباضها اثنان وعشرون خاناً أي منازل قيروانات، والمسكون منها ستة أو سبعة، يسكنها تجار كبار، والخانات الأخرى صغار، وفي بغداد عدة حمامات عامة، وفيها دار شفاء «مستشفى» وفي الدار حوش أي موضع محوط، وفيه أكواخ رديئة فيها أُسكن المجذومون، وذوو الأمراض الجماعية ـ يعني المعدية ـ.

---

(1) قلت: ذكر ابن عبد البر الأندلسي في الاستيعاب ص635، أن عطاء سلمان وهو أمير على المدائن خمسة آلاف درهم، وكان يتصدق بها ويعيش من كسب يده.

(2) ذكر المؤلف أنَّ «بالبصرة وبغداد وفي كل مدن السنة في الظاهر اتخذ أرباب العمل كلهم أئمة لهم فسلمان پاك الذي كان حلاقاً وصاحباً لمحمد كما جاء في التاريخ العالمي الحديث 1: 71 بالألمانية هو إمام الحلاقين ولا يزالون يجعلون لزيارة قبره بالمدائن يوماً من أيام السنة والمدائن مدينة مشهورة على ميل من بغداد (كذا) وداود إمام الحدادين لأنه مذكور في السورة الحادية والعشرين من القرآن أنه أول من أبدع الدرع والنبي شيث هو إمام الحاكة وإبراهيم إمام البنّائين والطباخين والنبي إدريس إمام الخياطين، وحبيب الذي قبره قرب بغداد إمام النجارين والصفارون إمامهم النبي جرجيس والحذاؤون إمامهم محمد بن اليمني وإمام القصابين محمد الجواد وعلى قول آخر جوانمرد وهلم جرا».

(3) الصواب: «حذيفة بن اليمان».

والأرض الخصبة الواسعة بالبصرة وبغداد لا تغلّ إلا التمر والأرز والحنطة ولا تنتج إلا حيوانات القرن أي ذوات القرون، والخيل، ولا تغلّ ولا تنتج ما يرغب فيه الغربيون، غير أن لمدينتي القطر العظيمتين هاتين مقاماً حسناً، فإنهما موصل واصل بين الهند وإيران وتركيا، فالتجارة فيهما لا تزال عظيمة، وقد هاجر من إيران إلى بغداد والبصرة جماعات من الأرمن بسبب الفتن التي فيها، وقد أنشأوا في المدينتين معامل.

والعلوم اليوم لا ترى من يقيم لها وزناً فهي بالضد مما كانت عليه في عهود الخلفاء من لقائها كل رعاية وعناية، ثم إنَّ الإعراض عنها في بغداد أكثر منه في القاهرة، واليمن، وأظن أنِّي لقيت ببغداد قليلاً من الناس يعرفون القراءة والكتابة، وفي القاهرة دكان قائم حتى اليوم يشتري منه المسلمون كتباً عتيقة وليس في بغداد شيء من هذا، فإن أراد إنسان أن يقتني جملة من الكتب أو ينتسخها أو يستنسخها وجب عليه أن يتربص موت بعض الناس من ذوي الكتب، فتُحمل كتبه في المدينة كما تُحمل الألبسة العتيقة ويُنادى عليها بمن زاد؟. وكل أوروبي يريد أن يشتري كتباً خطّية عربية كانت أو تركية أو فارسية لا يجد لذلك مجالاً في غير استانبول، ففيها نوع من دكاكين الكتب ومنها يشتري الكتب النصارى الغربيون، وفي الأخرى نصارى الشرق.

إن تجارة الأوروبيين ببغداد ليست بواسعة ولشركة الهند الإنكليزية الشرقية فيها موظف من أهل بومباي ولكنه استدعي إلى هناك في هذه الأيام أيام كوني ببغداد لأن تجارتهم ليست

برابحة، ولم يصيبوا منها إلا فائدة قليلة، مع أن ببغداد تاجراً شاباً من أهل البندقية لا يتبجح ولا يتنفج كما تفعل المؤسسات التجارية الكبيرة وقد اتّجر بغير جلبة اتجاراً واسعاً جداً، وهو يتولى ببغداد الشؤون التجارية للمستر لؤني (Leoni) التاجر الغني الإيطالي، وقد زودني لؤني كتاباً سلّمته إليه فأظهر لي كثيراً من الحفاوة والرعاية.

وفي بغداد راهبان من رهبان الكراملة لأحدهما لقبان من ألقاب الشرف، وهو المطران النائب عن البابا في بابل، وقنصل فرنسا، وهو محبوب عند المسلمين كحبّه عند النصارى، ولما كنت ببغداد كان هو في أوروبا، وله صاحب صبيح الوجه كما هو وصف أكثر الآباء في الطريقة، والكبوشيون (Capucins)[1] تركوا بغداد منذ مدة طويلة، وكل الذين وردوا هذه المدينة يعلمون شيئاً من الطب، وذلك يجعل لهم أنصاراً كباراً من الأتراك وهم أيضاً مبشرون داعون إلى النصرانية، يدعون النصارى المشرقيين ليبايعوا البابا رئيس النصرانية، ولا يدعون المسلمين إليها، لأنهم إن حاولوا ذلك قتلوا لا محالة ونالوا شرف الشهادة، ومن اليسير أن يتصور الإنسان أن رجال النصرانية الأوروبية في الطرق الأخرى لا يختلف بعضهم عن بعض في هذا الأمر، وأن النصارى المشارقة إذا شكوا الرجال الأوروبيين فإن الحكومة التركية تُلزم النصارى المنتقلين إلى المذهب الجديد أن يدفعوا إليها مبالغ كبيرة، وخصوصاً إذا كانوا أغنياء، على أن الكراملة قد اجتذبوا إلى

---

(1) الكبوشيون، أو الكبوسيون طائفة من النصارى تنتسب إلى القديس فرانسواز، ظهرت في الربع الأول من القرن السادس عشر. «المترجم».

مذهبهم أكثر النصارى المشارقة، والنساطرة أيضاً والنصارى القدماء في هذه البلاد ألزموا أن يتركوا كنيستهم لجمهور النصارى.

وفي بغداد كثير من اليهود، وليس فيها أحد من البانيان قط أعني المجوس[1]، وقد ذكرت قبيل هذا أن معرفة الطب تجعل للأوروبيين أنصاراً كباراً من الأتراك، غير أن الطبيب النطاسي هنا يصعب عليه أن يثري، فإن طبيباً اسمه دربل D'Erbel كان قد سافر إلى استانبول مع رسول للسلطان، وبعثه حب الاطلاع على الإمعان في السياحة في آسيا آملاً أن يربح بعلمه نفقات السياحة في أقل تقدير، وقدم بغداد فصار فيها «حكيم باشي» أي طبيب الباشا[2] (كذا) وطبّب كثيراً أعيان بغداد إلا أن هؤلاء لم يكونوا يعطونه إلا قليلاً من المال، وأما الباشا فكان لا يعطيه شيئاً مع كثرة شكواه الدائمة إليه فاضطر إلى البحث عن الثروة عند الإنكليز في الهند، وخرج من بغداد قاصداً إلى الحلة، إلا أن كهية الباشا أجبره على الرجوع إلى بغداد محتجاً بأن الباشا قد خرج للإيقاع بالأعراب ومن المحتمل أنه سيعود ومعه جرحى من جنوده وأنه يحتاج إلى من يأسو جراحهم، واستعان الطبيب المذكور بالإنكليز فأرسل بجميع متاعه وأشيائه إلى البصرة، واستأذن ذات يوم في السفر إلى النجف ليعالج

(1) المجوس عبدة النار والبانيان أهل نحلة دينية هندية لا صلة لها بالمجوسية ولعل الأصل «البانيان والمجوس» فأساء المترجم الفرنسي الترجمة «المترجم».

(2) الظاهر أن حكيم باشي لا صلة له بالباشا لأنه بمعنى رئيس الحكماء، والاسم مركّب من «حكيم» ويُطلق على الطبيب «باشي» أي الرأس وياء الصفة. وباء «باشي» باء محضة وباء «باش» باء فارسية. «المترجم».

وجيهاً من وجهائها، فأذن له فقصد إلى البصرة ولم يعرّج على النجف وهناك لقيته، وكان عازماً على السفر في سفينة إنكليزية إلى بومباي ثم البنغال، وقد سافر ثم رجع إلى أوروبا ولعله سيذكر لنا وصف رحلته.

وقد كنت ذكرت من قبل أن السلطان مراداً الرابع استنقذ بغداد من أيدي الفرس سنة «1638م» أي سنة «1048» من الهجرة، ومنذ ذلك الزمان إلى اليوم حكم ببغداد البواشية الآتية أسماؤهم[1]:

	تاريخ الولاية	مقدارها بالسنة
1 ـ كوجك «صغير» حسن باشا	1048	1
2 ـ درويش (الزاهد في الدُّنيا) محمد باشا	1050	2
3 ـ كوجك حسن باشا	1052	2
4 ـ دلي (مجنون) حسن باشا	1054	1
5 ـ موسى باشا	1055	1
6 ـ محمد باشا	1056	1
7 ـ مقتول (قتيل) إبراهيم باشا	1057	1
8 ـ إرسلان باشا	1058	1
9 ـ حسين باشا	1059	1
10 ـ ملك (الملك أو الجميل) أحمد باشا	1060	1

(1) ليس للشرقيين أسماء منسوبة إلى أسرهم ويُضاف إلى ذلك أن معظم البواشية هم من أبناء النصارى جلبوا صغاراً إلى تركيا. ولتشابه أسمائهم الإسلامية يُضاف لقب إلى تسميتهم يميّز بعضهم عن بعض وقد أضفت هذه الألقاب ليستعين بها القارىء على معرفة أذواق عظماء الأتراك في هذا الأمر «المؤلف».

	تاريخ الولاية	مقدارها بالسنة
11 ـ قرة «أسود» مصطفى باشا	1061	4
12 ـ مرتضى باشا	1065	3
13 ـ كرم «محسن» محمد باشا	1068	
14 ـ خاصكي محمد باشا (لقب خاصكي لأنه خدم باستانبول في الفرقة التي وكل إليها القضاء على العصابات).	1069	3
15 ـ قنبور (أحدب) مصطفى باشا	1072	2
16 ـ باموق (ناصع البياض) مصطفى باشا	1074	1
17 ـ قرة (أسود) مصطفى باشا	1075	1
18 ـ إبراهيم باشا	1076	2
19 ـ قرة مصطفى باشا	1078	4
20 ـ سلحدار (حامل سيف السلطان) حسين باشا	1082	4
21 ـ عبد الرحمن باشا	1086	1
22 ـ قبلان باشا	1087	2
23 ـ عمر باشا	1089	4
24 ـ إبراهيم باشا	1093	2
25 ـ عمر باشا	1095	2
26 ـ سرخوس (السكران) أحمد باشا	1097	2
27 ـ عمر باشا	1099	1

	تاريخ الولاية	مقدارها بالسنة
28 ـ حسن باشا «المرة الأولى»[1]	1100	2
29 ـ بزركان «التاجر» أحمد باشا	1102	1
30 ـ كتخدا أحمد باشا	1103	2
31 ـ قالايلي أحمد باشا	1105	1
32 ـ علي باشا	1106	2
33 ـ إسماعيل باشا	1108	2
34 ـ دالطابان (لم يتعود لبس الشكشور)[2] مصطفى باشا	1110	2
35 ـ يوسف باشا	1112	1
36 ـ علي باشا	1113	1
37 ـ حسن باشا (المرة الثانية)	1114	22
38 ـ أحمد باشا (المرة الأولى)	1136	11
39 ـ إسماعيل باشا	1147	1
40 ـ طوبال (الأعرج) محمد باشا	1148	1
41 ـ أحمد باشا (المرة الثانية)	1149	12
42 ـ حاجي (أي حاج مكة) أحمد باشا	1161	2
43 ـ رجب باشا	1161	2
44 ـ التجي أحمد باشا	1161	2

(1) ذكر ريجاردكوك في كتابه (Baghdad the City of Peace) أن نيبور الرحّالة خلط بين حسن باشا هذا وحسن باشا الآخر أول المماليك «ص218».

(2) هو الكراثة الكبيرة العالية من الحرير الأحمر. «المؤلف».

	تاريخ الولاية	مقدارها بالسنة
45 ـ محمد باشا ترياكي (محنق) ودامت ولاية هؤلاء جميعهم سنتين فقط	1161	1
46 ـ سليمان باشا	1163	13
47 ـ علي باشا عجمي (الفارسي)	1176	2
48 ـ عمر الباشا(1)	1178	11(2)

كانت بغداد في حال سيئة حتى سنة «1114هـ ـ 1702م» التي وليها فيها ثانية حسن باشا، ذلك لأن البواشية كانوا قبله لا يحكمون فيها إلا برهة قصيرة، وبالصورة لا بالحقيقة، فإن الينكچرية كانوا هم المسيطرين في داخل المدينة، والأعراب كانوا مسيطرين على الخارج، ولم تكن التجارة قط في محمية بهذا القطر، وكان التجار الأتراك والشاميون يسافرون بسبب ذلك إلى أصفهان ففيها يجدون تجاراً من جميع الأقطار وخصوصاً الهند، وقد لبث حسن باشا برهة طويلة في ولاية بغداد لكسر شوكة الينكچرية والعرب معاً ولتوطيد الأمن في ولايته، ولكنه لم يكن باشا إلا ببغداد وسوادها، أما ولاية شهرزور التي هي قصبة كردستان فقد كان لها باشا آخر من الصنف الأعلى، وكان للبصرة باشا كذلك، وكان لماردين «ويوضه» يرتِّبه السلطان نفسه فيها، ولما بدأت الفتن بإيران كان

(1) كان قدوم نيبور بغداد في ولاية عمر باشا آخر البواشية، في قائمة الولاة التي ذكرها المؤلف «المترجم».

(2) بين هذه القائمة وقوائم الولاة المذكورة في الكتب الأخرى اختلاف يسير في العدد والأسماء والسنين «يراجع كتاب دليل خارطة بغداد ص289 ـ 292». «المترجم».

ابتداؤها في أيام حسن باشا، وأراد الأتراك أن يستفيدوا من تلك الفرصة بأن ينتزعوا من العجم عدة أصقاع، فاستعمل الأتراك في بلوغ ذلك حسن باشا، فقام بالأمر أحسن قيام بحيث استحق أول الأمر أن تكون ماردين تابعة في الحكم لباشيته «حكومته» ثم وسّع حدودها أكثر من ذلك، وحدا العرب على ردّ البواشية الذين تبعثهم استانبول إلى البصرة أو اعتقال كل باشا جديد لها، فإن وصل هؤلاء إلى البصرة فإنهم يقاسون الأهوال من السكان فينفقون نفقات عظيمة على حروب يشنّون غاراتها على الأعراب حتى يزهدوا في كل باشية، وفي تلك الأيام كان حسن باشا يخطب هذا المنصب على ابنه أحمد، فأدركه بنصب قليل، وذلك أنه التزم أن يدفع إلى الدولة في كل سنة مبلغاً معيناً من المال، وكان السلطان في السنوات الأخيرة ينفق على ولاية البصرة أكثر مما يرتفع إليه منها من الأموال. وقد مات حسن باشا في مرضة مرضها في كرمانشاه، في الحرب التي خاضها في همذان. مات بعد أن حكم ببغداد اثنتين وعشرين سنة قمريات متواليات، وكان أحمد بن حسن باشا قد صحب أباه في الحرب المذكورة، وهو والٍ على البصرة، فاندفع بجيشه اندفاعاً بارعاً نحو همذان فاستولى عليها في زمن قصير، ونال بذلك شهرة بالغة لم ينلها باشا من بواشية بغداد، وحصل زيادة على ذلك ولاية البصرة وماردين لكي يضطرم عزماً، ويزداد قوة في الحرب التركية المشبوبة على العجم بإيران، وكان نادر شاه في أيام ولايته حاصر بغداد في سنة 1732 ثمانية أشهر من غير أن يبلغ منها غرضاً، وقد خفّف أحمد باشا من غلواء هذا

العدو الهائل للأتراك وذلك بأن أعاد إليه المدافع التي استحوذ عليها في همذان، وقد حكم أحمد باشا ببغداد أول مرة إحدى عشرة سنة قمرية بعد أبيه، وكان وزير السلطان (وقد حضر فتح همذان فحسده) قد حمل السلطان على أن يولي والياً آخر مكان أحمد باشا ظاناً أن أحمد باشا لن يترك منصب الولاية عن طيب نفس فيتهمه بالعصيان على السلطان فيأمر بقطع رأسه وحمله إليها، ولكن أحمد باشا أذعن لأمر السلطان، وفي خلال سنتين تتابع عدة بواشية على بغداد فقاسوا الأهوال في ولايتها من الأهلين والأعراب معاً، فانتشر الاضطراب بادىء ذي بدء في هذه الولاية، ولما كان الأتراك في استانبول يخشون قوة نادر شاه المتزايدة على مرور الأيام رأوا أنفسهم مضطرين إلى أن يعيدوا أحمد باشا إلى ولاية بغداد ما داموا يريدون المحافظة على هذا القطر، فعظم أمر أحمد باشا أكثر مما كان قبلاً، ووسع حدود ولايته، ولم يرد أن يفتح فتوحاً في بلاد العجم «إيران» فيكون مناهضاً عدواً جباراً هو نادر شاه ولكنه صار قائد الجيش التركي الذاهب للقاء ذلك الجار الهائل، وفي هذه النهزة لم يقتصر على انتزاع كردستان من الدولة بل تجاوزها إلى أصقاع أخرى بحيث لم يبق للدولة إلا كركوك مع قليل من القرى ولم يبعث السلطان بعد ذلك إليها إلا باشا من الدرجة الثانية ذات الذيلين[1]، ويقال: إنَّ نادر شاه قال إنَّ أحمد

(1) الباشية عند الأتراك ثلاث مرتبات ودرجات فالدرجة الأولى يتميز باشاها بثلاثة طوغات، والطوغ وفي لغة «التوغ» معناه شعر ذيل الحصان، فقد كان من رسوم ملوك الأتراك أن يرفعوا الذيل أو الذيلين أو الذيول على عمود العلم مصبوغة =

باشا أكثر دهاء منها ومن السلطان العثماني، فإنه لما أريدت تنحيته ثانية عن بغداد حرّض العجم على محاصرة البصرة[1]، فمكّنه ذلك في منصبه وأكسبه مالاً ومدافع، وأشياء أخرى من السلطان، بالقدر الذي طلبه منه، ليستطيع الدفاع عن هذا القطر. وقيل إنَّ السلطان أرسل حاجب الحجاب (القابجي باشي) مراراً إلى بغداد ليأتيه برأس أحمد باشا، ولكن أحمد باشا كان له أصدقاء في طريق استانبول يذبحون (القابجية) أو يسلبونهم ما معهم قبل أن يبلغوا حدود الولاية فضلاً عن وجود (قبو كهيه سي) أي وكيل له في استانبول كما للبواشية الآخرين، على أن بعض القابجية أتى من التستر والدهاء في سفره إلى بغداد ما لم يشعر معه أحمد باشا بحركته إلا قبيل ساعات من وصوله، ولما علم أحمد باشا بذلك ركب جواده وخرج ومعه موظفوه الكبار ومماليكه متظاهراً بأنه يريد أن يلعب (رمي الجريد)[2] فإن هذه اللعبة العسكرية عند الأتراك كانت معروفة من قبل في أوروبا، وكيفيتها هي أن كل سائس فرس يعدو ومعه إلى جنبه قراب مملوء جريداً أو عصياً طولها أربع أقدام، فإذا وصل المتصاولون الموضع المعين لهذه اللعبة جلس الشيوخ تحت شجرة أو قرب عين ليشربوا القهوة أو يدخنوا، على

= بلون أحمر مربوطة بحلقة ذهب. والدرجة الثانية بطوغين والثالثة بواحد. «المترجم».

(1) حكى أوتر وقد كان مكث بالبصرة برهة في أيام أحمد باشا، كثيراً من الحكايات عن ثورة الأعراب ووقائع نادر شاه التي خاضها في محاربة الأتراك، وهو يؤكد الحوادث المذكورة أعلاه. «المؤلف».

(2) الجريد في العربية: الذي يجرد عنه الخوص من أغصان النخلة، والواحدة جريدة.

حين يتسابق الشبان مثنى مثنى متبارزين ببدار وإحضار، وكل منهم يهتبل الفرصة التي تمكّنه من طعن خصمه. وقد لقي أحمد باشا القابجي باشي في طرف بغداد فاحترمه وافر الاحترام لأنه من أرباب دولة السلطان. ولما كانت لعبة «الجريد» عند عظماء الأتراك من أحب اللهو إليهم دعا أحمد باشا ضيفه أن يصيب نصيباً من ذلك اللهو، ولما بلغوا الموضع المعين لذلك طلب أحمد باشا إلى القابجي باشي أن يلاعبه ويصاوله ويجادله، فلم يستطع القابجي باشي أن يرفض الدعوة الشريفة، ودعي في الحال سائس من السواس فناول القابجي حزمة من الجريد، وأخذ أحمد باشا جريدة من قراب الموكل بحمل الجريد، وطارد الرجل (الذي جاء لحمل رأسه إلى السلطان) فأنفذه بالطعنة الأولى، وعلى أثر ذلك قفز من ظهر جواده وأكبّ على القابجي باشي وقبّله وهو يجود بنفسه واعتذر إليه من الخطأ الذي ارتكبه في طعنه إياه، فإن حامل الجريد أعطاه من قراب آخر مطرداً[1] فيه زجّ، فالجريد الذي له ليس فيه حديد، وأعرب له عن أساه واستيائه الشديد، لأنه لا يجوز له أن يضمر سوءاً وغدراً لرجل دخل ميدان المصاولة على غير توقع ولا انتظار، غير أن رسول السلطان فاضت روحه، وبعث أحمد باشا إلى استانبول بالرسائل التي كانت معه مقدماً إلى السلطان أبلغ اعتذار من ملابسته خطأ الأقدار.

توفي أحمد باشا ولم يخلف من الأولاد إلا ابنتين كلتاهما من زوج واحدة، وقد وعد أن يزوّج الكبرى وهي (عادلة) أحد رجاله في

---

(1) المطرد على وزن المنبر: الرمح القصير «المترجم».

حادثة نادرة الوقوع جداً، وذلك أنه كان من المولعين كثيراً بصيد الأسود، وقد قتل بيديه جملة منها، وكان إذا جاءه من يريد أن يعينه على صيد الحيوان تنكّر له، على عادته، لأن الراغب في معونته يحسبه عاجزاً عن قتال الحيوان. وبينما كان ذات يوم في بعض الغابات لاصطياد الأسود خرج عليه أسد عظيم الجرم، وكان مع أحمد باشا موظفوه ومماليكه، وهم ينيفون على أربعين رجلاً، وكان من رأيهم جميعاً أن لا ينغصوا عليه سروره برؤيته نفسه قادراً على مطاردة ذلك الحيوان الكاسر، ولذلك تأخروا عنه، غير واحد منهم اسمه سليمان، وهو كرجي الأصل وكان أحمد باشا اشتراه وربّاه، فهذا كان يتبع سيده ويراعيه على بعد، ولما رأى أحمد باشا الأسد هجم عليه إلا أنه لسوء حظه انكسر سنان الرمح في أثناء الطعن فرأى نفسه مضطراً إلى الهرب من الأسد، فخفّ إليه مملوكه سليمان وأنفذ الأسد بطعنة ونجا سيده من الموت ولولا ذلك لكان الأسد مزّق جسده لا محاله بدقائق قليلة، فهنالك وعد أحمد باشا سليمان أن يزوّجه ابنته الكبرى (عادلة) مكافأة له بما فعله من معونته. وقد أنفذ وعده وزوّجه عادلة.

لم يكن لسليمان في حكم سيده أحمد باشا إلا وظيفة وسط ثم صار خازن بيت المال له وأخذ يترقى من رتبة إلى رتبة حتى جاوز جميع الوظائف السامية إلى وظيفة الكهية وهي بالنسبة إلى والي بغداد كوزارة السلطان بالنسبة إلى استانبول، وبعد أن حكم أحمد باشا اثنتين وعشرين سنة قمرية، توفي وهو يحارب الأكراد الذين امتنعوا من دفع الخراج المقرّر، وكان له ولأبيه على كل حكام

الأصقاع والمدن بعض الفضل في بلوغهم مكانتهم. ورعيته الآخرون كانوا على عهده وادعين مطمئنين سعداء وكانوا أيضاً يميلون إلى الكهية سليمان لحبهم حماه أي أبا زوجه أحمد باشا وجدّها حسن باشا مضافاً إلى عظيم قدرهم لخصائصه، ولكن أولي الأمر في استانبول (وقد أرادوا منذ زمن بعيد أن يهلكوا أحمد باشا) لم يكونوا يودون أن يتركوا حكم العراق العظيم لهذه الأسرة أكثر مما جرى، فبعث السلطان العثماني باشا جديداً إلى بغداد، ولكي يرضي الرعية جعل سليمان باشا والياً على البصرة إلا أن البواشية الذين عقبوا سليمان باشا كابدوا في الحكم مصاعب جمة أربكتهم، فبعضهم هجم عليه الأعراب في دخوله العراق وهزموه، وتلقّاه أهل بغداد تلقياً ساخراً، وآخر قتل في الطريق، ثم إنَّ الشكاوى ظلت ترد استانبول تترى، يذكرون فيها أن هؤلاء الولاة عاجزون عن القيام بواجب هذا المنصب الكبير، وفذلكة القول إنَّ السلطان بعث إلى بغداد في مدة سنتين أربعة بواشية لم يرض الناس أحدٌ منهم، وآل الأمر إلى أن سار سليمان باشا من البصرة في عسكره الوطنيين وهم المعروفون بإيج أغاسي نحو بغداد[1] ولما بلغ بلدة السماوة جاءه رسول من والي بغداد يأمره بالرجوع من حيث أتى ولكن سليمان باشا استمر على سيره حتى وصل إلى الديوانية، وكان فيها حاكم اسمه (علي آغا) وكان من الذين تمرّدوا على البواشية قبل ذلك، وكان هواه مع سليمان باشا، وبعد

---

(1) سيشرح المؤلف «ايج أغاسي» في آخر هذا الفصل «المترجم».

أن قبض مالاً منه تظاهر بأنه عاجز عن صدّه وهرب في عسكره إلى بغداد ناقلاً للباشا أنباء زحف سليمان باشا، فحشد الباشا بجد واجتهاد جيشاً عدته (أربعة عشر ألف رجل) وقادهم بنفسه إلى لقاء عدوه فلقيه قرب الحلة، وكان علي آغا في أثناء كونه القصير الأمد ببغداد قد استمال قواد الفرق إلى سليمان باشا وجعلهم من حزبه وفي حيزه.

واستمر عسكر سليمان باشا في التقدم للقاء باشا بغداد من غير تلكؤ ولا تلبث، فانهزم قواد باشا بغداد على حسب ما بُيِّتَ من الأمر بين سليمان باشا وعلي آغا، وهرب باشا بغداد واستسلمت عساكره كلها للغالب، ولما عاد باشا بغداد إلى سورها وجد أبوابه مغلقة دونه، وجاء سليمان باشا إلى بغداد فاستقبله أهلها بسرور عام، وتألّف ديوان ببغداد اجتمع فيه أعيانها ووجهاؤها، وكتبوا محضراً ضمنوه الشكوى من كل الولاة الذين جاؤوا من استانبول وأمضوه بإمضاءاتهم وقرّروا إيصاله إلى السلطان وذكروا فيه بتألم ورثاء الحالة السيئة التي صارت إليها هذه الباشية منذ وفاة أحمد باشا، وقالوا فيه: (لن يستطيع أحد أن يصلحها سوى سليمان باشا)، وذكروا من هذا الضرب وأمثاله كثيراً، وخلاصة القول إنَّ سليمان استضاف بذلك جميع الأصقاع والمقاطعات التي اجتازها حسن باشا وأحمد باشا إلى ولايتهما فضلاً عن ثبوته في منصب باشية بغداد.

حكم سليمان باشا في العراق ثلاث عشرة سنة قمرية حكماً مرضياً، ولقد نظم الأعراب المراثي عند موته، ولا تزال المراثي

تُنشد في القهوات والطرق ببغداد، ولم يعرف أن الأعراب ضبطوا وضغطوا في هذه البلاد كما جرى عليهم في سني حكمه وحكم حميه أحمد باشا ولم تكن سفينة تستطيع أن تصل إلى الحلة ولا إلى البصرة، قبل حكمهما، من غير دليل يستوفي جعلاً عظيماً على دلالته وخفارته، فقد كان الرجل في أيامه يسافر وحده إلى جميع أصقاع الباشية غير خاش أن يسلب منه شيء سواءً أكان ذلك السفر في الفرات أم في دجلة، أم في البر، وعلى حين كانت التجارة مخافة السبل بإيران إذ ذاك أصبحت تجارة الهند التي كانت تأتي في طريق كابرون (Cabron) وأصفهان تنتقل شيئاً فشيئاً إلى البصرة وبغداد، وذلك هو الذي نشَّط كثيراً هاتين المدينتين.

كان سليمان باشا لا يتجاوز عن ذنب يرتكبه الأعراب، وقد اعتاد أن يفاجئهم أيام عصيانهم بحيث لا يستطيعون الانسياح إلى الصحراء والإمعان فيها، وكان البدو يسمونه ولا يزالون يسمونه (أبو الليل) ومعنى ذلك (والد الليل)[1] لأنه تعود أن يخرج إليهم بالليل مدلجاً بلا تلبث ولا تعريس[2] حتى يدركهم، على أن أهل بغداد يسمونه (سليمان الأسد)، وقيل لي (وأكّد لي القائل قوله) أنه سار مرة مجدّاً مغذّاً فبلغ دمشق في تسعة أيام، ونهب من

(1) هذه الترجمة حرفية، والصحيح أن «أبو الليل» باللغة العامية العراقية بمعنى «صاحب الليل وذي الليل الذي يعمل بالليل» كما يقولون للّبان «أبو اللبن» وللجبان «أبو الجبن» وللتمار «أبو التمر» وهلم جرا. «المترجم».

(2) يقال: عرَّس القوم تعريساً أي نزلوا في السفر من آخر الليل يقفون فيه وقفة للاستراحة ثم ينيخون وينامون نومة خفيفة ثم يثورون مع انفجار الصبح سائرين «لسان العرب». «المترجم».

هناك، والسبب في ذلك أن أعراباً من التابعين لها سلبوا ما كانت تحمله قافلة كبيرة لأهل بغداد، وكان سليمان باشا يعاقب البواشية المجاورين له عند عجزهم عن ضبط الأعراب الذين يطوفون في بلادهم، إن ذلك حيّر أحد الأوروبيين لعلمه أن حكومة دمشق تابعة للسلطان العثماني كحكومة بغداد، ولكن البواشية في تركيا لا يندر أن تكون مناوشات بينهم وبعض الاختلاف.

وكان سليمان باشا يعدّ من الانتقاص لمجده التحدث بمزية رجل آخر، فهو بالضد من أحمد باشا فإنه كان يقيم وزناً كبيراً لذوي الكفايات المشهورة وإن كانوا أعداءه، والعدو الذي يغلبه سليمان باشا بعد الدفاع الشديد يناله بالقسوة لما أظهر من الشهامة، وأشدّ ما عيب على سليمان باشا هو تحكم زوجته عادلة خاتون به وانقياده لها كل الانقياد، وهي ابنة باشا من الطبقة ذات الثلاثة ذيول الأولى فلم يشذّ عن ذهنها أن زوجها سليمان كان مملوكاً لأبيها في أيام شبابه، وقد كانت متهورة سليطة ذات أطماع فإنها عيّنت أياماً لمن يريد من الرعية أن يرفع إليها شيئاً من الأمور والمظالم، وإذ كانت سيدة مسلمة لا تستطيع أن تحادث الرجال كانوا يجلسون في بهو قصرها، وكان لها مملوك يحمل عرائضهم إليها ويعود إليهم بالحكم الفاصل، ومن ثم كانت مطّلعة على كل الأمور، وكانت تقدر أن تنقض أوامر لم يصدرها زوجها إلا بعد مشاورة ناضجة، وكانت تعلم أيضاً كيف تحصل على دخل جديد، وينبغي أن نعلم في هذا الصدد أنه كان الآغا من الأغوات حينما يعيّن في وظيفة أو يثبت فيها يرسل إليه الباشا مع توقيع التعيين

ببليسجة[1] أي خلعة من الفراء، والشيخ الذي يرأس قبيلة من قبائل العرب يبعث إليه في مثل ذلك الأمر عباءة أي كساءً عربياً فضفاضاً بلا ردنين، وأهدت زوجة سليمان المذكورة أولاً إلى الأغوات الكبار الذين خدموا في أيام أبيها وجدها عصابة من الحرير يعصبون بها رؤوسهم وبها يتميزون في الأعياد عن موظفي الباشا الآخرين، ولكن حدث أن أغوات غير أولئك سعوا في نيل علامة الشرف هذه على سبيل الاستعطاء والاستهداء ومن ثم صار بالتدريج من العادة في هذه الباشية أن كل من رتّب في منصب كبير يتسلم مع الفروة عصابة من الحرير من زوج الباشا، وعليه أن يدفع في مقابل ذلك مبلغاً عظيماً من المال ولو كانت الشارة المذكورة قليلة الجدوى.

وكانت عادلة خاتون في خلاف مع أختها التي هي أصغر منها، وكانت الصغيرة قد زوجت أحمد آغا وهو أحد الحكام ومن عائلة وجيهة، ومن المقدّرين أحسن القدر بين الناس، وخصوصاً عند سليمان باشا، وقيل إنَّ الوزير عرض عليه أن يوليه منصب سلفه[2] سليمان باشا على شريطة أن يزعجه ويخرجه من البلاد فأبى أحمد آغا ذلك العرض باحتقار واستهان به، ولما علمت عادلة خاتون بذلك أنبأت به زوجها سليمان باشا، وخيلت إليه أنَّ أحمد آغا هو

---

(1) والبليسجة Pelisje كلمة فرنسية أصلها Pelisse أي فروة بالعربية وكورك بالتركية، ويراد بها الخلعة مطلقاً. «المترجم».

(2) السلّف على وزن الشبر هو زوج أحد الأختين بالنسبة إلى زوج الأخت الأخرى، وهو مأخوذ من سالفه في الأمر مسالفة وسلافاً والعامة تسمية العديل.

الذي أراد أن يكون باشا، فكان ذلك سبباً في موت أحمد آغا قتلاً، وهو الرجل الكريم، ومن هنا اشتدت العداوة بين الأختين وزادت على ما كانت عليه من قبل حتى حمل سليمان باشا أخت زوجته على التزوج ثانية فتزوجت الكهية عمر.

كان سليمان باشا كحميه أحمد باشا كثير النفور من حاجب الحجاب أي القابجي باشي من موظفي السلطان، ولما كان أرباب الدولة في استانبول يعلمون أنَّ السلطان لا يستطيع أن يبسط حكمه على بغداد ما دامت تلك العائلة تحكم فيها، حاولوا كثيراً أن يغتالوا سليمان ويقتلوه، وقد ذكر بالتأكيد أنَّ سليمان باشا أطلق مجهولٌ عليه الرصاص أحياناً، ولم يشك أحد في أنَّ الوزير هو الذي حرَّض على ذلك، وفي حوادث كهذه لا يكثر الطلب والبحث في هذه البلاد، إلا أنَّه إذا عرف الفاعل لمثل هذا العدوان فإنه يقتل. ولقد ذكرتُ آنفاً أنَّ أحمد باشا فقد حياته في حرب خاضها في قتاله بواشية كردستان ولكن موته كان طبيعياً ولم يقتل في المعركة، ومع ذلك لم تهدأ سورة عادلة خاتون محتجة بأنَّ زوجها سليمان باشا لم يثأر بأبيها من الرجل الذي كان السبب الأقوى في تلك الحرب، ولذلك خرج سليمان باشا مرات كثيرة إلى كردستان، غير أنَّه لم يستطع أن يدرك ذلك العدو، فإنَّه كان يهرب دائماً ويعتصم بشعاب الجبال، وأخيراً أعطاه سليمان باشا المواثيق القوية والأيمان الغليظة بالأمان، وبعثت إليه عادلة خاتون بعصابة حرير نفيسة، وهي أدلّ علامة على عطفها وعطف الباشا، يمكنه الحصول عليها، فاطمأن الكردي وجاء إلى بغداد وما كاد

يصل إليها حتى قبض عليه سليمان باشا وألقاه في السجن ثم أمر بخنقه في الغد[1].

إنَّ هذه السيدة التركية الكثيرة الطموح لم تبح لزوجها أن يتزوج غيرها من النساء ولا أن يملك من الجواري، ولم يرزق منها ولداً، ومات ولم يترك وارثاً غير أرملته وهي لا تزال تعيش ببغداد ولها ثروة عظيمة وقد أمرت ببناء مسجد وخان فنسب إليها في التسمية وظهر أثرها في أمور أخرى وفي مدن أخرى ولها مآثر خيرية شبيهة بهذه.

ولما مات سليمان باشا كان علي آغا[2] المذكور آنفاً متسلم البصرة. ولاستطاعته النهوض بكل ما كلفه من شؤون تلك الولاية المهمة كائناً ما كان واجتذابه قلوب الرعية واستمالتهم إلى نفسه حدثته نفسه أولاً أن يكون باشا بغداد ويخلع برد الآغوية، فأرسل من ديوان الولاية ببغداد إلى استانبول بوصايا حسنة في حقه مع هدايا جليلة، فنال بذلك فرمان الولاية من السلطان وهو كتاب توليته منه، غير أنَّه لم تدم ولايته على بغداد إلا اثنين وعشرين شهراً، وقيل إنَّ عادلة خاتون سعت كثيراً في تشعيث أمره أو ذهاب سعادته وهو لم يدخل بغداد مملوكاً كغيره من المماليك، فأبواه مسلمان حرّان فقيران من بلاد العجم، واشتغل في شبيبته حافداً لقهرمان أحمد باشا، وسار في خدمته سيرة حسنة حتى جعله أحمد

(1) حكى سموئيل إيف بتفصيل وتطويل، تاريخ هذا الكردي في سياحاته في الهند وإيران «ج2، ص99». «المؤلف».

(2) علي آغا هو الذي لقيه سموئيل ايف في رحلته بين البصرة والحلة، وكان كثير الرعاية للإنكليز «ج2، ص55».

باشا من مشمولي حمايته ورعايته وعنايته، وهيّأ له تعلم كل ما ينبغي تعلمه لرجل تركي متميز من ذوي الأقدار، وأعلى مقامه شيئاً فشيئاً، وكانت عادلة خاتون عرفت علي باشا أيام شبيبته وتعلم أنَّ أباها هو السبب في بلوغه الرتبة والسعادة، فكان أقل أملها أن يكون لها معه حظ حسن من الحكم بعد موت زوجها سليمان باشا، ولكنها كانت مخطئة في ذلك الحسبان فإن علي باشا أراد أن يحكم مستقلاً حكماً صارماً، وكان الجنود الينكچرية في بغداد أيامئذٍ على قوتهم العظيمة وخصوصاً في المدة، التي بين موت سليمان باشا وتأهب علي آغا للحكم، وكانوا نعَّارين[1] في الفتن ببغداد كما كانوا في البصرة، فأراد علي باشا (بعد أن أُسندت إليه الباشية)، أن يبدّد شمل هذا الجيش، ولما كان فريق من أهل بغداد تجري عليهم تسمية «الينكچرية» أيضاً ثار هؤلاء أولاً وانضمّ إليهم جنود السلطان المذكورون فاضطروا علي باشا إلى ترك بغداد، ثم استنصر القبائل العربية النافذة الكلمة وأعيان بغداد ممن كانوا جميعهم أصحاباً له، فأعادوه إلى بغداد بعد غيبة قصيرة عنها، فقطع رقاب فريق من الينكچرية ولم يلبث كثيراً بعد ذلك حتى ثار عليه صغار بواشية كردستان، وقبيلة الخزاعل المذكورة سابقاً[2]، فأعاد علي باشا الكرد إلى الطاعة إلاَّ أنَّ قبيلة الخزاعل هزمت جيشه شر هزمة حتى

---

(1) النعّار على وزن العطار هنا: الشديد السعي في الفتن «المترجم».

(2) قال: «وفي شرقي الفرات قبيلتان من قبائل العرب شيعيتان هما بنو حاكم والخزاعل، إلاَّ أنَّ الأولى قبيلة صغيرة لا يخشاها الأتراك وقبيلة الخزاعل، وشيخها يقيم في لملوم وتكون أحياناً عاصية وتشغل بال البواشية» ثم ذكر دحرها لجيش علي باشا «المترجم».

لقد نظم الشعراء العرب نشيداً في ظفر المعدان وأصبح النشيد عاماً ينشد حتى في بغداد.

أما عادلة خاتون فقد فني صبرها على ترك علي باشا لاستشارتها في الحكم أو إعراضه عن آرائها ووصاياها، وخشيت أن يخرجها من بغداد فأخذت تضرب أخماساً بأسداس[1] وسعت في هلاكه، وكان علي باشا، على ما قيل، شيعياً يتستر، أي على مذهب العجم في السر، دل على ذلك قساوته الفظيعة في معاملته الأكراد والينكچرية وهم من أهل السُّنة ثم إنَّه ترك جنود السلطان فرائس لقبيلة الخزاعل وهم من الشيعة، ففكر أهل السُّنة في الحال في الأمر وتبادرت إلى أذهانهم أمور أخرى ظهر فيها علي باشا متحيِّزاً إلى الشيعة متحاملاً على السُّنة، فتحققوا أنَّه كان في الباطن ملحداً وخشوا أن يهتبل فرصة يستطيع فيها أن يلحق هذه الباشية العظيمة بممالك سلطان العجم، وكان ببغداد خمسة من الزعماء، اشتروا في صغرهم مماليك، وكان البواشية السابقون قد ملكوهم ورتبوهم وهذّبوهم ودرّبوهم وعلموهم الإسلام. وكان هؤلاء يتناوبون القيام بالأعمال الحكومية السامية في بغداد تارة أو في الولايات الأخرى تارة أخرى، وكانوا يعيشون كالإخوة ويعرفون علي باشا حق المعرفة، وهم الذين ساعدوه على أن يكون باشا، فلم يعبؤوا بتلك الأقوال، غير أنَّهم كانوا يحترمون عادلة خاتون ويجلّونها لكونها حفيدة باشا وابنة باشا وزوجة باشا، وكانوا من

(1) يقال: ضرب فلان أخماساً بأسداس أي حاول المكر والخديعة «المترجم».

المحسنين إليها العاطفين عليها، ولكنَّهم لم يرضوا سيرتها الجبروتية في أكثر الأحيان. واتفق أن أحد الزعماء الخمسة مات فجأة فحاولت عادلة خاتون أن تجعل الآخرين يوقنون بأن علي باشا اغتاله فقتله بالسم، وكانت تعلم كيف تجعل الأمر محتملاً التصديق به، وادعت أيضاً أن لها علماً بأن علي باشا طلب إلى استانبول أن يؤذن له في قتلهم جميعاً. فاعتقد هؤلاء وجوب السعي في خلاص أنفسهم، أنهم كانوا من قبل أصدق الأعوان وأكبرهم للباشا، وقد سعوا مع الساعين في إعادته إلى منصبه بعدما طرده الينكچرية من بغداد، فأصبحوا اليوم زعماء ثورة على الباشا، وهي ثورة لم يعلم من أمرها شيئاً إلا بعد أن رفعت المدينة راية العصيان عليه، فرأى علي باشا نفسه مخذولاً ولم يجد وسيلة للنجاة غير التنكر بملابس النساء والهرب، إلا أنه عثر عليه بعد أيام وعليه اللباس النسوي، في أثناء خروجه من بغداد ليستجيش الأعراب ويستنصرهم على خصومه، فجيء به إلى السراي وقُتل هناك.

وبعد قتل علي باشا اجتمع مجلس كبراء بغداد لاختيار أحد أولئك الأربعة الزعماء ولتنصيبه باشا أي والياً، فرفض اثنان منهم ذلك التشريف. لأنهم حسبوا أن عمر الكهية يومئذٍ أحقّ به لتزوجه بنت أحمد باشا الصغرى، بعد موت زوجها الأول، وكان متسلم البصرة يومئذٍ جندياً بارعاً غير كامل الأدب اسمه محمود ولم يحضر مجلس الكبراء على حين كان عمر حاضراً فيه، ولم يكن عمر ذا كفاية فائقة فضلاً عن أن يكون حاكماً بارعاً، ولكنه بفضل زوجته وهي سيدة رقيقة النفس محبّبة إلى الناس، كان القدر قد

امتحنها وأشقاها برؤيتها زوجها الأول يُقتل ظلماً وعدواناً، ومع عنجهية أختها، أصفق المنتدون على اختياره لباشية بغداد وكتبوا محضراً مطولاً إلى السلطان يذكرون فيه أن علي باشا كان ملحداً وأنه أراد أن يسلم بغداد إلى العجم، فذلك وغيره من الأسباب بعث الشعب على أن يثوروا عليه فيقتلوه، وقد فعلوا. وذكروا في المحضر أيضاً أن العرب والأكراد ثاروا أيضاً فلم يجدوا أحداً مليئاً بتهذيب البلاد وإطفاء نار الثورة سوى عمر الكهية، فطلبوا إليه أن يلي الولاية ويباشر الحكم آملين أن يقرّه السلطان فيه وكتبوا أشباه ذلك، وفي صيف سنة «1764م ـ 1178هـ» وصل إلى بغداد الفرمان السلطاني بتولية عمر باشا على بغداد ورفعه إلى رتبة باشا.

وفي السنة التالية لتلك خاض عمر باشا معركة قاتل فيها قبيلة الخزاعل وأحرق موضع (لملوم) وفيه مخيم الشيخ ومضربه، وضرب رقاب ستة أو سبعة من شيوخهم المتميزين، وبعث برؤوسهم إلى استانبول مع مطالعة يذكر فيها أنه أعاد الأعراب إلى الطاعة، وأنهم سيخلدون إلى السكينة في مستقبل زمانهم. فأرسل إليه وزير السلطان برسالة يشكر له فيها ذلك الظفر. ثم إنَّ شيخ القبيلة المذكورة عاد وكان قد هرب عند وصول عمر باشا إلى مقرّه، فأجبر الشيخ الذي ولي بعده على أن يتخلى له عن رئاسته، وأجبر عمر باشا «وكان لا يود مباشرة حرب عوان» على أن يقرّه في رئاسته فأقرّه.

وقد كنت ذكرت أن قبيلة كعب شغلت بال الباشا، وفي الغالب لا تمر سنوات من دون أن يقاتل فيها باشا بغداد الأعراب أو

الأكراد، وعرف البواشية، كيف ينظمون الحساب، فقد ذكر لي بعضهم مؤكداً أن السلطان لم يصل إليه شيء من واردات هذه الولاية أو وصل إليه شيء قليل في السنوات الأخيرة.

وزوجة عمر باشا لم تأذن له في أن يتزوج عليها، ولا أن يملك جارية مع أنها لم تلد له ولداً إذن لا يخشى الأتراك شيئاً من عائلة أحمد باشا بعد موت عمر باشا إلا أن الناس اعتادوا منذ سنين كثيرة أن يختاروا هم أنفسهم باشا بغداد، وعلى هذا يكون من المحتمل أن يرى السلطان نفسه مجبراً على تثبيت الباشا الذي يختارونه، لكيلا تدمر هذه الولاية الجميلة تدميراً مبيراً ولا تقع في أيدي العجم[1] إن شكل حكومة بغداد كشكل حكومة استانبول لا

---

(1) قال: «كما فعل كريم خان، فقد حاصر البصرة سنة «1775م ـ 1189هـ» بجيوشه وظن أرباب الدولة باستنبول أن عمر باشا هو الذي مهّد له ذلك. ومن الناس من كان يتصور أن العجم لم يكن لهم عزم على حرب السلطان ولكنهم أرادوا بهذه الوسيلة أن يحطوا من قوة باشا بغداد فلم تكن ترضيهم سيرته، وآخرون يقولون: إنَّ عمر باشا نفسه توسّل إلى كريم خان في أن يرسل جيشاً إلى البصرة ليكون ذا جاه عند السلطان وقديماً اتهم الناس أحمد باشا بأنه حمل نادر شاه على حصار البصرة، والسلطان لما دعا أحمد باشا وأزاله عن منصبه اضطر بذلك إلى إعادته إلى منصبه، لأنه لا يريد أن يفقد البصرة. ثم أرسل عدة بواشية في جيش إلى بغداد، فحالفهم الحظ في أول سنة «1776م ـ 1190هـ» بأن قبضوا على عمر باشا، بعد أن عاهدوه على أن يسندوا إليه باشية أورفة، ولكن الأتراك ليس لهم عهد فإن عمر باشا قتل وبعث برأسه إلى استانبول وعيّن السلطان لبغداد والياً جديداً ولكن بعد قليل أخذت البصرة وكتب إليَّ من حلب أحد أصدقائي في أول سنة «1777م» أن رجلاً اسمه عبد الله وكان كهية عمر باشا قد أصبح والياً على بغداد، والظاهر أن أهل بغداد انتخبوه فلم يستطع السلطان رفضه فأقرَّه على الولاية «المؤلف».

فرق بينهما، فالباشا هو الذي يولي الموظفين في كل الوظائف بالتقريب على حسب إرادته، غير أن الأمور البالغة الأهمية يجب فيها أن تنهى إلى الديوان الذي هو المجلس والأعيان الذين لهم قول مسموع في الديوان هم: كل الشيوخ المجربين المدربين على مداورة الشؤون ممن خدموا في وظيفة كهية مع البواشية. أو وظيفة متسلم بالبصرة ووظيفة «ويوضة» بماردين وفذلكة القول إنَّهم كل من حكم سواءً أكان حكمه في المدن أم في الأصقاع، وهم ممن يقيمون ببغداد موظفين كانوا أو غير موظفين يومئذٍ. و«باش آغا» أي رئيس اللاوند، وهم فرقة من الفرسان، و«آغا» وهو رئيس الينكچرية ورئيس العلماء أي كبير الفقهاء، وهذا المنصب لا يقرّ أرباب الدولة أحداً فيه بل يناله من بعُد صيته بخصائص من العلم والكياسة، ولذلك قلما تجد اسم هذا المنصب في تركيا[1]. و«القاضي» أي حاكم بغداد الشرعي وهو ملا، ويستبدل مفتي القسطنطينية به كل سنة. و«المفتي» على المذهب الحنفي. و«المفتي» على المذهب الشافعي. و«نقيب الأشراف» أي رئيس ذرية محمد في هذه الباشية، وهو أيضاً المتولي أي الناظر في أمور التكية والمسجد اللذين للشيخ عبد القادر. و«خطيب الشيخ» أي واعظ مسجد الشيخ عبد القادر. و«خطيب سر مذهب»[2] أي خطيب المسجد المدفون فيه أبو حنيفة.

---

(1) لعل رئيس العلماء هو مدرس المدرسة أي أكاديمية ذلك البلد «المؤلف».

(2) أي رأس مذهب الدولة العثمانية لأنها كانت حنفية المذهب وكان تعدّ الإمام أبا حنيفة أعظم أصحاب المذاهب ولذلك وصفته بالإمام الأعظم «المترجم».

وأكبر موظفي الباشا هو «الكهية» فهو وزير الولاية وقائد عام، وهو للباشا كالوزير للسلطان، وللباشا غير الكهية عدة مستشارين يسمّى الواحد منهم «المصاحب» ويكونون في العادة ممن تولوا وظائف مهمة، وفي أيام دخولي بغداد كان فيها رجل اسمه عبد الله بك وهو الأخ الأكبر لشيخ قبيلة العبيد ولم يكن في الحقيقة إلا «بولوك باشي» أي فرقة اللاوند (كذا) ولكنه عظيم القدر بحيث الباشا يستشيره في جميع شؤون العرب وفي أمور أخرى.

وفي بغداد غير من ذكرنا «دفتردار»[1] أي خازن المال، والدفتر في الولايات الأخرى تابع للسلطان. وقد استطاع البواشية المتأخرون ببغداد أن يجعلوا أحد من يعينونهم بأمر منهم دفترداراً، ومعنى ذلك أنهم اختاروا هم أنفسهم المشرف عليهم. وفي بغداد «أفندي الديوان» أي صاحب سر الحكومة لقبه «ديوان افنديسي». وفيها «قابجي كهية سي» وهو الذي يقوم مقام الكهية في غيبته، و«حرم أغاسي» وهو تاجر لقصر زوجة الباشا، و«سلام أغاسي» أي رئيس الموكب، و«أمير آخور» أي كبير السواس، و«جاويشلر كهية سي» أي رئيس موظفي العدلية وهذا يكون دائماً بحضرة الباشا مثلما يكون «جاويشلر أميني» بحضرة الكهية لتلقي أوامره ونواهيه وتنفيذها.

ولباشا بغداد من الموظفين «قبودان باشا»[2] وقد ذكرنا أمره في

---

(1) الدفتردار وظيفة أحدثها الفرس في أيام المغول في عصر الدولة الايلخانية واستعملها العثمانيون بعدهم «المترجم».

(2) كان البغاددة يسمونه «القبطان» وهو في الأصل «كابيتان» باشا Capitan-pacha وهو ناظر البحرية التركية «المترجم».

الكلام على البصرة، و«جباة الگمرك والخراج» وهم موظفو الجباية الذين يجمعون خراج الجالية، وهو الجزية التي يجب على النصارى واليهود دفعها إلى الدولة، وهؤلاء يعيّنهم الباشا.

ولكثير من البواشية وخصوصاً باشا بغداد عدة «إيج أغاسي» وهم كحرس الجيش في خدمة الباشا نفسه، فإذا خرج الباشا راكباً ساروا خلفه على أجمل هيئة، وأفره خيل، ولكل منهم سائس يسوس فرسه، وكلهم أتباع للخزانة دار أي خازن الباشا وللسلحدار أي حامل السيف غير أن الثاني يتولى في الغالب قيادتهم في الحرب، والأول يكون رئيسهم في المدينة. والموظف الثالث هو «الجوخه دار» أغاسي، وأربعة وعشرون من هؤلاء «الإيج أغاسي» الذين لكل واحد منهم وظيفة خاصة يحفون دائماً بالباشا ولم أسجل إلا أسماء وظائف هؤلاء:

قافتانجي، وهو يتعهد حجرة ملابس الباشا. وابريقدار، وهو الذي يجيء للباشا بالماء ليغتسل. وصوجي باشي وهو شرابي الباشا وساقيه. وقهوه جي باشي، وهو الذي يصلح قهوة الباشا.

وإيج كيلارجي باشي، وهو الموكل بحفظ المربيات. ورختوان، وهو الذي يتولى إسراج الخيل. وإيج مهتر باشي، وهو الموكل بإعداد البسط وغيرها من الفرش[1].

(1) جاء في معجم «ديران كيليكيان التركي الفرنسي» أن «المهتر» حاجب الباب العالي الموكل بإعلان الرتب والنياشين «الأوسمة» للذين تخصهم، والذين تكافئهم الدولة على مساعيهم بالمال، وكانت من الوظائف القديمة، وجاء فيه أن المهتر أيضاً هو الموسيقار، في اصطلاحات ما قبل التنظيمات التركية «المترجم».

ومن هؤلاء ذوي «الإيج أغاسي» من يعرف باسم «لالا» وهو مؤدب الغلمان في السراي، ومن الواجب عليه أن يرعى فريقاً من الشبان الذين بينهم صبيان نصارى من الكرج أو غيرهم، وابتيعوا مماليك، وصبيان مسلمون قد علموا الدين الإسلامي، وهو ملزم بتأديبهم وتعليمهم جميع ما يتعلمه أشراف الأتراك وخصوصاً القراءة والكتابة وركوب الخيل والفنون الحربية التركية، ومن يظهر من هؤلاء عبقرية وكفاية فإنه يدرب على مباشرة منصب «إيج أغاسي»، والمناصب السامية الأخرى من غير التفات إلى أصله، ومن يعدم الكفاية منهم فلا أمل له في بلوغ المناصب السامية في هذه البلاد وهم بكونهم «إيج أغاسي» لا يرسلون إلا شواربهم فإن بلغوا الرتب العالية فإنهم يسمون «صقاللي أغاسي» فيستطيعون حينئذٍ أن يرسلوا لحاهم إلى أحناكهم.

وللباشا زهاء مائة وخمسين من هؤلاء الأخيرين، ويُعدّ من ذوي الإيج أغاسي «الجوخة دارية» و«الماشترية» وهؤلاء كلهم من المشاة، فالأولون تحت أمر «جوخه دار آغا» ووظيفتهم الرئيسة أن يحملوا أوامر الباشا إلى النواحي والأصقاع، والمهترون، عليهم في الحرب تعهد الخيام، ويخدمون في الخدمات الوضيعة كلها، فإذا ما ركب الباشا إلى الجامع فإنه يركب بأهبة فاخرة وأبهة ظاهرة وفخامة، ويكون «التفنكجي باشي» في أحد جانبيه «والمطاره جي باشي» في الجانب الآخر، وجوق من أهل الموسيقى وجماعة من الإيج أغاسي يسيرون أمامه فرساناً، ويصحبه غير هؤلاء من الموظفين منهم «ألاي جاوش» Aloi Tshaus

و«سراجش باشي» و«قواس» و«شاطر»[1] وغيرهم ممن لا أحفظ وظائفهم.

إنَّ ذوي الإيج أغاسي هم خيرة جند البواشية، ولباشا بغداد ثماني مئة رجل بين فارس وراجل، والكهية وسائر كبراء الأمراء ببغداد منهم فريق تبلغ عدتهم مائتي رجل، ومقانب الباشا المسماة في هذه الولاية «اللاوند» المقيم أكثرهم في سنجق الحسكة وسنجق الحلة لضبط العرب وأخذ البأج[2]، وهم في مائة بيرق، كل بيرق خمسة وعشرون رجلاً في حال التمام، وعدتهم في الأعم الأغلب ألف وخمس مئة رجل لا يزيدون على ذلك.

ومن الجند فرقة مشاة يسمونها «برتلي»[3] وهم ثلاثون عصابة كل عصابة «أربعون رجلاً» وفي أيام قدومي بغداد لم يكن فيها منهم إلا ثماني مئة رجل، ومن الجند التفنكجية أي الجند الذين في خدمة الباشا والجيش المرتكز للباشا المرابط التابع لأمره المدرب أحسن تدريب على الأساليب العسكرية التركية مؤلف ممن لا يقل عددهم عن ثلاثة آلاف وخمس مئة جندي، وله ببغداد غير هؤلاء حامية قوية من الينكچرية والمدفعية ولكن هؤلاء من جند السلطان فلا

(1) الشاطر خادم يمشي إلى جانب فرس الموظف الكبير من أتباع السلطان وكان ذلك قبل التنظيمات «معجم ديران كيليكيان التركي الفرنسي» «المترجم».

(2) البأج أتاوة تؤخذ على الغنم وهذه الكلمة تشبه الفرنسية Bailliages التي استعملها السائح كما جاء في النسخة الفرنسية إن صحّت الترجمة «المترجم».

(3) براتلي أو براتلو هو المتصرف بتفويض كتابي من السلطان «معجم ديران كيليكيان التركي الفرنسي».

يستطيع الباشا أن يأمرهم بمحاربة الأكراد والأعراب العصاة، وهم يحسبون أنهم يقومون بالواجب عليهم حق القيام إذا دافعوا عن بغداد وقلعتها فقط، ودفعوا كل عدو للسلطان حتى الباشا نفسه، ويرأسهم أغوات من فرقهم الأخرى التي باستانبول فهي ـ أي الفرق الأخرى ـ التي تبعث إليهم الأمراء، وجنودهم الساذجون أكثرهم من أهل البلاد، وهم في جانب الباشا وخصوصاً بعد أن يشرفهم باكتتاب اسمه فيهم وانضمامه إليهم.

لم أستطع أن أعلم عدة الينكچرية الذين ببغداد بالتحقيق، فمن الناس من يقول إنَّهم عشرة آلاف ومنهم من يقول إنَّهم عشرون ألفاً، ولعل العدة الأولى هي من مجندي السلطان، ومن عداهم من أهل البلاد من أغوات كبار وناس صغار حتى الحمّال الصغير اكتتبوا أسماءهم في فرق الينكچرية إمَّا لنيل «الميزات» الكبيرة التي لهذه الفرق، وإمَّا للتفادي من آذاهم واستهزائهم، فبذلك يكونون في حمايتهم إن تعدى عليهم أحد، وفرق الجيش على اختلاف سلطانيها وباشيها لها قلانس مختلفة تميِّزهم بأشكالها، وأما ملابسهم فكل له أن يختار الزي الذي يفضله على غيره، وفي الأصقاع والأقطار الأخرى لا يسمع الإنسان اسم اللاوند ولا اسم البراتلية، وإنما يسمى فرسان الباشا باسم «دلي» ومشاته باسم «تفنكچي» و«وسكمن»، وإذا احتاج الباشا إلى جنود أكثر ممن ذكرنا ليحارب العرب أو الكرد فإنه يعاقد جماعة من الأمراء على أن يجنّد كل منهم طائفة من الرجال تحت علمه ويسمون هذه الفرق «سردن كجدي» ويكتبون فيها كل من يتطوع للتجند،

ويسوقونهم على الفور إلى محاربة العدو من غير تدريب كافٍ ولا تمرين وافٍ، مع أنهم يجب عليهم استعمال السلاح الذي يسلحون به، إلا أنهم بعد شهرين، والحرب لا تدوم هناك طويلاً، يسرحون من الخدمة إنْ لم يستعفوا هم أنفسهم قبل ذلك.

وفي هذه الأيام جندوا عشرة بيارق، في كل بيرق أربعون رجلاً ليبعثوهم إلى البصرة لمحاربة قبيلة كعب، وعما قليل ستضطرم الحرب اضطراماً هائلاً، وإن خادمي اكتتب نفسه في المتطوعين «السردن كجدي» ليحافظ على النقود التي أعطيتها إياه نفقة لرجوعه، فاستخدمت مكانه مارونياً حلبياً.

وإذا كان كثيراً ما يستدعيه البيرقدار إلى حضرته سألته هل تمرن الجنود المتطوعون على الخدمة العسكرية؟ فقال لي: إن آمرهم باركهم بقراءة الفاتحة (كما يقال عندنا: أبونا) وكلمهم في عدة السفر وأهبته الضروريتين وأعطاهم النفقة اللازمة لذلك، وحثّهم على أن يكونوا شجعان مؤدبين مهذبين، ثم فارقوه.

وإذا احتاج الباشا إلى الجند يستطيع أن يحشد أيضاً ستة وثلاثين ألفاً من أصقاع البصرة والحسكة وماردين وكردستان، والأعراب الرحّل في إيالته، ولكنه لا يستطيع أن يدخل منهم في الحرب أكثر من عشرة آلاف رجل، فالآخرون يضرّون في الحرب أكثر مما ينفعون.

«انتهى كلام الرحّالة على بغداد»

رحلة نيبور إلى العراق
في القرن الثامن عشر

ترجمه من الألمانية
الدكتور محمود حسين الأمين

مراجعة وتعليق
سالم الألوسي

مقدمة المترجم

استهوتني - أثناء دراستي الجامعية لعلم الآثار في ألمانيا قبيل الحرب العالمية الثانية وخلالها - رحلة نيبور المدوَّنة بالألمانية، لما جاء فيها من معلومات بلدانية وتاريخية وأثرية تُعتبر ثروة عظيمة للعلماء والباحثين والمحقّقين. ففكَّرت في ترجمة ما يخصّ العراق من الرحلة، وبالفعل تصديت إلى ترجمة الفصل الخاص بمدينة الموصل ونشرته في مجلة سومر، المجلد 9 (1951).

يحتوي القسم الخاص بالعراق من هذه الرحلة على ثلاثة فصول هي:

الفصل الأول: يتضمن وصف رحلة نيبور من البصرة إلى بغداد.

الفصل الثاني: يحتوي على وصف الرحلة من بغداد إلى الموصل.

الفصل الثالث: يتضمن وصف الموصل وشمالي العراق.

ولقد آثرت - في الوقت الحاضر - تأجيل نشر الفصل الأول الخاص بمدينة البصرة وجنوبي العراق، بالرغم من أهميته

التاريخية والاجتماعية والبلدانية، إلى فرصة سانحة أخرى إن شاء الله. وها آناذا أضع الفصلين الثاني والثالث في متناول يد القارىء الكريم، آملاً أن أكون قد وفّقت إلى إضافة كتاب - كسب شهرة فائقة في أدب الرحلات - إلى المكتبة العربية المفتقرة إلى ما جاء فيه من الكشف عن صفحات مجهولة من تاريخ العراق في القرن الثامن عشر. والله ولي التوفيق.

الدكتور محمود حسين الأمين
22 ربيع الأول 1385 للهجرة
بغداد في 21 تموز/يوليو 1965 للميلاد



[نقلاً عن كتاب بلاد اليمن السعيدة، لهانسن]

الشكل ـ ١

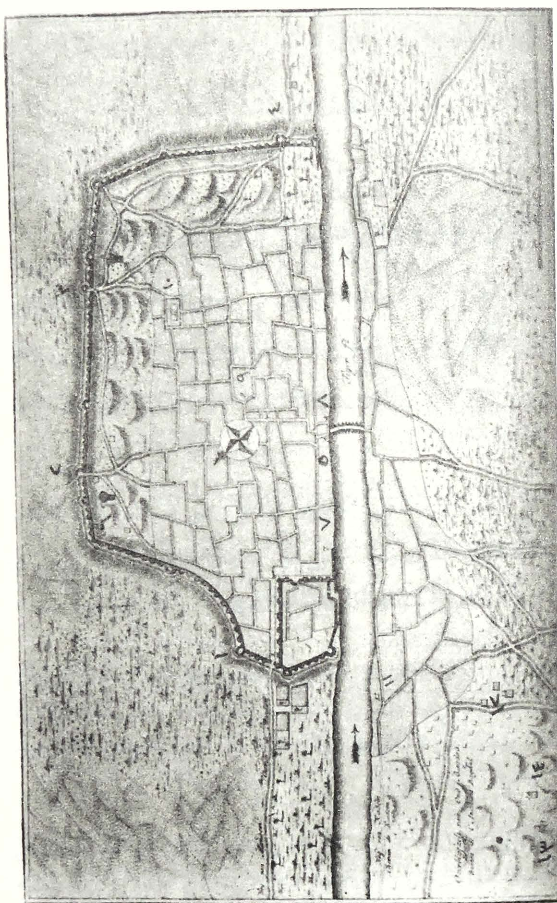
ارتدى كارستن نيبور الملابس العربية التي أهداها إليه أمير صنعاء

الفصل الثاني

وصف مدينة بغداد وأحوالها

وصف المشاهد والأمكنة المذكورة في خارطة بغداد كما رسمها نيبور عام 1766 بحسب تسلسل أرقامها

1 ـ باب المعظَّم (أو باب السلطان).
2 ـ الباب الوسطاني.
3 ـ باب الطلسم.
4 ـ باب الظلمات (الباب الشرقي).
5 ـ صوقاپي (باب الجسر).
6 ـ بطرية المدافع.
7 ـ السراي (قصر الباشا).
8 ـ المدرسة المستنصرية.
9 ـ منارة سوق الغزل.
10 ـ ضريح الشيخ عبد القادر الجيلي (الگيلاني).
11 ـ تكية البكتاشية.
12 ـ مرقد الست زبيدة.
13 ـ ضريح بهلول دانة.
14 ـ قبر يوشع.



بغداد

خريف سنة 1765 وشتاؤها حتى 3 آذار/مارس 1766:

تقع مدينة بغداد في مقاطعة الخالص على درجة خط العرض 33 درجة و20 دقيقة على الضفة الشرقية من نهر دجلة وهي مقرّ ولاية باشا من الدرجة الأولى[1]. يحيط بها من جهة البر سور مبني بالقرميد (الطابوق).

والقسم الأعظم من داخل المدينة مهدَّم وغير مسكون أما القسم المكتظّ بالسكّان فهو الذي يقع على نهر دجلة والقريب من سراي الباشا وتكثر فيه أغلب أسواق المدينة المهمة. ولذلك فإنّ بغداد

---

(1) طريف أن يذكر نيبور أنَّ بغداد تقع في مقاطعة الخالص، في حين وهي مركز ولاية (باشلق) يجب أن تكون لها مقاطعة باسمها وربَّما كانت التقسيمات الإدارية يومذاك هكذا. ويظهر من كلامه عن موقع بغداد أنَّ الكرخ كان في أيام زيارته بغداد محلة صغيرة. (المترجم)

تعليق:

كان النظام الإداري في العهد العثماني يقوم على تعيين الباشا من الدرجة الأولى الذي يكون بمرتبة الوزير على ولاية كبيرة مهمة مثل ولاية مصر أو ولاية بغداد ويرمز إليه بثلاث طوغات، والباشوية من الدرجة الثانية ويرمز إليها بـ(طوغتين) تكون على الولايات أو المقاطعات الأقل أهمية مثل ولاية شهرزور، أما الباشا من الدرجة الثالثة ويرمز إليه بـ(بطوغة واحدة) فيعيّن على سنجق (لواء) (س.أ).

بالنسبة إلى سائر مدن بلاد المشرق التي تكثر فيها الحدائق، مزدحمة بالسكّان وشوارعها ضيِّقة وأسواقها الراقية المهمة مقبَّبة. وفيها شوارع فرعية كثيرة تغلق مداخلها كل مساء على نحو ما هو موجود في القاهرة. ومعظم البيوت مبني بالطابوق وهي عالية نوعاً ما، وما زالت هذه البيوت تحتفظ بطابع فن البناء الإسلامي وتكاد واجهاتها المطلّة على الأزقة والشوارع تكون خالية من النوافذ، فإن وجدت فيها فإنَّها لا تُرى تقريباً. ويتوسط هذه البيوت رحبة صغيرة مربَّعة الشكل تشرف عليها أحسن غرف الدار. والظاهر أنَّ هذا الطراز من البناء في بلاد المشرق لا يتفق مع شدَّة حرارة الصيف التي يتذمَّر منها السكّان. فإذا ما توسطت الشمس كبد السماء عند الظهيرة فإنَّ الغرف المحيطة بهذا الصحن المربع الشكل تنقلب إلى أفران لا يمكن المكوث فيها، وذلك لخلوها من المنافذ ووسائل التهوية الطبيعية. ولكي يدفع السكّان عنهم غائلة الحر الشديد في أيام الصيف فإنَّهم يبنون في كل بيت سرداب يقضون فيه معظم أوقات النهار. وهذا السرداب عبارة عن غرفة مقبَّبة فيها مجرى للهواء[1]، يتكوَّن من فتحة واسعة باتجاه الشمال لأنَّ الهواء يهبّ على بغداد في آخر أيام الصيف من جهة الشمال كما هي الحالة في القاهرة وفي جزيرة (الخارج Charedsch)[2] والحرارة في فصل الشتاء لا تنخفض بالطبع في بغداد انخفاضاً شديداً كما في بلادنا (ألمانيا)

(1) وهو ما يُسمَّى في بغداد بـ(البادكير) (س.أ).

(2) جزيرة في خليج البصرة نزلها (نيبور) في طريقه إلى البصرة، حيث أمضى فيها شهرين، وتُسمَّى بجزيرة خارگ (Kharg) أيضاً. (س.أ).

ولكنّنا رأينا في أوائل شهر شباط/فبراير، الجليد وكان سمكه نصف إصبع تقريباً ويعبِّر الناس عن موجة البرد هذه بأنَّها حالة غير طبيعية ولذا تراهم يستغربون لا سيَّما وأنَّ أكثر من عشرين شخصاً جمِّدوا من شدَّة البرد في بضع ليال. وهذا أمر متوقع حدوثه في ليالي الشتاء القارسة خاصة وأنَّ فقراء هذه البلاد عُراة ويبيتون لياليهم في الأزقة والشوارع.

ولكي أتمكَّن من تقديم فكرة للقارىء عن سعة هذه المدينة وموقعها فقد رسمت لها مخططاً يجده القارىء في (الشكل ـ 2). وفي بغداد ثلاثة أبواب من جهة البر. فالباب الأول الذي يُشير إليه رقم (1) في الخريطة، يُدعى باب المعظَّم[1] وقد سُمّي بهذه التسمية نسبة إلى الإمام أبي حنيفة الذي يلقّبه السُّنَّة بالأعظم أي المبجّل، ويبعد قبره عن هذا الباب مسيرة نصف ساعة. ثم الباب الوسطاني[2] أو الباب الوسط وقد أشير إليه في المخطط برقم (2). ويشير رقم (3) في المخطط إلى برج ضخم يُعرف بالطلسم[3] وقد كان فيما

(1) ويُسمَّى كذلك باسم باب (سوق السلطان) وقد هدم ما تبقى منه عام 1925 من قبل دائرة البلدية لغرض توسيع شارع الرشيد. وموضعه لصق قاعة الشعب. ولا زالت المنطقة تحمل اسم (باب المعظَّم) إلى يومنا هذا (س.أ).

(2) وكان يُسمَّى بـ(باب الظفرية) نسبة إلى الأمير ظفر أحد مماليك السلطان أرسلان شاه السلجوقي وقد شُيِّد على عهد المسترشد عام 511هـ. (س.أ).

(3) وكان يُسمَّى بـ(باب الحلبة) عند الموضع الذي كانت تُقام فيه حلبة السباق، وممَّا يؤسف له أنَّ هذه الأبواب الجميلة قد نسفها الأتراك العثمانيون بالبارود ليلة انسحابهم من بغداد في 11 آذار/مارس 1917 على أثر دخول القوات الإنكليزية، وكان العثمانيون قد اتخذوا منها مخزناً للعتاد الحربي فقاموا بنسفها خشية استيلاء القوات المحتلة عليها (س.أ).

مضى باباً من أهم أبواب المدينة. وعندما غزا السلطان مراد بغداد وانتزعها من أيدي الفرس كان هذا الباب من جملة الموانع التي وقفت في طريق زحف قواته ولذلك فقد أمر بسدّه ولم يُفتح منذ ذلك الحين(*). ثم باب قرولوق قاپي[1] ويشير رقم 4 إلى موضعه في المخطط. وعند الجسر باب يشير إليه رقم 5 في المخطط يُعرف بباب الجسر[2].

وقد أُقيمت على كل واحد من هذه القلاع أو الأبراج العشرة الضخمة التي يشاهدها المرء موزّعة في واجهات سور المدينة،

(*) لقد استنسخت من هذا الأثر الكبير كتابة طويلة علمت منها أنَّ باني هذا البرج هو الخليفة العباسي الناصر لدين الله وكان قد انتهى من بنائه في سنة 618 للهجرة (الموافقة 1211 ميلادية). وهذا يدلُّ على أنَّ بغداد الحالية قديمة بقدم هذا التاريخ. وهذا نص الكتابة:
بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. أمر بعمارته سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة [على] كافة الأنام أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين خليفة ربّ العالمين وحجَّة الله عزَّ وجلَّ على الخلق أجمعين صلوات الله وسلامه على آله الطاهرين ولا زالت دعوة المدعي على تباع (هكذا استنسخها نيبور) الحق منازله والخلائق لها اتباعاً وأنصاراً وطاعته المفترضة للمؤمنين أسماعاً وأبصاراً وافق الفراغ منه سنة ثمان عشرة وستمائة، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين».

(1) قره اولوق وتلفظ (قراكلق) ومعناها (باب الظلمات) (انظر العمري في ص10). ويُسمَّى كذلك بباب كلواذي وأُطلق عليه مؤخراً «الباب الشرقي» ولا تزال البقعة التي كان يقوم الباب فيها تُسمَّى بهذا الاسم. وعند احتلال الإنكليز بغداد حوَّلت هذه الباب إلى كنيسة خاصة بالحامية البريطانية سُمّيت بكنيسة (سنت جورج) أي القديس جورج، وقد هدمتها أمانة العاصمة لغرض توسيع الشارع وكان البدء بالهدم في 13 أيار/مايو 1937 (س. أ).

(2) ويُسمَّى كذلك «صوقاپي» أي باب الشط (س. أ).

ستة مدافع أو سبعة مدافع ولكن أقل من نصفها مجهَّز بالقنابل. هذا ولا تتناسب سعة الأبراج مع كثرة المدافع. وليست في أبراج قرولوغ قابي والطلسم والباب الوسطاني مدافع من النوع الضخم ولعلَّ أحمد باشا أمر بسحب بطاريتين كبيرتين وإبقاء بطاريات في الموضع رقم (6). وبين الأبراج الضخمة عدد غير قليل من الأبراج الصغيرة ولكنَّها تُستعمل للدفاع بالبنادق فقط. وفي السور من الداخل عدد كبير من الأقواس المزدوجة ـ مركَّبة على بعضها البعض وفيها مزاغل كثيرة تُستعمل للرماية وللدفاع بالبنادق عن الخندق المحيط بالسور. ومن الجدير بالذكر أنَّ السور ضعيف ولا يصلح للدفاع وليس فيه شيء من وسائل الدفاع والتقوية من الخارج، كما أنَّ الخندق جاف خال من الماء فهو لا يقف أمام هجوم قوات أوروبية إذ من السهل عليها الاستيلاء على المدينة. ولكن بغداد بالنسبة إلى مدن بلاد المشرق تُعدّ قلعة حصينة جداً، يتبيَّن ذلك من ثباتها أمام نادر شاه الذي ضرب عليها الحصار مرَّات عديدة من غير أن يتمكَّن من الاستيلاء عليها.

وفي الزاوية الغربية من المدينة قلعة صغيرة تُدعى إيج قلعة[1] وتُستعمل الآن مستودعاً لخزن البارود وليس لها فائدة أخرى غير هذا الذي ذكرناه. وتقيم في هذه القلعة قوات الينيچرية[*].

---

(1) كلمة تركية تعني «القلعة الداخلية» ويقصد بذلك وزارة الدفاع الحالية وبناية القصر العباسي المتخذ الآن متحفاً للآثار الإسلامية (س.أ).

(*) الينكيشري وتُكتب أحياناً إنكشاري وتُلفظ يني شري بمعنى (النظام الجديد) وقد فضَّلنا كتابتها بـ(ينيچري) كما تُلفظ حيث ذكرت في الكتاب (س.أ).

ويصعب على الأجنبي في أوروبا الدخول في قلاع كهذه، أما أنا فلم أجد أقل صعوبة في دخولها كما لم يتعرّض لي أحد خلال زيارتي إيّاها وتجوالي فيها بخلاف أبواب المدينة التي يوقفني عندها جنود الينيچرية للتأكد من هويتي كلّما أردت دخولها إذ يقوم هؤلاء الجنود بحراسة هذه الأبواب ليل نهار. والجنود الينيچرية الذين يقومون بحراسة هذه القلعة ليس لهم عمل مجهد بل على العكس فإنّهم مرتاحون وقلّما يحملون السلاح أو يتعرضون للمارة أو يحقّقون مع الداخلين إلى القلعة أو الخارجين منها. وفي الأيام التي يكون فيها الجو رديئاً يجلسون في غرفة الحراسة أو يلعبون النرد (الطاولة). وصفوة القول فإنّهم يمرحون ويسرحون كيفما يشاؤون ولا يهتمون بما يجري حولهم حتى وإن وقعت اضطرابات في الشوارع أو اختل النظام.

ويقع السراي (قصر الباشا) أمام القلعة على نهر دجلة في الموقع الذي يُشير إليه رقم (7) في المخطط. وهو واسع جداً ويحتوي على بنايات كثيرة ولكن معظمها متهدم ويُشير رقم (8) في المخطط إلى بناية المدرسة المستنصرية التي كانت مثار إعجاب الكتّاب والمؤرخين العرب[1] ولكن هذه البناية لم تعد تُستعمل اليوم مسكناً للعلماء ومركزاً للتعليم وقد أصبح مطبخ الطلاب والعلماء الذين كانوا يسكنون ويقيمون في الجناح التابع لهذه المدرسة، داراً للگمرگ كما أنَّ القسم الباقي من هذا المعهد وهو

(1) راجع: Semmlers Uekersetzung der Algemeinen Welthi- storie der neuern Zeiten 2 ter theil s, 71.

القسم الأكبر صار خاناً ينزل فيه أصحاب القوافل ويسميه الناس أوت ميداني خان[1] وجميع أبنيته متهدم. وبامتداد واجهة البناية الواقعة على نهر دجلة كتابة طويلة يستدل منها أنَّ الخليفة المستنصر كان قد شيّد هذه البناية في سنة 630 للهجرة (1232 ـ ميلادية). ولقد حاولت عبثاً استنساخ الكتابة من فوق الجسر وذلك لكثرة الناس المارين فوقه ومخافة أن أجلب انتباههم وأسترعي فضولهم لهذا طلبت من أحد الملالي استنساخها. وقد قارنت هذه الكتابة مع الأصل ودوَّنتها في أدناه[2].

وقد قام المستنصر بعد مضي ثلاث سنوات على هذا التاريخ بتشييد جامع كان آية في الفن والجمال وذلك في المحلَّة المعروفة بمحلَّة سوق الغزل الذي يُشير إلى محلة (رقم 9) في مخطط بغداد، ولكنَّه لم يبق منه سوى منارته وواجهة سوره الذي يحتوي على مدخلين جميلين اتخذ أحدهما قهوة قذرة حقيرة. وقد شاهدت على هذا الباب كتابة تُشير إلى باني هذا الجامع وهذا نصّها: «**أمر بعمله سيدنا ومولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين أعلى الله تعالى معالم الإسلام بهمته العليَّة وأزهى**

(1) يتضح من قول نيبور أنَّ بعض مرافق المدرسة المستنصرية اتخذ لبيع العشب (الحشائش) إلى القوافل النازلة، فكلمة (أوت) تركية معناها العشب وهو ما يقدّم كعلف للحيوانات (س. أ).

(2) قد أمر بإنشاء هذه المدرسة الشريفة لطلاب العلم وتُسمَّى المدرسة العظماء (هكذا وردت في النص) دولة العز وأسعد الخلائق المحجة البيضاء عبد الله وخليفته في أرضه الخليفة أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين أمتع الله المسلمين بإعزاز سلطانه وأيّد دولته بطول حياته وذلك سنة ستمائة وثلاثين (كذا).

(الأصح: وأرسى) دعائم الإيمان بإيالته وذلك في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة»[1].

أما المدرسة القائمة اليوم والتي تُعدّ المدرسة الرئيسة في بغداد فقد شيَّدها مرجان في سنة 758 هجرية وأوقفها لتدريس العلوم الدينية للمذهبين الحنفي والشافعي. كذلك قام مرجان الذي نحن بصدده بتشييد جامع كبير ومبان عامة أخرى[2]. ويعتقد الناس أنَّ مرجان كان يعرف علم الكيمياء، أي إنَّه كان يعرف صناعة الذهب. على أنَّ مرجان كان من الشخصيات البارزة في تاريخ بغداد. فقد كان يتقلَّد الولاية على بغداد في أثناء غياب سيده عنها سنوات عديدة ولذا فإنَّه كان من الواضح أن يملك السلطان والمال وأن يكون ثرياً يوقف عدداً كبيراً من الأبنية والعمارات. والكتابة التي أدوِّنها هنا قد نقلتها بمساعدة أحد الملالي عن الكتابة المدوَّنة على هذه المدرسة المذكورة. إلا أنَّه ما يجب ملاحظته بأنَّني لم أستطع

---

(1) لم يشيد الخليفة المستنصر جامع سوق الغزل كما ذكر الرحَّالة، بل إنَّ الذي بناه هو الخليفة المكتفي في أواخر القرن الثالث للهجرة وكان يُعرف بجامع القصر أو جامع الخليفة أو جامع الخلفاء، والكتابة التي ذكرها نيبور تُشير إلى قيام الخليفة المستنصر بترميم وصيانة باب الجامع ويؤيد ذلك ما جاء في كتاب الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة المنسوب خطأً لابن الفوطي الذي حقَّقه الأستاذ الفاضل الدكتور مصطفى جواد في ص103 وذلك في وقائع سنة خمس وثلاثين وستمائة «.. وفي آخر شعبان انتهى من عمارة جامع القصر فيما يلي الرحبة وفتح المزملة التي عملت في الجامع المذكور أيضاً».. وجاء في دليل خارطة بغداد للأستاذين مصطفى جواد وأحمد سوسة ما يؤيد ذلك (ص183) (س.أ).

(2) لم يشيد مرجان جامعاً بل شيَّد خاناً (تيما) أوقفه على مدرسته وذلك عام 760هـ (وهو الخان المعروف بخان مرجان أو خان الأورتمة) (س.أ).

مقارنة الكتابة مع النص الأصلي، فقد كان في هذا المكان دائماً كثير من الأولاد والصغار الذين خشيت أن يلحقني منهم أذى إذا ما قمت بمقارنة الكتابة مع الأصل[1].

ورأيت علي خان أو كروان سراي والذي يدعوه الناس هنا چغال[2] وكان قد بني في سنة 999هـ الموافقة سنة 1590م في زمن حكم السلطان مراد على نفقة سنان باشا، كتابة تركية مطوَّلة وتحتها بضعة أسطر باللغة العربية وقد استنسخت الأخيرة.

عمّر هذا الخانمان وما فيه من البنيان في أيام دولة السلطان ابن السلطان السلطان مراد خان خلَّد الله ملكه وسلطانه وأفاض على كافة العالمين عدله وإحسانه سنة 999هـ.

وفي بغداد تكية يسكنها عدد من الدراويش المنتمين إلى طرق مختلفة كالقادرية والبكتاشية والمولوية والرفاعية والنقشبندية والقلندرية والشاكرية. والتكية الخاصة بأصحاب الطريقة الأخيرة

(1) بسم الله الرحمن الرحيم ربنا تقبَّل منَّا إنَّك أنت السميع العليم أوقف هذه المدرسة الشريفة على طلاب العلم على الإمام الأعظم محمد بن إدريس الشافعي المطلبي والإمام الأقدم نعمان بن ثابت الكوفي هذه وقفت المدرسة دار الشفاء المولى الأمير الصاحب الأعظم ملك أعاظم الأمراء في العالم مشير السلاطين مرشد الخواقين مشيِّد قواعد الخيرات باني مباني المبرَّات المفتقر إلى مغفرة الملك المنَّان مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن السلطاني الأولجاني تقبل الله منه في الدارين طاعته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وسلَّم وذلك سنة 758هـ.

(2) نسبة إلى چغالة زاده سنان باشا والي بغداد 995 ـ 998هـ (1586 ـ 1589م) ويطلق عليه العامة (خان جغان) (س.أ).

أي الشاكرية[*] عبارة عن مأوى لفقراء الهنود المسلمين الذين قدموا حاجّين إلى هذه الديار.

ومؤسّس الطريقة القادرية هو عبد القادر، الشيخ المعروف من كيلان (جيلان) وكان قد وُلد سنة 560هـ[1] وعاش بالرغم ممّا يدعيه أتباعه إحدى وتسعين سنة ويقع ضريحه في بغداد وقد أُشير برقم (10) إلى موضعه في الشكل المرقم (2) وهو مدفون تحت قبَّة كبيرة. والتكية الخاصة به تحتوي على أروقة وغرف عديدة تكفي لإيواء أكثر من ثلاثمائة شخص كما أنَّ عدداً كبيراً من البيوت ملحق بها ويسكنها مجاناً أتباع هذه الطريقة والوافدين عليه من الزائرين المسلمين.

إنَّ لهذه التكية التي تقع على مسافة بعيدة من دجلة مجرى خاصاً يجلب لها الماء من النهر.

ولما ذهبت لزيارة جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ومشاهدة قبَّته وزيارة قبره والتمتُّع بما احتواه هذا الجامع من الفنون، وللاطلاع على طرق معيشة القائمين بإدارته وأحوالهم، لم أجد قبَّة هذا الجامع بالسعة التي وصفت لي[2] فهي تقل حجماً عن قبَّة قصر العيني ـ التكية التي تقع على النيل قريباً من القاهرة.

وبينما كنت أتطلع إلى داخل الجامع وأتفرَّج على الناس

(*) من المرجّح أن يكون المقصود بـ(الشاكرية) الشاكان (س.أ).

(1) من المعلوم أنَّ وفاة الشيخ عبد القادر الجيلي كانت سنة 561هـ (1165م) فما ذكره نيبور السنة التي سبقت وفاته (س.أ).

(2) تُعتبر أكبر قبَّة مشيدة من نوعها في العراق (س.أ).

القائمين والقاعدين في صحنه، أتاني أحد الدراويش فسلَّم عليَّ بكلّ لطف وأدب ودعاني للدخول في غرفته. وبعد أن جلسنا وتحدَّثنا قصَّ عليَّ القصة التالية عن خوارق أعمال شيخه العظيم. فقال: ـ عندما كان الشيخ عبد القادر جالساً على كرسي الوعظ يتكلَّم إلى الجموع الغفيرة ويعظهم سكت فجأة ومسك بفرد قبقابه ورماه على الحائط. فاختفى القبقاب على الفور، وبعد بضعة دقائق أخذ القبقاب الآخر (الفردة الثانية) ورماه على الحائط أيضاً فاختفى القبقاب الثاني على الفور أيضاً، فلم يفهم الحاضرون مغزى هذا العمل كما لم يستطع أحد إدراك سرّ هذه العملية وما حلَّ بالقبقاب وبقوا مذهولين واجمين.

أما السبب الدافع إلى أن يضرب الشيخ عبد القادر الكيلاني ـ قدس الله سره ـ الحائط بقبقابه، ذلك أنَّ جماعة من التجار كانوا في طريقهم إلى بغداد لبيع بضائعهم ولزيارة الشيخ عبد القادر والتبرك به فاعترضتهم جماعة من الأعراب وهاجمت قافلتهم وسلبت ما عندهم من أموال فأخذ التجار يستنجدون بالشيخ العظيم ويلوذون بدخالته ويستصرخونه لمساعدتهم، فاستجاب لهم ورماهم بقبقابه الذي طار أمام أعين طلابه ومريديه باتجاه الحائط فسقط على رأس أحد زعماء العصابة. واعتقد الأعراب في بادىء الأمر أنَّ القبقاب جاء من أحد تجار القافلة فنزلوا عليهم ضرباً مبرحاً بأشد قساوة وغلظة ولكنَّهم رأوا على الفور أنَّ قبقاباً آخر خرَّ على رأس شخص آخر من رؤساء الأعراب، فانتبهوا على الفور إلى أنَّ شيخاً عظيماً يحرس هذه القافلة فأعادوا لأصحابها كل ما سلبوه

منهم وتركوهم يواصلون سفرهم بسلام. وبعد مرور أربعة أسابيع على هذه الحادثة وصل تجار القافلة إلى بغداد جالبين معهم قبقاب الشيخ العظيم ويشكرونه على حمايته إياهم كما نشروا خبر هذه الكرامة في كل مكان.

يتراوح عرض دجلة[1] في بغداد بين ستمائة قدم وستمائة وعشرين قدماً وعليه جسر من القوارب رديء جداً يتكوَّن من أربعة وثلاثين قارباً رُبطت مع بعضهم البعض بثلاث سلاسل من الحديد. وهذا الجسر صالح للاستعمال في الأحوال الجوية الهادئة وعندما يكون الطقس خالياً من العواصف والزوابع. ولكنَّه يكون غير أمين حين يفيض النهر وتحدث العواصف. فإذا فاض النهر فجأة ولم يسارع القائمون بحراسة الجسر، إلى فك السلاسل في أحد جانبي النهر فوراً فإنَّها تنقطع ويجرف تيار الماء القوي الجسر معه كما حدث مثل هذا في شهر كانون الثاني سنة 1766م عندما هبَّت رياح قوية من الجنوب الشرقي على المدينة.

اعتدل المناخ في بغداد في بداية هذا الشهر وارتفعت درجة الحرارة عن المستوى الطبيعي فذابت الثلوج في الجبال وأخذت مياهها تنصب في دجلة فارتفع مستوى ماء النهر في أواسط كانون الثاني ارتفاعاً كبيراً إلى درجة انقطعت فيها السلاسل الحديدية وجرف الماء الجسر والقوارب معه كما غرقت أعداد

(1) والطريف أنَّ نيبور يُسمي دجلة (Tiger) أي النمر (المترجم).

كبيرة من الماشية وهرع الناس إلى القوارب للنجاة بأرواحهم. ثم واصل النهر ارتفاعه عدَّة أيام أخرى بحيث فاض ماؤه على جوانبه وفي الأيام التاسع عشر والعشرين والواحد والعشرين من شهر كانون الثاني أصبحت جميع الأراضي المحيطة ببغداد تحت الماء ولكن مستواه أخذ يهبط قليلاً في اليوم العشرين من الشهر وواصل هبوطه ولم يعد إلى الارتفاع ثانية إلا في أواسط شهر آذار وأصبح في حالة تدعو إلى الخطر. ثم بدأ بعد هذا التاريخ يفيض مرَّة أخرى ويهدِّد الموصل وبغداد بخطر فيضانه، ذلك لأنَّ الثلوج المتراكمة فوق أعالي الجبال أخذت تذوب مرَّة أخرى. إنَّ الفارق بين مستوى انخفاض النهر في الأوقات العادية وأقصى مستويات ارتفاعه في أوقات الفيضان هو عشرون قدماً تقريباً.

لم أتمكن من زيارة ضواحي بغداد والمناطق المحيطة بها ولا سيَّما تلك التي تقع في الجانب الغربي من دجلة لأنَّها كانت في أثناء زيارتي لمدينة بغداد تحت الماء وذلك لانخفاضها كثيراً عن مستوى المدينة فاكتفيت بالإشارة إليها فقط. فقد وجدت في ضواحي المدينة الغربية كثيراً من البساتين الخالية من السكنى تقريباً. وتقع النهاية الشمالية لهذا القسم من بغداد على مكان بغداد القديمة(1) ولا شك، والتي تمتد إلى مرقد موسى الكاظم حيث يجد الزائر فيها آثاراً لمباني قديمة من العصر العباسي، ثم مساجد وقبوراً لعدد

(1) يقصد نيبور بغداد المدوّرة «مدينة السلام» التي أنشأها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور عام 145هـ ـ 762م (س.أ).

كثير من مشاهير المسلمين الذي عاشوا في بغداد ودُفنوا في هذا المكان.

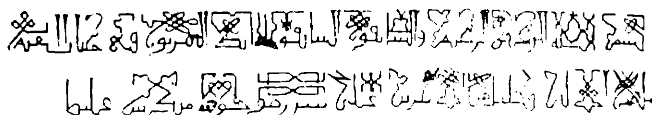
ويجد القارىء في المكان المؤشر برقم (11) في مخطط بغداد تكية لدراويش الطريقة البكتاشية وهي بناية قديمة مرتفعة وفي أعلى مدخلها كتابة قد تخربت كثيراً ولكن تظهر فيها الكتابة التالية بوضوح بعض الشيء[1].

ولعلَّ قليج أرصلان ابن الملك مسعود السلجوقي هو الذي بنى هذه التكية سنة 584هـ الموافقة سنة 1088م[2] وفوق المدخل كتابة لإحدى سور القرآن الكريم تحيط بالبناية كلها، وقد كتبت بحروف كبيرة بالخط الكوفي الجميل وبقطع من الطابوق. وقد عفى الزمن على معالم هذه الكتابة وتآكلت أيضاً. ولا عجب في ذلك إذ لا ينتظر أن تبقى كتابة بحروف من الطين المشوي غير مخربة مدة ستمائة سنة. ولكي أقدِّم للقارىء نموذجاً من هذا الخط وممَّا يحتويه من الزخارف البارزة والمتداخلة في بعضها البعض، فقد

(1) الملك العادل قليج أرصلان ابن الملك مسعود ابن العدل قليج أرصلان من طائفة سلجوق وذلك في سنة أربع وثمانين وخمسمائة. (هكذا نقلها نيبور).
تعليق: الصحيح هو أنَّ الرباط المُشار إليه بناه الخليفة العباسي الناصر لدين الله باسم زوجه سلجوقي خاتون بنت الملك قليج أرصلان. (انظر سومر 10 (1954) ص234). (س.أ).

(2) نسبها (نيبور) خطأً إلى والد سلجوقي خاتون: قليج أرصلان الثاني السلجوقي لعفاء اسم السيدة المذكورة وبقاء اسم والدها. والصحيح هو (سلجوقي خاتون بنت الملك العادل..) (انظر دليل خارطة بغداد للأستاذين الدكتور مصطفى جواد والدكتور أحمد سوسة، ص169) (س.أ).

استنسخت مقدمتها فقط والتي هي أقل تشويهاً من البقية ودوَّنتها فيما يلي:



الشكل ـ ٣ ـ هـ

نموذج من الكتابة الكوفية المحفورة على الآجر
كما استنسخها نيبور من التكية البكتاشية ببغداد

وفيما يلي نذكر نصّها:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿10﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿11﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿12﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿13﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿14﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ﴿15﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿16﴾﴾[1].

(إنَّ العرب في الوقت الحاضر يكتبونها بهذه الطريقة لو طلب إليه كتابتها).

إنَّ هذا النوع من الكتابة له تشابه كبير مع الكتابة التي استنسختها في اليمن والمنشورة في اللوحة التاسعة في القسم الخاص بوصف الجزيرة العربية. يستنتج من هذا أنَّ العرب في أزمانهم الغابرة عندما كان العلم مزدهراً تحت حكمهم تفننوا في كتابة حروف لغتهم الهجائية أيضاً. ولو استمروا على طريقة كتابتهم هذه لوجد العلماء الغربيون صعوبات كثيرة في قراءة الكتب العربية ومخطوطاتها.

---

(1) سورة الواقعة 56/ 10 (س.أ).

والكتابة التي وجدت على غطاء وعاء من الفخار عُثر عليه في تخت كسرى والذي نُشرت له صورة في كتاب «أسفار آيفز IVES REISEN»[1] هي من هذا النوع وقد أكَّد الذين وجدوا هذا الإناء وقدَّموه للرحَّالة آيفز أنَّ الكتابة التي عليه هي فارسية قديمة أو فرثية «بارثية».

إنَّ رقم (12) في المخطط المذكور يُشير إلى برج قديم صغير في داخله قبر زبيدة، السيدة التي اشتهرت في التاريخ العربي وهي زوجة الخليفة هارون الرشيد وكانت قد توفيت سنة 216هـ الموافقة لسنة 831م. وفي سنة 1131هـ الموافقة سنة 1718م دفن حسن باشا زوجته عائشة بنت مصطفى باشا بجانب ضريح السيدة زبيدة وكتب على قبرها في قطعة كبيرة من المرمر كتابة أرَّخ وفاتها ثم صلح البناء وقواه وأمر ببناء ملاجىء ومنازل عديدة للمسافرين الفقراء والمستطرقين الغرباء[2].

إلى روحها الفاتحة

هذا قبر المرحومة المغفورة (كذا) الموفقة للخيرات الجارية ست زبيدة بنت جعفر بن منصور الدوانيقي وزوجة هارون الرشيد أحد خلفاء بني العباس توفيت سنة مائتين وست عشرة.

---

(1) هو الدكتور ادوارد آيفز كان طبيباً جراحاً لدى شركة الهند الشرقية كتب رحلته وطبعها بلندن 1773 (س. أ).

(2) تُشير جميع الدلائل التاريخية الموثوقة إلى أنَّ (زبيدة) زوج الرشيد دُفنت في مقابر قريش (الكاظمية)، بينما التي دُفنت فيه هي زمرد خاتون زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله وأم الخليفة العباسي الناصر لدين الله وكانت توفيت سنة 599هـ - 1202م (س. أ).

هذا قبر المرحومة الصالحة العفيفة الساعية إلى الأفعال المرضية والأعمال اللاتي تستجلب المرضاة الإلهية عائشة خانم بنت المرحوم مصطفى باشا مصاحب السلطان محمد خان عليه الرحمة والغفران وزوجة الدستور المكرَّم والوزير الأفخم والي بغداد دار السلام أبو الخيرات (كذا) حسن باشا يسّر الله له الخير كما يحبّ ويرضى ويشاء، وتوفيت في شهر رمضان سبعة وعشرين ليلة القدر في سنة واحد وثلاثين ومائة وألف.

وعلى بعد يسير من هذا المكان رقم (13) في الشكل ـ 2 يقع ضريح بهلول دانه أحد أقرباء الخليفة هارون الرشيد ونديمه ومؤنسه. وعن بهلول دانه كتاب كبير يحتوي على قصص وطرائف كثيرة كان يقصُّ منها للرشيد. ويترزق الفقراء من العلماء على هذا الكتاب بما يقرؤون منه كل مساء على الناس في المقاهي. وقد كتب اسمه على قبره هذا بعد وفاته بزمن طويل ووضعت سنة 501هـ[1] تاريخاً لهذا القبر وسُمّي بسلطان المجذوبين.

هذا قبر سلطان المجذوبين والنفس المطمئنة (كذا) سنة خمسمائة وواحد.

ويظهر من بعض الحكايات والأقاصيص التي تُروى عن بهلول دانه، أنَّه كان ذكياً جداً، وها آنذا أقصّ بعض ما سمعته:

حدثت في زمانه مراهنة بين شخصين من أهالي بغداد، تعهَّد

(1) توفي الرشيد قبل هذا التاريخ بأكثر من ثلاثة قرون (س.أ).

أحدهما أن يدفع للآخر مبلغاً معيَّناً من المال إذا هو عبر النهر سباحة. وتمكَّن هذا من عبور النهر بسلام ولكن والدته التي كانت تنتظره في الجانب الثاني من النهر أوقدت له ناراً ليدفىء بها جسمه حال خروجه من النهر، ففعل كذلك ولبس ثيابه فاحتدم الخصام بين الاثنين بسبب ما فعلته والدته. وادَّعى الشخص الذي خسر الرهان قائلاً: ـ بأنَّه أخلَّ بالشرط وكان عليه أن لا يعتمد على مساعدة والدته. ثم اختصما لدى القاضي ولكن القاضي لم يحكم لهذا المسكين بالحق، فأفلس من الرهان الذي ربحه. وكان بهلول دانه قد اطلع على هذا الرهان وكان من بين الذين شهدوه من سكَّان بغداد، فحزن لقرار القاضي المجحف، فلما رجع إلى قصر الخليفة أخذ قدراً ووضع فيه لحماً وعلَّقه بسعف نخلة من نخيل القصر وأضرم تحت النخلة ناراً حامية. فضحك الخليفة وقهقه على سخافة بهلول دانه وطريقة طبخه اللحم. فاعترض بهلول دانه على الخليفة قائلاً: ولماذا لا يمكن طهي اللحم بهذه الطريقة في الوقت الذي استطاعت المرأة أن تدفىء ابنها أثناء سباحته النهر بنارها التي أوقدتها على الجانب الثاني من النهر. فلما استوضح الخليفة عن حقيقة هذه الحادثة التي لم يسمع بها، استدعى إليه الشخصين المتنازعين وأمر الشخص الذي خسر الرهان أن يدفع للرجل الذي عبر النهر سباحة النقود التي تراهنا عليها.

وتقع بالقرب من قبر بهلول دانه بناية صغيرة متداعية (انظر رقم 14 في المخطط) فيها قبر شخص يُدعى (يوشع) ويُزار كثيراً من قبل اليهود.

وفي هذا المكان الحالي من العمران يقع مسجد صغير[*] أيضاً وله برج صغير فيه ضريح العالِم المشهور معروف الكرخي (أبو ظاهر) وكان هذا البناء الصغير قد شُيّد وفق التاريخ المدوّن عليه في سنة 612هـ الموافقة 1215 ميلادية.

ويقول المسلمون عن معروف الكرخي إنَّه وُلد من أبوين نصرانيين ولكنَّه كان يمتنع دائماً أن يقول كالنصارى باسم الأب والابن وروح القدس وإنَّما كان يقول بدلها بسم الله الرحمن الرحيم وبسبب ذلك فقد غضبت عليه أمه فحبسته في سرداب معتم مدة أربعين يوماً لا تقدِّم له إلا الماء والخبز وبعد انقضاء مدة السجن وجدت ابنها في حالة جيدة وصحة أحسن من ذي قبل وبعد تمحيص وتدقيق وجدت في سجنه جميع ما قدَّمته له من الزاد والماء بحالته لم ينقص منه شيء. فتبادر إلى ذهن الأم أنَّ روحاً خبيثة (جان) تسيطر على ولدها فطردته من الدار. فالتجأ إلى موسى الكاظم وأصبح بعدئذٍ مسلماً ومن أعاظم العلماء وهدى جميع أفراد أسرته إلى الإسلام.

وفي مكان فسيح بين ضريح الست زبيدة والشيخ معروف حيث يجتمع فيه كبراء بغداد وذواتها مرة في الأسبوع للهو وممارسة الرماية، كان مرتضى باشا القليجدار[1] ـ أي حامل السيف عند

(*) هو المسجد المعروف في خطط بغداد (بمسجد الجنائز) ويُعرف الآن بجامع الشيخ معروف الكرخي (س.أ).

(1) ويُسمَّى أيضاً بـ(السلحدار) وكان مرتضى باشا من الشخصيات الغريبة الأطوار، فقد عيّن والياً على بغداد في المرة الأولى ما بين 1061 ـ 1063هـ (1650 ـ 1652م) وفي المرة الثانية 1069 ـ 1072هـ بعد أن حكم دمشق وولاية =

السلطان ـ قد نصب في هذا المكان عمودين صغيرين (أسطوانتين) دلالة على بعد المسافة التي قذف بها سهمه[1]. وبالقرب من أحد هذين العمودين قبّتان ولكنَّها جميعها ليست قديمة. فلو صحَّ هذا الادعاء بأنَّ الباشا المذكور استطاع أن يقطع بسهمه المسافة بين الأسطوانتين فمعنى ذلك أنَّه كان يمتاز بقوَّة خارقة لأنَّ المسافة بين الأسطوانتين ستمائة خطوة مزدوجة (مضاعفة) أو ألفان وسبعمائة قدم. على أنَّ مرتضى باشا هذا كان والياً على بغداد وكان بلا شك قد أمر بنصب هذه الأساطين الحجرية بأبعاد كبيرة ليفخر بقوَّته الخارقة.

ومثل هذا المكان وهذه النصب الحجرية موجود في حلب، وقد طلبت إلى خدمي أن يقيسوا المسافة بينها فتبيَّن أنَّها لا تبعد عن بعضها البعض أكثر من ثلاثمائة وخمس وعشرين خطوة مزدوجة. وهناك عدد كثير من هذه الأوتاد أيضاً في آت ميدان، وهو تل يقع خلف دار الأسلحة في استانبول. ومن الملاحظ ذكره أنَّ رجالات القاهرة يزاولون التمارين والرماية بالقوس والسهام وقد وصفت ذلك وصوَّرته في الجزء الأول ص111 و169[*].

تقع على مسافة ربع ساعة إلى الشمال والشمال الغربي من

= أرضروم (راجع كتاب أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، للمستر لونكريك وترجمة الأستاذ جعفر الخياط، ط3 بغداد 1963، ص84 وما بعدها، ودليل خارطة بغداد، ص290 (س.أ).

(1) وتُسمَّى (غلوة السهم) أي أقصى ما تصل إليه رمية رامي السهام (س.أ).

(*) بالنسبة لكتابه باللغة الألمانية والذي نحن بصدده «صفة جزيرة العرب». (المترجم).

بغداد وعلى الضفة الغربية من دجلة قرية الكاظم ويرى الزائر فيها الجامع الفخم (راجع الشكل 4 ح) فيه قبران لإمامين فارسيين[1] موسى الكاظم (أي الصابر) وحفيده محمد الجواد اللذان مرَّ ذكرهما في ص270 تحت موضوع «الفرق بين السُّنَّة والشيعة». ويظهر أنَّه كان لهذين الضريحين فيما مضى منزلة كبيرة لأنَّ القبَّتين كلتيهما والمنارة بُنيت على طراز الهندسة المعمارية الفارسية وكُسيت بالآجر الملوَّن الذي أخذ يتداعى ويتساقط شيئاً فشيئاً. ولا يقوم هذا الجامع بنفسه أو وحده كجامع مشهد علي ومشهد الحسين، بل هو متصل من جهتين بالبيوت.

وكان موسى قد أعدم في سنة 185 للهجرة[2] بأمر من الخليفة لأنَّه اتهم بتآمره وتعاونه مع العلويين على الدولة العباسية وكان قد جمع عدداً كبيراً منهم في بيته. ولذلك فإنَّ الشيعة يرون فيه شهيداً ويقومون بزيارته كل سنة فيبكون ويولولون على قبره. وجميع سكَّان هذه القرية من الشيعة تقريباً. هذا ولما كان أصحاب هذه الطائفة لا يجوز لهم إقامة المآتم والتعازي واللطم في بغداد، لذا فإنَّ الشيعة الساكنين في بغداد كانوا يذهبون إلى هذا الجامع المقدَّس للقيام بهذه الطقوس الدينية. كما أنَّ معظم شيعة هذه

(1) لم يكن الإمامان موسى الكاظم ومحمد الجواد فارسيين كما ذكر نيبور بل هما من السادة آل البيت، فقد دُفن في هذا الموضع الإمامان موسى الكاظم الذي مات مسموماً عام 183هـ ومحمد الجواد في 220هـ وكانت هذه المقبرة تُعرف بمقبرة قريش (س. أ).

(2) المصدر نفسه.

المنطقة يدفنون موتاهم في صحن موسى الكاظم لعدم تمكّنهم من دفع النفقات لنقل موتاهم إلى مشهد علي.

تقع مدينة بغداد التي بناها الخليفة المنصور، على الجانب الغربي من دجلة أي في هذه البقعة التي وصفناها والتي تقع في شمالي المدينة وهي منطقة موسى الكاظم. وكانت على الضفة الشرقية القلعة أو ضاحية المدينة ولم يبق اليوم منها أثر يُذكر ما خلا قرية المعظَّم التي تقع في الجهة المقابلة لموسى الكاظم وتبعد مسافة نصف ساعة عن بغداد. وبقاء هذه الضاحية من بغداد القديمة يرجع إلى وجود قبر أبي حنيفة فيها.

كان أبو حنيفة من أعاظم العلماء المتعبدين الزُّهاد وكان له أتباع كثيرون لا سيَّما وأنَّه صاحب مذهب الحنفية وكانت منزلته عندهم منزلة التقديس والتكريم وقد ألقاه الخليفة في السجن لأنَّه تشكّك وتردَّد في قبول منصب القاضي وبعد وفاته ازداد تقديس الناس له وعلت رفعته فلقِّب بالأعظم. وجميع السُّنة من الحنفية يسيرون على تعاليمه ومن ضمنهم أكثرية الأتراك وقد شيّدوا على قبره قبَّة كبيرة فخمة ومنارة وبجانبه قلعة صغيرة وأحاطوا الجامع بستة حصون حفروا حولها خندقاً[1].

(1) لم يبق لهذه التحصينات من أثر والظاهر أنَّ إحاطة المرقد بتحصينات تشبه القلاع كانت كإجراءات احتياطية للمحافظة على مشهد أبي حنيفة من التجاوزات التي كانت كثيرة الحدوث خلال الحروب العثمانية ـ الصفوية التي اتسمت بسمة الطائفية البغيضة. وما ورد من ألفاظ غير لائقة ممَّا ذكره الرحَّالة نيبور نذكره للمحافظة على النص الأصل (س.أ).

والشيعة لا يحبون أبا حنيفة ويكرهونه كراهية متناهية ولذلك فقد أهملت العناية بقبره وقبور مؤسسي المذاهب السُّنِّية الأخرى في زمن حكم الفرس لمدينة بغداد وأخذت الإهانات توجّه إلى أتباعه وأصبح الناس يخشون زيارته ممَّا حرَّكت مشاعر السلطان مراد الرابع فقاد في سنة 1638م (1048هـ) حملته العسكرية المشهورة بنفسه على بغداد وطرد الفرس منها. وتدور على ألسنة الناس في بغداد بمناسبة هذه الحملة الرواية التالية:

«يُقال إنَّ أحد علماء بغداد سافر إلى القسطنطينية وطلب السماح له بالوعظ وإلقاء خطبة الجمعة في أحد الجوامع الرئيسة التي يصلِّي فيها السلطان وقد سمح له بذلك، خاصة وأنَّه لم يفصح عن قصده. ولما اعتلى المنبر أخذ يتكلَّم عن الحالة المتردية التي حلَّت بالمسلمين ولا سيَّما بسكَّان بغداد والمعاملة الشائنة التي يُلاقونها من الرافضة والإهانات التي يوجهونها لجامع الإمام الأعظم وكيف أنَّهم أخذوا يتغوطون في مسجده ويدنِّسون ضريحه بالقاذورات، إلى أن قال وإنَّه لعار كبير على السلطان وعلى بيت آل عثمان الذين ينتمون إلى مذهب أبي حنيفة أن لا يثأروا لإمامهم ويحرّروا السُّنَّة والمسلمين الأحناف من عبودية الروافض.

ويقع قبر الإمام أحمد بن حنبل أحد أئمة السُّنَّة الأربعة العظام بين الكاظم والمعظَّم وقد جرفه ماء نهر دجلة[1].

---

(1) دُفن الإمام أحمد بن حنبل بمقبرة حرب الواقعة شمالي غربي الكاظمية الحالية وأما القبر الواقع بين الأعظمية والكاظمية على الضفة الغربية لدجلة فكان لعبد الله بن أحمد بن حنبل الذي دُفن في القطيعة الزبيدية قرب دجلة ولما جرفت دجلة قبره =

عقرقوف:

تقع عقرقوف على بعد ساعتين ونصف الساعة من غربي بغداد وهي عبارة عن برج عالٍ كثير الشبه ببرج الحلَّة الذي مرَّ وصفه في ص289 (من الكتاب)(*)، ولكنَّه ليس مبنياً بالآجر وإنَّما باللبن المجفَّف بحرارة الشمس فقط. وبين كل ستة صفوف إلى ثمانية صفوف من اللبن، طبقة من القصب والبردي سمكها نحو إصبعين. وفي هذا البناء أو التل المسوّر بالجدران فتحات صغيرة أفقية ربما كان لها علاقة بطراز البناء ولكن معظمها مسدود. ويبلغ ارتفاع هذا البرج نحو سبعين قدماً ويتراءى القسم الشمالي من البرج عمودياً ويظهر أنَّه كان في هذا المكان مدخل ولكنَّه عالٍ جداً، ولا يمكن الصعود إليه بلا مرقاة. أما في بقية الجهات حيث الطين قد جفّ بحرارة الشمس وتحوَّل إلى تراب فإنَّ قسماً كبيراً من هذا البناء قد انهار وجرف بفعل الرياح بمرور الزمن ولكن المرء يُلاحظ في كل مكان من هذا البناء أنَّ القصب والبردي قد حافظ على هذا البناء من التداعي والانهيار وساعد على بقائه أكثر من اللبن المجفَّف.

إنَّ كثيراً من الرحَّالين والسيَّاح يعتقدون في برج عقرقوف أنَّه

= عدّوا ذلك زوالاً لقبر أبيه. والظاهر أنَّ قبره أُزيل في أيام احتلال الصفويين للعراق بعد سنة 914هـ ـ 1508م (انظر: بغداد مدينة السلام. لمؤلفه ريجارد كوك وترجمة الأستاذين مصطفى جواد وفؤاد جميل. بغداد 1962، ص111 هامش (10) (س.أ).

(*) من كتاب نيبور. وسيُنشر القسم الخاص بجنوب العراق من الرحلة بكتاب آخر. انظر مقدمة المترجم من هذا الكتاب (س.أ).

البرج البابلي ولكن البرج البابلي كان يقع بكل تأكيد بالقرب من الفرات، وعقرقوف لا يقع بعيداً عن دجلة ولذلك فإنَّه لا يمكن الجزم بالضبط بحقيقة هذا البناء والغاية التي بُني لأجلها. ولكن من المحتمل أنَّ خليفة بغداد الأول أو أحد ملوك الفرس الذين اتخذوا المدائن مقراً لهم، شيّد هذا البناء مصيفاً وأقامه بهذا العلو لكي يتلذَّذ بنقاوة الهواء وبرودته.

وبالقرب من عقرقوف تلول كثيرة صغيرة، عليها قطع كثيرة صغيرة متناثرة من كسرات الطابوق والفخَّار، تدلُّ دلالة واضحة على وجود بيوت في هذا المكان ولعلَّها بقايا بيوت وحدائق أو مدينة صغيرة قد تكون قسماً من بغداد القديمة[1].

---

(1) عقرقوف، هي التسمية المحلية التي تُطلق اليوم على مدينة كوري كلزو (دور كوري كلزو) عاصمة الدولة الكاشية (1530 ـ 1660 ق.م). وهي الدولة التي خلفت دولة بابل الأولى في الحكم على وسط العراق وجنوبيه ولم يكن حكّامها من سكنة العراق الأصليين أو من منابت الجزيرة العربية، بل كانوا من القبائل الإيرانية (كشو) التي وفدت على العراق بمرور الزمن واستقرت فيه ثم تعاونت مع الدولة الحثية على تقويض كيان الدولة البابلية. ولكن طبيعة الشعب البابلي وثقافته تغلبتا على هذا العنصر الحاكم الغريب في الناحيتين الحضارية والدينية. ولعبت الدولة الكاشية دوراً مهماً في سياسة الشرق الأدنى القديم يومذاك في المنازعات التي كانت قائمة بين الحثيين والآشوريين والمصريين من أجل السيطرة على بلاد الهلال الخصيب. ثم اشتهرت في العلاقات الثقافية والمراسلات بين بلاطات بابل وآشور والعمارنة وطيبة في بلاد وادي النيل.
أما بقايا البرج القائم الذي يعلو عن سطح الأرض قرابة سبعة وخمسين متراً عن مستوى السهل فإنَّه لبّ الزقورة أو البرج المدرج لهذه المدينة الواسعة وكان الرحَّالون الأولون يتوهمون به فيحسبونه برج بابل. وللاستزادة يُرجى مراجعة: **الكاشيون** للمترجم الدكتور محمود الأمين 1963 «المراجع».

المدائن:

كانت فيما مضى مدينة كبيرة عامرة وبقيت مقراً لملوك الفرس سنوات عديدة بعد وفاة الرسول محمد ﷺ، وتقع على دجلة على بعد أربع ساعات[1] تقريباً من بغداد من جهتها الجنوبية الشرقية. ولم يبق منها اليوم شيء ما خلا قسم من بلاطها الكبير يُطلق عليه تخت كسرى أي قصر خسرو. وهذا القصر مبني من الآجر والجص وليست عليه كتابة، ولما كان قد تعذَّر عليَّ الذهاب إليه وزيارته فإنَّني لا أود أن أذكر عنه أكثر من هذا. ولكن أحد التجَّار الأوروبيين أكّد لي أنَّه قد قاس أحد مداخل هذا القصر فوجد عرضها 89 قدماً وارتفاعها عالياً جداً يبلغ 110 أقدام[2] وعلى هذا الأساس فإنَّ البناء يجب أن يكون واسعاً جداً[3].

وفي هذه المدينة المتروكة عدد من قبور صحابة رسول الله ﷺ ومن بينهم الشخصية المعروفة في التاريخ العربي وهي سلمان پاك وكثيراً ما يُدعى سلمان الفارسي نسبة إلى موطنه الأصلي ويُقال إنَّه وُلد من أبوين ينتميان إلى بيت رفيع الشأن في بلاد فارس وأنَّه كان يعبد النار وقد تنصَّر في سوريا ولكن راهباً نصرانياً نصحه بالسفر إلى الجزيرة العربية للتعرُّف والالتقاء بنبي عربي يسعى لإحياء دين

---

(1) الطريق بين المدائن (سلمان باك) وبغداد أصبح معبداً ويمكن للسيارة أن تقطعه بأقل من ساعة. (س.أ).

(2) يبلغ ارتفاع عقادة الطاق عن مستوى تبليط الأرضية سبعة وثلاثين متراً. أما عرضه فيزيد على خمسة وعشرين متراً (س.أ).

(3) نشر آيفز في كتابه «أسفار آيفز (Ives Reisen)» صوراً لتخت كسرى وعقرقوف والصورة الأخيرة تظهر لي رفيعة جداً بالنسبة لعلو البناء. (المؤلف).

إبراهيم وإعادته. ولكي لا يعتقد سلمان الفارسي أنَّ هذا الراهب يُخادعه فقد أخبره الراهب أنَّ النبي الصحيح هو الذي يحمل على كتفه ختماً. ويُقال إنَّ النبي سمح لسلمان الفارسي برؤية الختم على ظهره. ويبدو أنَّ الرسول ﷺ كان يحاول أن يبقي أمر هذا الختم سرّاً ويختلف كبار العلماء المسلمين في تعليل علاقة هذا الختم بالنبوَّة.

والمسلمون الذين تحدَّثت معهم في بغداد عن أمر سلمان الفارسي ووجود قبره في المدائن لا يعرفون بالضبط عمَّا إذا كان سلمان الفارسي والياً على المدائن أو قاضياً عليها. ولكنَّه معروف لدى الناس أنَّه كان حلَّاق الرسول ﷺ ولذلك فهو إمام الحلاقين المسلمين وحاميهم. ويذهب البغداديون في يوم معيّن من كل سنة إلى المدائن لزيارة قبره وتوزيع الصدقات والهدايا على القائمين بإدارة ضريحه(1)، ويقوم الناس بهذه المناسبة بزيارة ضريح حذيفة اليماني(2) وعبد الله بن سلام(3) اللذين كانا من أصحاب الرسول ﷺ أيضاً.

---

(1) راجع الجزء الأول من كتاب نيبور **صفة جزيرة العرب**، ص440. (المترجم).

(2) حذيفة بن اليمان هو الصحابي حذيفة بن جابر بن ربيعة، سمَّاه قومه باليماني نسبة إلى اليمان. أسلم هو وأبوه وكان من الولاة الشجعان الفاتحين، شهد معركة أحد، ثم تولَّى قيادة الجيش العربي في فتح بلاد العراق وبلاد فارس، وفي سنة 22هـ فتح همدان والري ودينور. ولاه الخليفة عمر المدائن، وكان قبره على ضفة النهر، وكاد النهر يتأتى عليه وعلى قبر عبد الله الأنصاري فنقلت رفاتهما إلى مسجد سلمان پاك في الثلاثينيات (س.أ).

(3) من بين الصحابة الكرام عدد كبير من الأنصار، يسمون بعبد الله الأنصاري. أما من حضر منهم فتح العراق فليس فيهم سوى واحد هو عبد الله بن قتادة بن النعمان =

وفي بغداد عشرون جامعاً لها منائر في أقل تقدير وعدد كبير من المساجد الخالية من المنائر. وفيها اثنان وعشرون خاناً، أربعة منها في الضواحي من بينها ستة خانات إلى سبعة خانات كبيرة يسكنها التجَّار أما البقية فهي صغيرة. كما فيها حمامات كثيرة ومستشفى أو دار للعزل ذو غرف قذرة، مظلمة يحجر فيها جميع المجذومين والمُصابين بالأمراض السارية.

إنَّ أوسع المناطق التي تمتاز بخصب طبيعي والتي تقع في أنحاء البصرة وبغداد، تشتهر بزراعة النخيل والأرز والحبوب كما يكثر في أراضيها الملح. وكثير من منتوجات هذه المناطق تصدر إلى الخارج كما أنَّ تجارتها الخارجية مزدهرة لوقوعها بين الهند وإيران وتركيا. وقد دفعت القلاقل والاضطرابات الداخلية في بلاد فارس عدداً كبيراً من الأرمن إلى النزوح إلى بغداد والبصرة وضواحيها فأنشؤوا فيها المعامل للصناعات المختلفة. وكانت مدينة بغداد تشتهر في أيام الخلفاء بالعلوم والنشاط الثقافي، أما اليوم فقد أُهملت هذه الناحية وأصبحت البلاد في جهل مطبق وفي حالة أسوأ ممَّا في مصر واليمن. فقد وجدت في بغداد عدداً قليلاً من الناس ممَّن يعرفون القراءة والكتابة. وإذ هناك في القاهرة مكان يشتري منه المسلمون كتباً قديمة فليس في بغداد محل كهذا أبداً! فإذا ما أراد أحد أن يقتني كتباً بغير أن يكلِّف نفسه عناء

= الأنصاري. وقد صحب النبي ﷺ وشهد بيعة الرضوان والمشاهد بعدها، ثم حضر فتح العراق. فجائز أن يكون هو صاحب القبر. أما عبد الله بن سلام فلم يرد ما يُشير إلى مجيئه العراق. (س.أ).

الاستنساخ أو تكليف أحد به. فإنّه ينتظر حتى يموت أحد الجامعين للكتب وعندها تُباع في السوق كما تُباع الألبسة القديمة وينادي عليها الدلالون للمزايدة على أثمانها.

والأجنبي الذي يريد شراء مخطوطات عربية أو فارسية أو تركية عليه أن يذهب إلى القسطنطينية فإنَّها تُعدّ أحسن مكان لشراء الكتب، وذلك لوجود مكتبات كثيرة فيها حيث يستطيع النصارى ولا سيَّما نصارى بلاد الشرق شراؤها.

إنَّ التجارة الأوروبية في بغداد ليست واسعة ومنتشرة، ولشركة التجارة الهندية الإنكليزية الشرقية وكيل في بغداد يأتي إليها من بومباي خصيصاً بين حين وآخر وكان قد عاد إلى بومباي عند قدومي إلى بغداد لأنَّه لم يجد فائدة ما في تصريف بضائع الشركة المذكورة في هذه البلاد. إلا أنَّه كان في بغداد تاجر شاب من البندقية وكان يقوم بتعامل تجاري ناجح لا يجلب الشكوك والظنون كما هي الحالة مع بقية تجار الشركات الأجنبية الكبيرة وممثّليهم.

فلما غادرت البصرة في طريقي إلى بغداد أعطاني السيد ليوني وهو تاجر إيطالي غني يُقيم في البصرة رسالة توصية إلى التاجر الشاب المذكور الذي كان يقوم بتمشية معاملات السيد ليوني التجارية في بغداد ويشتري له البضائع والمواد الخام من أنحاء القطر. وقد عاملني هذا الرجل معاملة طيِّبة وقابلني بكلّ احترام وأسدى لي مساعدات كثيرة. كذلك يُقيم في بغداد رهبان

أوروبيون من حملة المرتبة الكرملية أو الكرمليين. وكان لأحدهما لقبان من ألقاب الشرف يختلف كل لقب على الآخر اختلافاً كبيراً فقد كان يحمل لقب الرسول البابوي لبلاد بابل لقب القنصل الفرنسي في بغداد أيضاً وكان محبوباً جداً من المسلمين والنصارى على السواء إلا أنَّه كان مسافراً إلى أوروبا أثناء إقامتي في بغداد.

أما رفيقه وأخوه في المهنة فقد كان شخصاً غريب الأطوار مثل معظم الآباء لهذه الطائفة الدينية الذين صادفتهم في أسفاري في بلاد المشرق. فقد مضى زمن طويل على مغادرة الكبوشيين أو الفرنسيسْكان (وهي إحدى الطوائف المسيحية التي تأسست سنة 1525م وشعار كهنتها هو غطاء الرأس المدبّب واللحية الطويلة) لهذه المدينة. وجميع هؤلاء الرهبان الذين يأتون إلى هذه المناطق يفهمون شيئاً من الطبابة والعقاقير بحيث يكون لهم هذا بمثابة شفيع قوي لنيل الحظوة والمكانة الرفيعة لدى رؤساء الأتراك وأشرافهم.

وكلهم من المبشِّرين ولكن لا ليجعلوا المسلمين نصارى لأنَّ هذا عمل يكسبهم شرف الاستشهاد في سبيل الدِّين فيصبحوا كلهم شهداء قديسين، بل ليدخلوا النصارى في مذهب الاعتراف بالبابا بأنَّه الرئيس الديني الأعلى وسيد الكنيسة. ومن السهل على المرء أن يُدرك أنَّ الرؤساء الروحانيين للطوائف المسيحية الأخرى لا يرضون على هذا العمل الذي يقوم به هؤلاء الكرمليون، فإذا ما أظهروا تذمُّراً واشتكوا لدى الحكومة التركية على أعمال هؤلاء المبشِّرين فإنَّهم

يقومون بإرشائهم ودفع كميات لا بأس بها من المال لقاء سكوت السلطات التركية عن أعمالهم. ولقد تمكَّن الكرمليون في بغداد من إدخال عدد كبير من نصارى بلاد المشرق في مذهبهم حتى أنَّهم تمكَّنوا من أن يحملوا النساطرة والمسيحيين الأصليين لهذه البلاد والنصارى المتدينين على ترك كنائسهم. وفي بغداد عدد كبير من اليهود ولكن ليس فيها البانيان[1] وعبدة النار مطلقاً.

لقد ذكرت قبل هنيهة أنَّ المعرفة بعلم العقاقير والأدوية هي أهم واسطة يتبعها هؤلاء الرهبان لحماية أنفسهم في البلاد التركية. ولكن أحد الأطباء الأوروبيين الماهرين لاقى في هذه البلاد صعوبة كبيرة في سبيل تحقيق الحياة الرغيدة التي ينشدها، وكان اسمه الدكتور دي أربل D'Erbel وكان قد قدم إلى القسطنطينية بسماح سلطاني (فرمان)، بدافع الرغبة لمشاهدة العالم والتعرُّف عليه ثم سافر إلى آسيا آملاً أن يحصل على نفقات أسفاره ومعيشته عن طريق علمه وطبابته وهكذا حطّ رحاله في بغداد أيضاً. وأصبح هذا الدكتور في بغداد حكيم باشي (أي طبيب الباشا الخاص) وراجت طبابته لا سيَّما بين أعيان بغداد وأثريائها. ولكن هؤلاء الأشراف والأثرياء كانوا يدفعون له أجوراً قليلة جداً. أما الباشا فكان لا يدفع له شيئاً مهما ألحّ في طلب الأجرة. وأخيراً قرَّر البحث عن حظّه عند الإنكليز المقيمين في الهند الشرقية فرحل

(1) طائفة من عبدة الأوثان في الهند شاهدها المؤلف أثناء مكوثه في بلاد الهند لدراسة أحوالها وأهلها (س. أ).

عن بغداد. ولما أصبح خارج بغداد قاصداً الحلَّة أتاه رسول من الكخيا وأمره بالعودة إلى بغداد بحجَّة أنَّ الباشا قرَّر الخروج إلى مقاتلة الأعراب ولربما يعود من المعركة بجرحي وعندها يستلزم وجود طبيب حاذق. واستطاع تحت وطأة هذه الأحوال إرسال جميع أمتعته بمساعدة الإنكليز إلى البصرة. ولما تمكَّن في إحدى المرَّات من الحصول على سماح بالذهاب إلى مشهد علي لعيادة أحد وجهائها، رحل عن بغداد وسافر إلى هذه البلدة أيضاً.

لقد صادفت هذا الدكتور دي أربل في البصرة عندما كان معتزماً على السفر إلى بومباي والبنغال على ظهر سفينة إنكليزية وقد عاد أيضاً إلى أوروبا ولعلَّنا نحصل منه أيضاً على وصف لرحلته.

لقد ذكرت فيما سبق أنَّ السلطان مراد غزا بغداد وانتزعها من يد الفرس سنة 1638م الموافقة لسنة 1048هـ ومنذ ذلك الحين فقد حكم بغداد الباشوات التالية أسماؤهم[1] التي يجدها القارىء الكريم في الصفحات التالية:

(1) ليس لأهالي بلاد المشرق أسماء أُسر يسمون بها كما هي الحالة في أوروبا كما أنَّ معظم أولاد الباشوات هم من آباء مسيحيين، يرسلون صغاراً إلى تركية لذلك فإنَّ جميع الأسماء المسلمة التي تُعطى لهم تكون متشابهة وللتمييز بين باشا وآخر فإنَّه تُعطى لهم تسميات إضافية بهيئة أرقام. ولقد دوّنت عدداً من معاني هذه الأرقام للدلالة عليها ولمعرفة ذوق الذوات من الأتراك في اختيار الأسماء ومعانيها .(المترجم).

آثرنا نشر قائمة ولاة بغداد كما ذكرها نيبور بالرغم من وجود أخطاء فيها، وتقديم وتأخير في أسماء أولئك الولاة، وجعلناها في صفحات متتابعة مع قائمة الأستاذ العزاوي:

أسماء الولاة	تاريخ توليتهم	عدد سني ولايتهم
1 ـ كوچك (الصغير) حسن باشا	سنة 1049هـ	سنة واحدة
2 ـ درويش محمد باشا محمد باشا	سنة 1050هـ	سنتان
3 ـ كوچك حسن باشا	سنة 1052هـ	سنتان
4 ـ دلي (المجنون) حسن باشا	سنة 1054هـ	سنة واحدة
5 ـ موسى باشا	سنة 1055هـ	سنة واحدة
6 ـ محمد باشا	سنة 1056هـ	سنة واحدة
7 ـ مقتول إبراهيم باشا	سنة 1057هـ	سنة واحدة
8 ـ أرسلان باشا	سنة 1058هـ	سنة واحدة
9 ـ حسين باشا	سنة 1059هـ	سنة واحدة
10 ـ ملك أحمد باشا	سنة 1060هـ	سنة واحدة
11 ـ قره (الأسود) مصطفى باشا	سنة 1061هـ	أربع سنوات
12 ـ مرتضى باشا	سنة 1065هـ	ثلاث سنوات
13 ـ كرام محمد باشا (ذو الكرم الكثير)	سنة 1068هـ	سنة واحدة
14 ـ خاصكي محمد باشا. (وقد حصل هذا الباشا على لقب الخاصكي لأنَّه سبق له أن اشتغل في القسطنطينية في فرقة تعقيبات قطاع الطرق).	سنة 1069هـ	ثلاث سنوات
15 ـ قنبور (ومعناه الأحدب) مصطفى باشا	سنة 1072هـ	سنتان

16 ـ بومبوق[1] (معناه العاقل) مصطفى باشا	سنة 1074هـ	سنة واحدة
17 ـ قره (ومعناه الأسود) مصطفى باشا	سنة 1075هـ	سنة واحدة
18 ـ إبراهيم باشا	سنة 1076هـ	سنتان
19 قره مصطفى باشا	سنة 1078هـ	أربع سنوات
20 ـ سلحدار (ومعناه حامل السيف وقد كان في خدمة السلطان) حسين باشا	سنة 1078هـ	أربع سنوات
21 ـ عبد الرحمن باشا	سنة 1086هـ	سنة واحدة
22 ـ قبلان باشا	سنة 1087هـ	سنتان
23 ـ عمر باشا	سنة 1089هـ	أربع سنوات
24 ـ إبراهيم باشا	سنة 1093هـ	سنتان
25 ـ عمر باشا	سنة 1095هـ	سنتان
26 ـ سرحوش أحمد باشا	سنة 1097هـ	سنتان
27 ـ عمر باشا	سنة 1099هـ	سنتان
28 ـ حسن باشا (يتولى لأول مرة)	سنة 1100هـ	سنتان
29 ـ بزركان (ومعناه التاجر) أحمد باشا	سنة 1102هـ	سنة واحدة
30 ـ كتخدا أحمد باشا	سنة 1103هـ	سنتان
31 ـ قالايلي[2] أحمد باشا	سنة 1105هـ	سنة واحدة
32 ـ علي باشا	سنة 1106هـ	سنتان

---

(1) وقع نيبور في خطأ في ترجمته لكلمة (بومبوق) التركية بالعاقل، بينما المعنى الصحيح هو (نجس جداً) وقد ورد لقب مصطفى باشا في السالنامه التركية لولاية بغداد (بموق) مصطفى باشا ومعناها (قطن) لكونه أبرص (راجع: رحلة نيبور في بغداد في القرن الثامن عشر. بغداد 1954) للأستاذ سعاد هادي العمري (س.أ).

(2) قالا يلامق، في التركية التي يتداولها العامة في اسطنبول معناها (سب أو شتم) و(قالايلي) صفة منها (راجع نفس المصدر للعمري ص35). (س.أ).

33 ـ إسماعيل باشا	سنة 1108هـ	سنتان
34 ـ دلدبان (وقد كان يلبس سروالاً أحمر) مصطفى باشا	سنة 1110هـ	سنتان
35 ـ يوسف باشا	سنة 1112هـ	سنة واحدة
36 ـ علي باشا	سنة 1113هـ	سنة واحدة
37 ـ حسن باشا (يتولى للمرة الثانية)	سنة 1114هـ	اثنتان وعشرون سنة
38 ـ أحمد باشا (يتولى لأول مرة)	سنة 1136هـ	إحدى عشرة سنة
39 ـ إسماعيل باشا	سنة 1147هـ	سنة واحدة
40 ـ طوبال (الأعرج) محمد باشا	سنة 1148هـ	سنة واحدة
41 ـ أحمد باشا (الولاية الثانية)	سنة 1149هـ	اثنتا عشرة سنة
42 ـ حاج أحمد باشا	سنة 1161هـ	إن هؤلاء الولاة الأربعة حكموا سنتين
43 ـ رشيد باشا	سنة 1161 هـ	
44 ـ أولجي باشا	سنة 1161 هـ	
45 ـ محمد باشا، ترياكي[1] (ومعناه العجول)	سنة 1161 هـ	
46 ـ سليمان باشا	سنة 1163هـ	ثلاث عشرة سنة
47 ـ علي باشا العجمي	سنة 1176هـ	سنتان
48 ـ عمر باشا	سنة 1178هـ	أحد عشر سنة

(1) الترياكي ـ هو الشخص المدمن على استعمال المخدرات والمكيفات كالأفيون والحشيش والترياق أوالترياك. (س.أ).

ندرج أدناه قائمة الولاة مع مدة ولايتهم وقد اعتمدنا في ذلك على كتاب دليل خارطة بغداد المنقولة عن كتاب تاريخ العراق بين احتلالين للمؤرخ الأستاذ عباس العزاوي المحامي (وهي فترة تبتدىء بانتزاع السلطان العثماني مراد الرابع مدينة بغداد من أيدي الصفويين عام 1048هـ - 1638م وتنتهي بزيارة نيبور بغداد).

أسماء الولاة	تاريخ توليتهم	عدد سني ولايتهم
1 - كوچك حسن باشا	1048 - 1049هـ	1
2 - درويش محمد باشا	1049 - 1052هـ	3
3 - كوچك حسن باشا (ثانية)	1052 - 1054هـ	2
4 - دلي حسن باشا	1054هـ	-
5 - محمد باشا آل حيدر آغا	1054 - 1055هـ	1
6 - كوچك موسى باشا	1055 - 1056هـ	1
7 - إبراهيم باشا	1056 - 1057هـ	1
8 - سمين موسى باشا[1]	1057 - 1058هـ	1
9 - ملك أحمد باشا	1085 - 1059هـ	1
10 - أرسلان باشا بن نوغاي باشا	1059 - 1060هـ	1
11 - حسين باشا	1060 - 1061هـ	1
12 - سلحدار قره مصطفى باشا	1061 - 1063هـ	2
13 - سلحدار مرتضى باشا	1063 - 1065هـ	2

(1) أي موسى باشا السمين ولقب أيضاً قبوجي. (س.أ).

14 ـ آق محمد باشا (أي محمد باشا الأبيض)	1065 ـ 1067هـ	2
15 ـ محمد باشا الخاصكي	1067 ـ 1069هـ	2
16 ـ سلحدار مرتضى باشا (ثانية)	1069 ـ 1072هـ	3
17 ـ مصطفى باشا القنبور (أي الأحدب)	1072 ـ 1074هـ	2
18 ـ مصطفى باشا الينبوع (أي القطني)	1074هـ	-
19 ـ سلحدار قره مصطفى باشا (ثانية)	1075هـ	-
20 ـ أوزون إبراهيم باشا (أي إبراهيم باشا الطويل)	1075 ـ 1077هـ	2
21 ـ سلحدار قره مصطفى باشا (ثالثة)	1077 ـ 1081هـ	4
22 ـ سلحدار حسين باشا	1082 ـ 1085هـ	2
23 ـ عبد الرحمن باشا	1085 ـ 1087هـ	2
24 ـ قبلان مصطفى باشا	1087 ـ 1088هـ	1
25 ـ سلحدار عمر باشا	1088 ـ 1092هـ	4
26 ـ إبراهيم باشا	1092 ـ 1095هـ	3
27 ـ سلحدار عمر باشا (ثانية)	1095 ـ 1098هـ	3
28 ـ أحمد باشا البوشناق	1089 ـ 1099هـ	1
29 ـ سلحدار عمر باشا (ثالثة)	1099 ـ 1101هـ	2
30 ـ حسن باشا	1101 ـ 1102هـ	1
31 ـ أحمد باشا البازركان	1102 ـ 1103هـ	2
32 ـ أحمد باشا الكتخدا	1103 ـ 1105هـ	2
33 ـ أحمد باشا	1105 ـ 1107هـ	2
34 ـ علي باشا	1107 ـ 1110هـ	3
35 ـ إسماعيل باشا	1110 ـ 1111هـ	1
36 ـ مصطفى باشا (دال طبان)	1111 ـ 1114هـ	3
37 ـ يوسف باشا	1114 ـ 1115هـ	1

38 ـ علي باشا (ثانية)	1115 ـ 1116هـ	1
39 ـ حسن باشا الجديد (أدخل نظام المماليك)	1116 ـ 1136هـ	20
40 ـ حسن باشا زاده أحمد باشا	1136 ـ 1147هـ	11
41 ـ حاج إسماعيل باشا	1147 ـ 1148هـ	1
42 ـ صدر أسبق محمد باشا	1148 ـ 1149هـ	1
43 ـ أحمد باشا (ثانية)	1149 ـ 1160هـ	11
44 ـ صدر أسبق الحاج أحمد باشا	1161هـ	1
45 ـ كسريه لي الحاج أحمد باشا (بداية حكم المماليك)	1161هـ	1
46 ـ سليمان باشا (أبو ليلة)	1162 ـ 1175هـ	13
47 ـ علي باشا	1176 ـ 1177هـ	1
48 ـ عمر باشا	1177 ـ 1189هـ	12

ب

بسم الله الرحمن ا
لرحيم الله لا إله ا
لا هو الحي القيوم
لا تأخذه سنة ولا نوم
له ما في السموات
وما في الأرض من ذ
ا الذي يشفع عند
ه إلّا بإذنه يعلم ما
بين أيديهم وما خلفهم
ولا يحيطون بشيء
من علمه إلّا بما شاء
وسع كرسيه
السموات والأرض
ولا يؤوده حفظهما
وهو العلي العظيم

ح

اللهم صلي على
محمد وآله

أ

بسم الله الرحمن
الرحيم قل هو
الله أحد الله
الصمد لم يلد و
لم يولد ولم يكن
له كفواً أحد
هذا قبر جعفر
بن معمر رحمه
الله وغفر
له صلّى الله على
محمد وعلى
آل محمد

د

الله ولي التوفيق

أ - كتابة بالخط الكوفي الجميل استنسخها نيبور عن شاهد قبر إلى شخص مدفون في مسجد الكوفة اسمه جعفر بن معمر. وتبتدىء الكتابة بسورة الإخلاص/ 112 (س. أ).

ب - آية الكرسي من سورة البقرة/ 255 (س. أ).

ب



د

و

ز

(الشكل ـ 3)

نماذج من الكتابات الكوفية التي استنسخها نيبور
ويجد القارىء قراءة البعض منها في الصفحة السابقة

و ـ ؟

ز ـ ؟

لقد كانت بغداد حتى ولاية حسن باشا للمرة الثانية في سنة 1114هـ[1] (الموافقة سنة 1702م) في حالة سيئة جداً ووضع متردٍّ، فالولاة الذين سبقوه في الحكم عليها كانت ولايتهم لمدة قصيرة ولم يقوموا بإصلاح ما، كما لم تكن لهم سلطة ما خلا الاسم فقط. ففي داخل المدينة كان الينيچرية هم الحاكمون والمسيطرون على كل شيء أما في خارجها فقد كان الأعراب هم المتنفذون وكانت التجارة مهدّدة بالنهب فيضطر التجار السوريون والأتراك على السفر إلى أصفهان لشراء البضائع التي كانت ترد إليها من جميع الأقطار ولا سيَّما من الهند.

لقد بقي حسن باشا مدة طويلة في الولاية على بغداد فاستطاع القضاء على شوكة الينيچرية وعلى القبائل العربية فوطّد بذلك دعائم الأمن والطمأنينة في ولايته. ولكنَّه كان والياً على بغداد والمقاطعات التابعة لها فقط. أما مقاطعة شهر الصول (شهرزور) التي تعود لها معظم أقسام مناطق كردستان فقد كان لها والٍ مستقل من الدرجة الأولى، وكان لمدينة البصرة والمقاطعات التابعة لها والٍ أيضاً. كذلك كان يحكم ولاية ماردين والٍ يعيّنه السلطان.

وصادف في عهد ولاية حسن باشا أن نشبت ثورات عديدة في بلاد فارس، فاغتنم الأتراك الفرصة لاقتطاع عدد من مقاطعاتها. فاستعدّ حسن باشا للقيام بغزو بلاد فارس ولكنَّه قام في بادىء الأمر

(1) تولّى ولاية بغداد في هذه السنة يوسف باشا (1114 ـ 1115هـ) بعد مصطفى باشا (دال طبان) 1111 ـ 1114هـ، وليس حسن باشا. (س.أ).

بتوسيع سلطات ولايته فضمَّ إليه باشلق ماردين ووسَّع حدودها. وقد عرف حسن باشا كيف يستخدم العرب ولا سيَّما القبائل العربية لهذا الغرض، فقد كان العرب يسبِّبون دائماً وأبداً المشكلات للولاة الأتراك الذين يعيّنون على البصرة وكان الوالي لا يصمد فيها طويلاً فإما أن يقفل راجعاً إلى القسطنطينية على الفور أو أنَّه يبقى على مضض ويلقى أنواع المزعجات من سكَّانها. وقد كان الوالي يتكبَّد نفقات مالية كثيرة في قضائه على الثورات والتغلُّب على العقبات. لذا فإنَّ كثيراً من الولاة لا يرغبون في الحصول على منصب ولاية البصرة. وقد مكَّنت هذه الحالة حسن باشا من التوسُّط لدى السلطان لإسناد منصب ولاية باشلق البصرة لابنه أحمد، فحصل عليها بعد جهد جهيد وبعد أن تعهَّد للسلطان بدفع مقدار معيَّن من المال كلّ سنة.

توفي حسن باشا عن مرض لازمه في كرمنشاه أثناء قيامه بحملة عسكرية على مدينة همدان وبعد أن حكم اثنتين وعشرين سنة قمرية فزحف بسرعة ابنه أحمد والي البصرة والذي كان يرافق والده في الحملة، على همدان، واحتلها بمدة قصيرة، فحاز بذلك على شهرة كبيرة قلَّده على أثرها السلطان منصب ولاية بغداد وولاية ماردين إضافة إلى ولاية البصرة حتى يتيح له شنّ الحرب ومواصلتها على الفرس بحماس كبير وقوَّة أكثر شدَّة من ذي قبل.

لقد صادف في زمنه حصار نادر شاه لبغداد في سنة 1732م مدة ثمانية أشهر ولكنَّه تمكَّن من إقناع هذا العدو اللدود للأمبراطورية التركية بالعودة إلى بلاده وذلك بأن أعاد إليه المدافع التي سبق له أن استولى عليها في همدان. على أنَّ وزيره الذي اصطحبه في

حملته العسكرية على همدان أخذ يُشاغب عليه بدافع الحسد لدى السلطان فتمكَّن من إزاحته عن الولاية، فأرسل السلطان والياً جديداً إلى بغداد. وكان الاعتقاد السائد أوانئذٍ أنَّ من الصعب أن يتخلى أحمد باشا بسهولة عن هذه الولاية الضخمة، فاتهمه الوزير عند السلطان بالعصيان على الدولة التركية وطالب برأسه ولكن أحمد باشا امتثل لأوامر السلطان وذهب إلى القسطنطينية. وجاء إلى بغداد في خلال سنتين فقط عدَّة ولاة أخفقوا في إدارة الولاية بسبب المشكلات الكثيرة التي تلقّوها من سكَّان بغداد ومن القبائل العربية فاضطر السلطان إلى تبديل الوالي في كل بضعة أشهر. ثم عمَّت الفوضى في أنحاء الولاية كما ازداد ضغط نادر شاه على القوات التركية المُرابطة في هذه الولاية وتفاقم سلطانه، الأمر الذي حدا بالسلطان إلى أن يرسل أحمد باشا مرَّة أخرى والياً على بغداد حتى لا يفقد هذه الولاية. وبدأ أحمد باشا يوسِّع نفوذه على الولايات المجاورة، وإذ هو يعلم أنَّه لا يقوى على محاربة نادر شاه والتطلُّع بشراهة إلى بلاد الفرس إلا أنَّه كان عارفاً بمهمته ومضطلعاً بها باعتباره قائداً أعلى للقوات التركية التي أخذت على عاتقها صدّ هجمات نادر شاه. وبهذه العزيمة وبالقوَّة التي كانت بأمرته بسط سلطانه على مناطق كردستان وبقية المقاطعات التابعة لولاية شهرزور ولم يستطع مدّ نفوذه إلى كركوك وبضعة قرى تابعة لها إذ كانت تحكم من والٍ ذي طوغتين[1] أي أقل منه مرتبة وشأناً.

(1) ذيلا حصانين (وبسكولين أو طوغتين) والطوغة: ذيل حصان (Ronschweifen) وقد ورد ذكرها سابقاً في هذا الكتاب .(المترجم).

ويذكر عن نادر شاه أنّه قال: «إنَّ أحمد أذكى من كليهما». أي إنَّه أذكى من نادر شاه ومن السلطان ذلك أنَّه عندما أراد السلطان عزله عن ولاية بغداد فسح المجال للفرس لمحاصرة البصرة[1] فكانت النتيجة أنَّ السلطان لم يكتف بإبقائه في ولايته بغداد، بل إنَّه زوَّده بالمال وبالمدافع الكثيرة وبكل ما كان يطلبه من الإمدادات العسكرية بحجَّة الدفاع عن الممتلكات العثمانية.

واستفحل أمر أحمد باشا وأصبح خطراً يهدِّد السلطان لدرجة أنَّ السلطان حاول مرَّات عديدة اغتياله فكان يوفد لهذه المهمة إلى بغداد قاپوچي[2] باشي «الحاجب أو رئيس خدم السلطان» لقتل أحمد باشا وحمل رأسه إلى السلطان ولكن أحمد باشا كان كبقية الباشوات. فكانوا يخبرونه بكل ما كان ينوي له السلطان من شر. وكان له أصدقاء على طول الطريق بين القسطنطينية وبغداد وكانت مهمتهم إما قتل هؤلاء القاپوچيين أو سلبهم حال وصولهم الحدود. وصادف أنَّ أحد هؤلاء القاپوچيين تمكَّن من التسلُّل وأسرع متوجهاً إلى بغداد ولم يسمع أحمد باشا به إلا قبيل وصوله بغداد ببضع ساعات، فخرج إليه مع عدد من أفراد حاشيته وخدمه على ظهور الخيل بحجَّة القيام بلعبة الجريد.

(1) كتب الرحَّالة أوتر (Otter) الذي زار البصرة في عهد ولاية أحمد باشا ومكث فيها بعض الوقت، شيئاً كثيراً عن الثورات التي أضرمها العرب والحملات التي جهَّزها نادر شاه على الأتراك وقد جاءت أخباره مؤيدة لما ذكرناه أعلاه. (المؤلف).

(2) القاپوچي باشي لقب تركي معناه رئيس البوابين في البلاط العثماني، الذين يرشدون المدعوين والناس إلى الطريق عند اجتماع الديوان (س.أ).

ولعبة الجريد هذه تركية، وهي معروفة في أوروبا وتكون بأن يرافق كل فارس سائس يحمل معه جعبة ملأى بالجريد. والجريد عبارة عن رمح طوله أربعة أقدام، يحمله الفارس على ظهره ويطارد به هدفه. وكان الفرسان يجتمعون في مكان معين فيجلس الشيوخ والمعمرون تحت شجرة أو عند عين ماء فيشربون القهوة ويدخنون التبغ. أما الشباب منهم فيتقدَّمون مزدوجين على ظهور الخيل نحو العدو لطعنه ويبحثون عن فرصة معينة يغافلونه فيها ليطعنوه طعنة قاضية.

فعندما خرج أحمد باشا بحجة لعبة الجريد، لاقى قاپوچي باشي على أبواب المدينة، فاستقبله استقبالاً حافلاً يليق بكل شخص يوفده السلطان. ولما كانت لعبة الجريد من جملة الألعاب الراقية التي تزاولها طبقة الأشراف من الأتراك وعلّيتهم، فقد دعا أحمد باشا ضيفه للمشاركة معه في هذه اللعبة. ولما أتوا في طرادهم إلى ساحة فسيحة، طلب أحمد باشا من ضيفه أن ينازله، فأجاب الطلب لما في ذلك من شرف كبير في منازلة الوالي، وتقدَّم إليه أحد السياس وأعطاه جريداً. فتبعه أحمد باشا بجريد انتزعه من جعبة سائسه وصوَّبه على رأس القاپوچي باشي فاخترقه. فقفز أحمد باشا من جواده وأسرع إلى ضيفه الذي كان ينازع سكرات الموت فاحتضنه وأخذ يعتذر منه بأنَّه استل خطأ جريداً حقيقياً (والجريد الحقيقي هو الذي يكون في طرفه رأس رمح من الحديد) وأنَّه لم يقصد قتله مطلقاً وإنَّما كانت دعوته للمساهمة في هذه اللعبة من قبيل المصادفة لا غير. وقد مات موفد السلطان

فأرسل أحمد باشا ما كان يحمله من أوراق إلى السلطان مقدِّماً الاعتذارات على هذه الحادثة.

ترك أحمد باشا ابنتين من زوجته عادلة خاتون وكان قد وعد أحد خدمه بإعطاء ابنته الكبرى إياه لتكون زوجة له وذلك إثر حادثة غير موفَّقة وقعت له. فقد كان مغرماً بصيد الأسود وكثيراً ما قتل عدداً منها بيده وكان لا يسمح لأحد أن يساعده كدليل على شجاعته. وصادف ذات مرَّة أنَّه طارد أسداً كبيراً وكان بمعيته أربعون رجلاً من حاشيته وخدمه، آثروا البقاء في المؤخرة وتركوا أحمد باشا وحده يستأنس بمطاردة الأسود وصيدها ولكن واحداً منهم وكان اسمه سليمان من أصل جورجي (گرجي)، اشتراه حسن باشا وربَّاه وهذَّبه، لم يرق له أن يترك سيده يُصارع الأسد فلحق به عن بعد. وبعد طراد عنيف لحق أحمد باشا بالأسد وهاجمه ولكن رمحه انكسر ولم يجد أمامه بدّاً من الهرب، إلا أنَّ سليمان كان قد أسرع لمساعدته فطعن الأسد وقضى عليه وبذلك أنقذ حياة سيده الذي كان مقضياً عليه حتماً. فوعده أحمد باشا بابنته لقاء هذا العمل الذي أنقذه من الموت وأصبح سليمان في الحال الخازندار بعد أن كان خادماً بسيطاً عند سيده ثم أخذ يتقدَّم بسرعة في مراتب الشرف حتى صار كخيا. وكان هذا المنصب مهماً في بغداد إذ يُعادل مقام الوزير لدى السلطان.

توفي أحمد باشا بعد أن حكم ثلاثاً وعشرين سنة قمرية على باشلق بغداد الواسع وذلك أثناء قيامه بحملة عسكرية على الأكراد الذين امتنعوا عن دفع الضرائب المعتادة.

إنَّ جميع حكَّام المقاطعات والمدن التابعة لباشلق بغداد كانوا ينعمون بسعادة تامة في ظل حكم أحمد باشا ووالده حسن باشا كما كان السكَّان في عهديهما يتمتعون بالرخاء والطمأنينة وقد ظلوا أوفياء للكخيا سليمان أيضاً بدافع وفائهم لوالد زوجته وجدِّها إضافة إلى ذلك أنَّهم كانوا يحبونه لشجاعته. وقد قابل السلطان خبر وفاة أحمد باشا بكل ارتياح لأنَّه كان يتمنَّى دائماً وفاته ولكي لا يبقى الحكم في أسرة أحمد باشا، أرسل على الفور والياً جديداً إلى بغداد وتوابعها من المقاطعات المهمة ثم عيّن سليمان والياً على البصرة لإرضاء السكَّان الذين كانوا يحبونه. ولكن الولاة الذين جاؤوا إلى بغداد وجدوا صعوبات جمَّة في مزاولة سلطانهم على هذا الباشلق الخطير وحكمه، كما أخذ الناس يستخفون بهم لضعفهم. فقد صادف أنَّ أحد هؤلاء الولاة مُني باندحار شنيع على يد الأعراب فلما رجع إلى بغداد أخذ الناس يسخرون منه ويستهزئون به. وآخر توفي في طريقه إلى بغداد، وكانت شكاوى الناس وتذمّرهم تترى على السلطان لعدم قدرتهم على ممارسة الحكم والنهوض بأعباء منصب الولاية الخطير. ففي خلال أربع سنوات قدم بغداد أربعة ولاة لم يرتح الناس لواحد منهم. وأخيراً سار سليمان[1] على رأس جنوده (ايج اغاسي) من البصرة إلى السماوة ولكن والي بغداد طلب منه أن يعود. إلا أنَّ سليمان باشا واصل زحفه إلى الديوانية وكان يحكمها آنئذٍ علي آغا وقد سبق لهذا أن خرج على والي بغداد

---

(1) هو سليمان أبو ليلة 1162 ـ 1175هـ (1748 ـ 1761م). (س.أ).

وتواطأ مع سليمان باشا لقاء كمية معيَّنة من المال، فتظاهر بالتضامن مع والي بغداد وهرب لاجئاً إليه وأخبره بزحف سليمان باشا فجمع والي بغداد جيشاً قوامه أربعة عشر ألف مقاتل وسار على رأسه لمقاتلة سليمان باشا فالتقى بجيش سليمان باشا بالقرب من الحلَّة وكان عدد أفراده ثمانمائة مقاتل.

فاستغرب الوالي لقلَّة عدد قوات سليمان باشا واعتقد أنَّه سيستسلم له ولكن علي آغا استطاع أثناء إقامته القصيرة في بغداد إقناع جميع رؤساء الفرق العسكرية من الانضمام إلى سليمان باشا. وتقدَّم العدو حسب الخطة المرسومة وهاجم والي بغداد على الفور فدحره ولاذ الباشا بالفرار إلى بغداد ولكنَّه وجد أبوابها قد أُقفلت بوجهه. أما سليمان باشا فإنَّه استقبل استقبالاً حافلاً وأقام له الأهلون الأفراح. ثم أمر سليمان باشا بإقامة ديوان كبير جمع فيه علّية القوم وأشراف المدينة وطلب منهم أن يقدِّموا عريضة شكوى على جميع الباشوات الذين أرسلتهم القسطنطينية لترفع إلى السلطان يشرحون فيها الحالة السيئة التي وصلت إليها البلاد في عهدهم منذ وفاة أحمد باشا وأنَّه ليس هناك شخص يتمكَّن من القضاء على الفوضى السائدة في هذا الباشلق ويقوى على إدارته إلا سليمان باشا. ولم تمض مدة طويلة على وجود سليمان باشا في بغداد حتى جاءت موافقة السلطان على تنصيبه والياً على جميع المقاطعات والأمصار التي كانت تحت سيطرة حسن باشا وأحمد باشا.

حكم سليمان باشا ثلاث عشرة سنة قمرية كان خلالها محبوباً

من جميع طبقات الشعب حتى أنَّ الأعراب أقاموا له عند وفاته المناحات وأخذوا يقولون فيه المرثيات التي ما زالت تُسمع في المقاهي وفي المحلات العامة وفي الشوارع من بغداد. ولم يسبق أن اتصف الأعراب بالهدوء والسكينة في عهد من العهود إلا في عهده وعهدي أحمد باشا وحسن باشا. فقد كان فيما مضى لا يسمح لأية قافلة أو واسطة نقل بالسفر من الحلَّة إلى البصرة بغير حراسة قوية من الرجال ولكن لقاء مبلغ باهظ من المال، أما في زمن حكمه وفي أثناء ولاية حسن باشا وأحمد باشا فإنَّه أصبح باستطاعة المرء أن يُسافر لوحده بغير حاجة إلى رفقة أو حراسة سواء أكان السفر في دجلة أم في الفرات أم في البر، ولا يجسر أحد على نهبه وسلب ما عنده من متاع. وفي هذه الفترة عندما أصبح التجار في بلاد فارس لا يأمنون على أرواحهم وأموالهم تحوَّلت التجارة إلى هذه البلاد عن طريق البصرة وبغداد وقد كانت من قبل تأتي عن گمبرون (Gambron)[1]. وأصفهان فتوسعتا بفضل الأمان وعمَّ فيهما الرخاء.

كان سليمان باشا يتصف بمعاملته الصارمة للقبائل العربية ذلك أنَّه لم يتغافل أبداً عن أية جريمة ارتكبوها. فقد كان يهاجمهم ويباغتهم بحيث لا يبقى لديهم متسع كافٍ من الوقت يلتجئون فيه

(1) وقد ذكرها الكتَّاب الأوروبيون في العصور الوسطى بأسماء مختلفة نذكر منها: Gumbrown, Gomrow, Gamrow, Gomroon, Cummeroon, Gomberoon وهي مدينة صغيرة أنشأها على ساحل الخليج العربي الشاه عباس وسُمّيت بعدئذٍ بميناء (بندر عباس). وهناك رأي يقول إنَّ كلمة (الگمرگ) قد اشتقت من اسمها (س.أ).

إلى الصحراء، وذلك فإنَّ البدو كانوا يُسمّونه أبو الليل[1] لأنَّه كان يُغير عليهم في الليل ولا يتركهم ينعمون بالراحة. وكان أهالي بغداد يُسمّونه سليمان السبع. وقد حاول أحدهم أن يؤكّد لي بأنَّه آغار على دمشق وسلبها وعاد إلى بغداد في تسعة أيام لأنَّ البدو سلبوا قافلة كبيرة كانت في طريقها من بغداد إلى دمشق ولم يستطع والي بغداد إلقاء القبض عليهم وهذا يعني أنَّه كان يُعاقب ولاة المقاطعات المجاورة له إذا هم أخفقوا من معاقبة البدو التابعين لولايتهم عند قيامهم بعمليات قطع الطرق. إنَّ هذا الأمر ليدهش الأوروبي كثيراً لأنَّه يعلم أنَّ ولاية دمشق وولاية بغداد خاضعة لنفوذ السلطان، ولا يجوز أن يحدث مثل هذا، كان يقوم أحد الولاة فيهاجم والياً آخر. ولكن الغزوات كانت تحدث بين الباشوات في تركيا نفسها.

كان سليمان باشا يختلف عن غيره ممَّن سبقه من الولاة في الطبائع والأخلاق لا سيَّما عن والد زوجته أحمد باشا الذي كان إذا ما سمع عن شجاعة شخص احترمه وعزَّزه ولو كان عدوّه اللدود. في حين كان سليمان باشا يجد في مدح أحد لشجاعته إهانة له ومنقصة لشرفه حتى وإن كان يتصف حقيقة بالبطولات. لذلك فإنَّه لا يرحم عدواً إذا ما وقع في يده، لا سيَّما إذا كان يتصف بالشجاعة حقيقة. ويعيب الناس على سليمان باشا بأنَّه كان خاضعاً لسيطرة زوجته التي أطلق لها اليد في التدخُّل في الحكم.

---

(1) أبو ليلة أو أبو الليل كلاهما مستعمل (س.أ).

كانت عادلة خاتون بنت باشا من الدرجة الأولى ولم تكن تنسى أبداً أنَّ زوجها كان عبداً مملوكاً اشتراه والدها وربَّاه برغم أنَّه الآن باشا من درجة ثلاث طوغات. ولذلك فقد كانت متكبِّرة ومتحكِّمة لدرجة أنَّها خصَّصت أياماً معيَّنة لمقابلة الناس والاستماع لشكاواهم والحكم لهم، إذ كانت كلمتها هي العليا.

وكانت عادلة خاتون لا تظهر للناس علانية تباعاً للتقاليد المفروضة آنئذٍ على كل سيدة مسلمة ولذلك فقد كانت تقف في مخدعها وتكلِّم الناس من وراء حجاب وعن طريق أحد مماليكها الذي كان يحمل لها عرائض الشكوى ويأتيهم منها بالجواب عليها أيضاً. وبهذه الطريقة كانت تعرف كل ما كان يدور في البلد، كما كانت تصدر أوامرها بنقض جميع القرارات والأوامر التي يصدرها الباشا ومساعده الكخيا.

كذلك كانت تعرف كيف تستميل الآغوات ورؤساء القبائل العربية بأن تأمر زوجها بتقديم الهدايا من الفراء (فروة وكرك) للآغوات والعباءات ذوات الأكمام القصيرة إلى الشيوخ. كما كانت تُهدي كبار الآغوات الذين كانوا في خدمة والدها وجدّها أغطية الرأس (الكفافي والغطر) الحرير وكانت تنسج خصيصاً لهذا الغرض حتى يتميَّزون عن غيرهم أثناء الاحتفالات والمهرجانات الرسمية. وهذا ما كان يحفّز الكثيرين للقيام بأعمال ترضي عادلة خاتون وزوجها سليمان باشا كيما ينالوا الحظوة لديهما ويحصلوا منهما على الهدايا التي كانوا يعدّونها شرفاً رفيعاً لهم ينالون بها احترام الناس. وكثيراً ما استغلّ هؤلاء الذين يحصلون على هدايا

الفراء والعباءات والكفافي الحرير، حظوتهم عند عادلة خاتون، لابتزاز المال من الناس وتقوية سلطانهم وتوطيد نفوذهم على أفراد عشيرتهم وأفراد العشائر الأخرى.

لقد كانت عادلة خاتون في خصام مستمر مع أختها الصغيرة التي كانت متزوجة من أحمد آغا. وأحمد آغا هذا هو ابن لأبوين كانا يتمتعان بسمعة كبيرة وجاه عظيم من مختلف طبقات الشعب وقد كان سليمان باشا يحترمه جداً ويعظِّمه كثيراً. وحدث ذات مرة أن حاول الوزير أن يغري أحمد آغا بقتل سليمان باشا وتنصيب نفسه مكانه والياً على باشلق بغداد ولكنَّه رفض القيام بهذا العمل المُشين وأعرض عن رؤية الوزير بعد أن أهانه، إلا أنَّ عادلة خاتون استغلت هذه الحادثة وأوغرت صدر زوجها سليمان على قتله بعد أن أفهمته بأنَّ أحمد آغا يريد قتله وتنصيب نفسه والياً على بغداد. وكانت النتيجة أن أعدمه سليمان بتهمة الخيانة والتآمر عليه. وقد كانت هذه الحادثة سبباً لزيادة الكراهية والخصام بين الأختين إلى أن استطاع سليمان باشا إقناع أخت زوجته الصغيرة بالزواج من كخيته عمر.

كان سليمان باشا كوالد زوجته حريصاً على المحافظة على حياته من اغتيالات القاپوچي باشي لا سيَّما بعد أن شعر السلطان بقلَّة نفوذه وسيطرته على باشلق بغداد في حالة بقاء هذه الأسرة متنفذة في الحكم وقوية في الولاية. ولذا فإنَّ السلطان حاول اغتياله مرَّات عديدة على يد جماعات القاپوچي باشي الذين كان يرسلهم من وقت لآخر من القسطنطينية لتنفيذ مؤامرة قتل الباشا.

وكثيراً ما أطلقت عليه العيارات النارية وكان كل واحد لا يشكّ في أنَّ هذه المؤامرات كانت تحدث بتدبير من الوزير. على أنَّه إذا ما حدثت مؤامرة من هذا القبيل في بلاد المشرق - وهي كثيرة الوقوع - وأُلقي القبض على الجاني، فإنَّهم لا يقومون بالتحقيق بل يكتفون بإعدام الشخص الذي يلقى عليه القبض وهو متلبّس بالجريمة.

لقد سبق لي أن ذكرت أنَّ أحمد باشا توفي أثناء حملة عسكرية جهَّزها على باشوات كردستان وكانت وفاته طبيعية. ولكن عادلة خاتون لم ترض لهذا القدر والقضاء وعزت سبب موت والدها إلى عصيان أحد الباشوات في هذه المنطقة واضطراره على السير لتأديبه ولذلك فإنَّها كانت تحرِّض زوجها سليمان باشا دائماً على أن يثأر لوالدها بقتل الباشا الذي سبَّب وفاته[1] وهكذا فإنَّ سليمان باشا كان يجهّز مرَّات عديدة حملات عسكرية ويسير بها إلى كردستان للانتقام من الباشا المذكور ولكن هذا الباشا كان يهرب في كل مرَّة إلى الجبال ويفلت من الوقوع في قبضته. وأخيراً أرسل له سليمان باشا التأكيدات الكافية على إخلاصه وصداقته وأرسلت له عادلة خاتون كوفية من الحرير تأكيداً لهذه الصداقة ودليلاً على عفو الباشا عنه والصفح له[*].

(1) العصيان المُشار إليه كان أعلنه متصرف بابان سليم باشا بابان وذلك في سنة 1160هـ ممَّا اضطر أحمد باشا أن يجرّد حملة لتأديبه إلا أنَّ المنية عاجلته قبل أن يحقّق مبتغاه، فنقلت جثته إلى بغداد ودُفنت تحت قبَّة أبي حنيفة (س.أ).

(*) لقد ذكر الرحَّالة آيفز قصة هذا الكردي مفصّلاً في كتابه:

Ives, Reisen mach Indien und Persien II 4. 99.

وقد صدق الكردي بالأقوال والوعود المعسولة فسافر إلى بغداد ولكنَّه ما كاد يحطّ رحاله فيها حتى قُبض عليه وأُلقي في السجن ثم خُنق في اليوم الثاني. لقد كانت عادلة خاتون مثالاً للمرأة التركية الحقيقية. فقد كانت متغطرسة ومتحكمة لا تعرف الرحمة والشفقة حتى مع زوجها، فقد منعته من الزواج بغيرها كما حرَّمت عليه اقتناء الجواري وكانت عاقراً. لذلك فإنَّ سليمان باشا لم يترك وريثاً له ما خلا هذه الأرملة التي ما تزال تعيش في بغداد وتملك الأموال الطائلة. شيّدت عادلة خاتون في بغداد مسجداً وكروان سراي (خاناً) وأطلقت عليها اسمها[1]. كذلك شيّدت مبانٍ مماثلة في أنحاء مختلفة من الباشلق وأوقفت وارداتها على الخيرات والفقراء.

ولما توفي سليمان باشا كان علي آغا[2] قد تسلَّم منصب نائب

---

(1) المسجد هو جامع العدلية الكبير الواقع في شارع المستنصر مقابل بناية المحكمة الشرعية. أما الخان (الكروان سراي) فهو خان العادلية (س.أ).

(2) إنَّ علي آغا هذا هو نفسه الذي زاره الرحَّالة آيفز في أثناء مروره بالديوانية بطريقه من البصرة إلى الحلّة وقد أكرم وفادته وعامله بكلّ لطف واحترام. راجع: -
Ives, Reisen mach Indien und Persien II, 5. 55.
ولما حاصرت قوات كريم خان مدينة البصرة سنة 1775م اعتقدت القسطنطينية أنَّ عمر باشا تواطأ مع الفرس ففسح لهم المجال لمهاجمة المدينة ومحاصرتها. وقال عدد من حاشية السلطان إنَّ الفرس لا يريدون الدخول في حرب مع السلطان ولكنَّهم قاموا بهذا العمل بغية إضعاف قوَّة باشا بغداد لأنَّهم اغتاظوا لتنصيبه والياً على بغداد. وقال آخرون إنَّ عمر باشا أوعز إلى كريم خان بإرسال عدد من قوَّاته للهجوم على البصرة لكي يحرج السلطان من جهة ويظهر له أنَّه بحاجة إلى مساعدته في دفع الخطر.
ومن الغريب أنَّ مثل هذه التهم كانت قد وجّهت من قبل إلى أحمد باشا بأنَّه أوعز إلى نادر شاه بالهجوم على البصرة ومحاصرتها لكي يبرهن على حاجة السلطان إليه =

الوالي على البصرة وكانت في يده جميع السلطات المهمة التي يحتاجها كل والٍ لإدارة هذه الولاية كما كان السكّان يحبونه كثيراً ويمتثلون أمره. فطمع بالباشوية واستطاع أن يقنع الديوان في بغداد بإرسال التوصيات إلى السلطان لجعله باشا وأخذ يبعث الهدايا الثقيلة إلى القسطنطينية حتى جاءه فرمان السلطان. إلا أنَّه حكم اثنين وعشرين شهراً فقط، وكانت لعادلة خاتون اليد الطولى في إنهاء حكمه بهذه السرعة.

لم يكن علي آغا أو (علي باشا) مملوكاً جيء به إلى بغداد بل كان مسلماً وُلد من أبوين فقيرين في بلاد فارس واشتغل في شبابه خادماً في بلاط أحمد باشا يشرف على تنظيم مائدة الطعام وترتيبها وكان أميناً مخلصاً في عمله فحاز على رضا الباشا وثقته وصار يقدمه في المناصب حتى احتل مكانة مرموقة. وكانت عادلة خاتون تعرف علي باشا منذ نعومة أظفاره وأنَّ ما وصل إليه من هذه المرتبة العليا إنَّما هو بفضل والدها ولذا فقد كانت تنتظر

فيضطر على إبقائه على ولاية بغداد إذا كان هو لا يريد أن يفقد البصرة.
ولذلك فقد أخذ السلطان يرسل عدَّة باشوات إلى بغداد مع قوات كبيرة، حتى توفَّق أحدهم أخيراً في بداية سنة 1776م بإقناع عمر باشا بالذهاب إلى أورفة وأعطاه السلطان عهداً بتنصيبه والياً عليها. ولكن الأتراك كعادتهم لا يتمسكون بالعهود فقد قطع رأس عمر باشا وأرسله إلى القسطنطينية. وهكذا أصبح على بغداد والياً من قبل السلطان نفسه فحرَّرها من يد الفرس.
ولكن في بداية سنة 1777م كتب لي صديق رسالة من حلب يقول لي فيها، إنَّ والياً جديداً نُصّب على بغداد واسمه عبد الله وقد كان الكهيا في عهد عمر باشا. ويظهر من ذلك أنَّ سكَّان بغداد انتخبوه للولاية وما كان على السلطان إلا الاعتراف بحكومته. . (المؤلف).

بعد وفاة زوجها أن يشركها معه في حكم البلاد. ولكن خاب ظنها فقد أراد علي باشا أن يحكم البلاد وحده وأن يحكمها حكماً صارماً صحيحاً، وكان الينيچرية في بغداد أقوياء وبخاصة في أيامه. فإذا ما صادفت وفاة باشا وتأخر قدوم باشا غيره، كان هؤلاء الينيچرية هم السلطة المطلقة في البلاد، في بغداد كما في البصرة أيضاً. وقد أراد علي باشا أن يقضي على شوكتهم على الفور ويجرّدهم من كل نفوذ. ولما كان بين الينيچرية عدد كبير من الأهلين أيضاً فقد قاموا بالتعاون مع عساكر السلطان بالثورة والخروج على الوالي علي باشا ممَّا اضطر علي باشا إلى مغادرة بغداد والهروب منها. ولكنَّه عاد بسرعة إليها بمساعدة رؤساء القبائل العربية وأشراف بغداد الذين كانوا جميعهم أصدقاءه، فأمر بقطع رؤوس عدد كبير من جنود الينيچرية. وعلى أثر هذه الحادثة ثار عليه صغار الباشوات في كردستان وقبيلة الخزاعل أيضاً فجهَّز حملة عسكرية على الأكراد أدّبهم بها وأعادهم إلى طاعته ولكنَّه اندحر أمام قبيلة الخزاعل وصار شعراء العرب ينظِّمون القصائد عن انتصار هؤلاء المعدان ويسبون فيها علي باشا ويشتمونه وأخذ الناس يردِّدونها في بغداد أيضاً.

أما عادلة خاتون التي أصبحت لا تُطيق الجفاء الذي يُبديه علي باشا نحوها وتجاهله وجودها، اشتد بها الحنق عليه لا سيَّما وأنَّها لم تعدّ تُستشار في أمر من أمور البلاد، بل إنَّها كانت لا تلقى صدى لمقترحاتها فعزمت على تدبير مؤامرة لخلعه وإقصائه عن الباشوية خاصة بعد أن سمعت بأنَّ الباشا يريد إبعادها عن بغداد.

كان علي باشا شيعياً متستراً ينتمي إلى المذهب الذي يعتنقه الفرس والدليل على ذلك أنَّه كان عديم الرحمة والشفقة في معاملته للأكراد وجنود الينيچرية لأنَّهم كانوا من السُّنَّة وأنَّه دحر نفسه أمام قبيلة الخزاعل لأنَّها كانت تنتمي إلى المذهب الشيعي. فانتشر الشغب عليه بين الغوغاء الذين أخذوا يستعيدون الذاكرة عن كل عمل قام به علي باشا يبرهن فيه على طائفيته وتعصبه للمذهب الشيعي وانتقامه بدافع هذه العقيدة من السُّنَّة. وهكذا نما الاعتقاد في قلوب الناس أنَّ علي باشا رافضي حقاً وأنَّه يتحيّن الفرصة لانتزاع هذا الباشلق الكبير من السلطان وإعطائه للفرس.

كان بين كبار بغداد خمسة رجال، وكانوا كلهم شباباً، اشتراهم الباشا السابق مماليك ثم أنشأهم وربَّاهم وأدَّبهم على تعاليم الدِّين الإسلامي الصحيحة. وكانوا يتناوبون فيما بينهم أهم مناصب الدولة الحسَّاسة، تارة في سراي الباشا وتارة في المقاطعات. وكانوا يعيشون مع بعضهم بعضاً حياة الأخوة وكلمتهم كانت واحدة دوماً، وكانوا يعرفون علي باشا جيداً لأنَّهم هم الذين أوصلوه إلى مرتبة الباشوية ونصّبوه والياً على بغداد. وكان المفروض فيهم أن يهتموا لهذه الإشاعات ويعملوا على قمعها، كذلك كانوا يحملون احتراماً كبيراً لحفيدة أولئك الباشوات وابنتهم وزوجة أحدهم، أولئك الباشوات الذين كان لهم الفضل في إيصالهم إلى هذا المركز المرموق، تلك هي عادلة خاتون التي وإن كانوا في أحوال كثيرة يمتعضون من تحكّمها ومحاولتها فرض إرادتها عليهم.

وقد صادف أن مات أحد هؤلاء الخمسة فجأة، فعرفت عادلة خاتون كيف تستغل هذه الحادثة وتُثير البقية الأربعة وتؤلبهم على علي. فأفهمتهم بأنَّ الباشا المذكور دسّ له السم وأنَّه سيقضي على الآخرين بهذه الطريقة أيضاً وأنَّ نواياه السيئة تجاههم وما يبيّته لهم من شر قد أصبحت واضحة. فهو يحاول الآن الحصول على موافقة السلطان بقتلهم جميعاً. ولذلك فقد وجدوا أنَّ من الضروري عليهم الاهتمام بحياتهم طالما أصبحت القضية قضية حياة أو موت. لقد كانوا هم الذين أرجعوه إلى الحكم عندما طرده الينيچرية من المدينة والآن فقد أصبحوا زعماء حركة الثورة التي عملت بسرعة في الخفاء وظهرت فجأة، فرأى الباشا الناس جميعهم مدجّجين بالسلاح وثائرين عليه. لقد وجد علي نفسه وحيداً مُحاطاً بالأعداء والمتآمرين فقرَّر الهروب من المدينة. فلبس ألبسة نسائية وأخذ يحاول أياماً النفوذ من سور المدينة إلى القبائل العربية لاستنجادهم وطلب المساعدة منهم ولكن لم يوفّق حيث أُلقي القبض عليه، فاقتيد إلى السراي وأُعدم هناك. وعلى أثر ذلك اجتمع الديوان ودعا جميع رؤساء البلدة لانتخاب أحد الرجال الأربعة باشا على بغداد. وقد اعتذر اثنان منهم عن قبول هذا المنصب لأنَّهما اعتقدا أنَّ عمر الذي يتقلّد منصب الكخيا[1] هو

---

(1) الكخيا: ويُقال الكهيا، وهو أكبر موظف في الولاية بعد الوالي، وأصل الكلمة فارسية (كتخدا)، ودائرة الكهيا منفصلة عن سراي الباشا وفي كل صباح كان يذهب فوج من الجند إلى دائرته لجلبه بمراسيم خاصة إلى مقرّ الباشا، وحين وصوله إلى هناك يتأبط ذراعه (كهيا البوابين) ويرافقه حتى رأس الدرج حين =

أحق منهما بتسنم منصب الباشا على بغداد ثم لأنَّه زوج البنت الصغرى للباشا العظيم أحمد باشا. وكان أحد الأشخاص اسمه محمود وهو المتسلم على البصرة غائباً عن اجتماع الديوان ولم يشترك في الانتخاب بينما كان عمر حاضراً. على أنَّ الشعور نحو عمر ورأي الناس فيه كان بأنَّه رجل ليس من الوزن الثقيل ولا يمتاز بشخصية قوية ولم يكن ضابطاً مشهوراً بشجاعته ولكن لأجل زوجته وشعبيتها، فقد كانت محبوبة من جميع الناس، لا سيَّما وأنَّها نكبت بزوجها الذي قُتل ظلماً وعدواناً ثم للمعاملة السيئة التي كانت تلقاها من أختها المتغطرسة. فلهذه الأسباب جميعها انتخبوا الكخيا عمر باشا والياً على بغداد وأرسلوا بذلك تقريراً مطوَّلاً إلى السلطان، شرحوا فيه أسباب مقتل الوالي وانتخابهم الكخيا عمر قائلين فيه: إنَّ علي باشا كان خائناً وإنَّه كان ينوي إعطاء مدينة بغداد للفرس وإنَّه قام بأعمال أثارت الرأي العام وأهاجتهم، فهجموا عليه وقتلوه. كما أنَّ العرب والأكراد على حدٍّ سواء كانوا ثائرين عليه وقد دخلوا البلاد فأصبحت نتيجة ذلك في فوضى واضطراب قد يؤديان إلى عاقبة وخيمة. ولذا فإنَّهم وجدوا في الكخيا عمر أحسن رجل يليق بحكم البلاد في هذه الظروف العصيبة. وقد اختاره الديوان ورجاه لتسلُّم الحكم في البلاد، وهم يأملون الحصول على رضا السلطان وموافقته على هذا التعيين..

= يستقبله (الخزينة دار) ومن هناك يوصله إلى الباشا فيعرض الكهيا إجراءات اليوم السابق ويتلقى الأوامر الجديدة لعمله اليومي، ثم يعود بعد ذلك إلى مقرّ عمله بنفس المراسيم إذا اقتضى الأمر الاتصال بالباشا (راجع العمري) (س.أ).

الخ. وفي صيف سنة 1764م تسلَّم عمر فرمان الباشوية بتعيينه والياً على باشلق بغداد.

وفي السنة التي تلت تنصيبه والياً على بغداد، سار عمر باشا بقوات كبيرة لتأديب قبيلة الخزاعل وأضرم النار في بلدة «الملوم» مقر رئاسة الشيخ[1] وأمر بقطع رأس ستة من رؤساء القبيلة أو سبعة منهم. وأرسل هذه الرؤوس المقطوعة مع تقرير إلى القسطنطينية يشرح فيه للباشا قضاءه على عصيان القبيلة وتأديبه أفرادها وما أحدثته حملته الموفّقة هذه من فزع بين القبائل العربية.

وانهالت التهاني على الباشا ولكن ما لبث شيخ قبيلة الخزاعل الذي هرب من أمام الباشا، أن رجع وخلع الرئيس الذي كان الباشا قد نصبه مكانه. فاضطر الباشا إلى الخضوع للأمر الواقع ولكن بعد أن قدم له رئيس عشيرة الخزاعل الضمانات الكافية والتأكيدات على إخلاصه وولائه له. لم تكن قبيلة الخزاعل الوحيدة في إحداث الصداع لوالي بغداد، فقد كانت هناك قبيلة كعب[2] تقلق راحة الباشا من وقتٍ لآخر أيضاً. وكانت لا تمرُّ سنة من غير أن يضطَّر فيها الباشا على تجهيز حملة عسكرية ضد القبائل العربية والكردية. وكان الباشوات بنتيجة ذلك يتكبّدون النفقات الباهظة وكانوا يعرفون أيضاً كيف يغالون في زيادة هذه المصاريف عند تقديم حسابها للسلطان. وقد أكّد لي أحد الناس في بغداد أنَّ

---

(1) كان رئيس قبيلة الخزاعل هو الشيخ حمود (س.أ).

(2) قبيلة (بني كعب) من القبائل العربية التي كانت ولا تزال تقطن منطقة عربستان وبنو كعب بطن من بطون عامر بن صعصعة كما ذكرته كتب الأنساب (س.أ).

السلطان لم يحصل في السنوات الأخيرة على أي خراج من هذه الولاية الكبيرة.

كانت زوجة عمر باشا لا تختلف عن أختها عادلة خاتون في معاملة زوجها، فلم تسمح له بالزواج بالرغم من أنَّها كانت عاقراً، كما لم تسمح له باقتناء الجواري وهكذا بقي عمر باشا من غير وريث. ولهذه النتيجة فإنَّ الأتراك لم يكترثوا لأسرة أحمد باشا أو يخشوها إذا ما توفي عمر باشا.

لقد تعوّد السكَّان في السنوات الأخيرة أن ينتخبوا الباشا الذي يريدونه وكان على السلطان أن يوافق على كل من ينتخبونه مخافة أن يخرج هذا الباشلق الجميل الغني من يده ويقع في حوزة الفرس.

إنَّ شكل الحكومة في بغداد كان على طراز نظام الحكم في القسطنطينية تماماً، فالباشا بيده جميع السلطات والتشريعات وهو الحاكم بأمره على هذه الولاية الواسعة، يُديرها ويسيِّرها بحسب ما يشاء. أما القضايا الهامة والخطيرة جداً فإنَّها تُعرض على الديوان للنظر فيها والبت بها.

والناس البارزون الذين لهم الحق في إبداء رأيهم ومشورتهم في هذا المجلس الاستشاري هم: -

الشيوخ والمجربون ومن بينهم كخيا الباشا ومتسلم البصرة وحاكم مقاطعة ماردين وجميع الحكَّام السابقين للمدن والمقاطعات والمقيمون في بغداد وسواء كانوا في الوظيفة أم خارجها.

الباش آغا وهو رئيس فرقة الخيالة (رئيس اللاوند).

الآغا أو القائد الأعلى لقوات الينيچرية.

رئيس العلماء. وهذا لقب لا يحتاج إلى فرمان السلطان وإنَّما ينتخبه العلماء ويُشترط أن يكون ممَّن له شهرة واسعة في البلد في العلوم الدينية والوعظ ولذلك فإنَّ هذا اللقب ليس معروفاً في تركيا[1].

القاضي (حاكم المدينة) وهو من جماعة الملالي ويبدله مفتي القسطنطينية كل سنة.

مفتي المذهب الحنفي.

مفتي المذهب الشافعي.

نقيب الأشراف وهو الرئيس الأعلى للسادة من سلالة محمد ﷺ في هذا الباشلق. ونقيب الأشراف هذا يكون في الوقت نفسه المتولي على أوقاف جامع الشيخ عبد القادر الگيلاني ورئيس تكيته والمشرف على إدارته.

خطيب جامع الشيخ عبد القادر الگيلاني أو الواعظ فيه.

خطيب السر مذهب[2] (Zermashab) أو الواعظ في جامع الإمام أبي حنيفة. ثم القائد الأعلى لدى الباشا وهو الكهيا. وهو

(1) ربما كان رئيس العلماء أستاذاً في المدرسة (الأكاديمية) الموجودة اليوم (المؤلف).
تعليق: ربما يقصد نيبور بالمدرسة الأكاديمية، المدرسة الدينية في جامع الإمام الأعظم (س.أ).

(2) السر مذهب - يعني المذهب الرئيسي ويقصد به المذهب الحنفي - المذهب الرسمي للدولة العثمانية (س.أ).

في الوقت نفسه وزير الدولة والقائد ومركزه عند الباشا لا يختلف بشيء عن مركز الوزير عند السلطان.

وكان في أيام زيارتي لمدينة بغداد شخص يُدعى عبد الله بك[1] وهو الأخ الأصغر لرئيس قبيلة العبيد. لقد كان في الواقع (بلوك باشي) فقط أي ما تعادل رتبته رتبة رئيس في الجيش وكان في فرقة الفرسان. وكان الباشا لا يكتفي باستشارته في المشكلات التي تحدثها القبائل العربية وطريقة الهجوم عليها وتأديبها فحسب بل إنَّه كان مستشاره ومعتمده في الأمور الأخرى.

وإضافة إلى ذلك فقد كانت للباشا مجالس استشارية عديدة، تُدعى مصاحب (Musaheb) وكانت تزاول سلطات وواجبات مهمة.

ومن جملة الموظفين البارزين في بغداد، الدفتردار أو مدير الخزينة[2]. ثم ديوان أفندي أو سكرتير الدولة وكذلك قاپوچي كهيه سي وهو الموظف الذي ينوب عن الكهيا عند غيابه.

ثم حرم كهيه سي أو رئيس بلاط حرم الباشا[3]. وسلام آغاسي أو رئيس التشريفات وميرآخور أي رئيس السياس أو المشرف على إدارة الاصطبلات. وجاوشلر كهيه سي أي رئيس موظفي

---

(1) عبد الله بك الشاوي من مشايخ عشائر العبيد وقد أعدمه الوالي عمر باشا أثناء الحملة التي جرّدها هذا الوالي إلى جنوبي العراق، بعد اختلافه معه (س.أ).

(2) والدفتردار في بقية المقاطعات يرتبط رأساً بالسلطان وقد استطاع باشوات بغداد في الفترة الأخيرة أن يعينوا الدفتردار، أي إنَّهم يختارون من يريدون ليجعلوه رقيباً عليهم في جمع الأموال وصرفها (المؤلف).

(3) وكان هذا من الطواشي (الخصيان). (المترجم).

المحاكم، وهذا يلازم الباشا دائماً ويكون برفقته. ثم جاوشلر أميني ويكون بمعية الكهيا ليتلقى منه الأوامر.

ولباشا بغداد موظف خاص يُدعى قبوطان باشا وقد ورد ذكره عند الكلام عن البصرة[1]. ويقوم الباشا بتعيين الموظفين لجمع الضرائب والخراج (ويجمع الخراج من النصارى واليهود).

ولجميع الباشوات وبالأخص باشوات بغداد عدد كبير من الإيج آغاسي وهم عبارة عن حرس خاص يكون في خدمة الباشا فقط. فإذا ما ركب الباشا إلى ديوان الحكومة (السراي) فإنَّهم يتبعونه ويسيرون خلفه بألبسة قشيبة وبخيول جميلة مطهمة ويمشي وراء كل حصان سائس ليشرف على الحصان ويمسك زمامه. وهؤلاء يكونون تحت إمرة الخازندار أو المحاسب والسلحدار أو حامل السيف. وللأول سلطان عليهم في داخل المدينة فقط أما في وقت الحرب فإنَّهم يخضعون لإمرة السلحدار.

(1) ذكر نيبور عن القابوطان باشا عند كلامه عن البصرة في الجزء الثاني من كتابه «صفة جزيرة العرب» ص213 ما يلي:
«القابوطان باشا صاحب مرتبة عالية، يعيّنه السلطان بجانب الباشا أو الوالي. ولا يختار لهذا المنصب إلا الأشخاص من طبقة رفيعة. وكانت تحت أمرته حين زار نيبور البصرة 50 ـ 60 تكني (Takne) (وهي سفن حربية لها سطوح مستوية). وكان واجبه، ملاحقة القراصنة وتعقيبهم في نهري دجلة والفرات ومنطقة الخليج بأسره. وكان تحت إمرة السلطان إلا أنَّ الباشا كان يحاول جعله تحت نفوذه.
وكان مقرّه في مدينة مناوي (Menaui) في حين كان المتسلم (الوالي) يسكن البصرة .(المؤلف)
تعليق: أما أهل بغداد فيطلقون لفظة القبطان. وهي من الإفرنسية كابيتان. (س.أ).

أما الضابط الثالث المتنفذ فهو الجوخدار آغا.

وهناك أربعة وعشرون من هؤلاء الإيج آغاسي لهم ترتيباتهم وتنظيماتهم الخاصة بهم ويكونون دائماً في خدمة الباشا.

وأود أن أذكر منهم هذه الأسماء التالية فقط:

القفطانجي وهو الشخص الذي يُشرف على ألبسة الباشا.

الإبريقدار وهو الذي يسكب الماء على يد الباشا أو على رجليه وجسمه عند الاغتسال.

الصوچي باشي وهو الذي يسقي الباشا الماء (الساقي).

القهوچي باشي، وهو الذي يقوم بتحضير القهوة (القهواتي).

الإيج كيلرچي، وهو الذي يشرف على إعداد الحلويات وحفظها.

الرختوان، وهو الذي يشرف على عدة الخيل.

الإيج محضر باشي، وهو الذي يشرف على السجاد ونظافة القصر.

ومن ضمن الإيج آغاسي، اللالا (LaLa) وهو رئيس الغلمان، ويكون تحت إشرافه عدد كبير من الغلمان من الأولاد بعضهم من النصارى والكرج أو من المقاطعات الأخرى ويشرون مماليك. كما من بينهم عدد من الأولاد المسلمين.

وهؤلاء جميعهم يكونون تحت إدارة هذا اللالا وإشرافه حيث

يقوم بتهذيبهم وتعليمهم الديانة الإسلامية والقراءة والكتابة وركوب الخيل وفنون الحرب.

والذي يبرز من بين هؤلاء الغلمان في الذكاء والشجاعة يقدم ويرقى شيئاً فشيئاً إلى رتب الإيج آغاسي والوظائف الرفيعة الأخرى دون الالتفات إلى أصله ونشأته الأولى. أما الآخرون الذين لا يظهرون أمثال هذه الكفاءات فإنَّهم يظلون مماليك ولا أمل لهم في الحصول على مراتب الشرف. ويحق لجماعة الإيج آغاسي أن ينموا الشوارب، فإذا ما تقدَّموا في مراتب الشرف يدعون عندئذٍ صقالي آغاسي (Sakalli Agasi) أو سكاملي آغاسي (Skămli Agasi) فيحق لهم أن ينموا اللحى. وقد كان للباشا من هذا الصنف الأخير نحو من مائة وخمسين شخصاً.

ويدخل ضمن طبقة الإيج آغاسي، الجوخدار والمحضر باشي وهؤلاء يسيرون على القدم، ويكون الجوخدارية تحت إمرة الجوخدار آغا ويقومون بمهمة أكثر شرفاً من مهمتهم السابقة وهي تبليغ أوامر الباشا إلى المقاطعات. أما المحضرية فإنَّ مهمتهم في أثناء المعارك الإشراف على الخيم والقيام بأعمال أخرى تتعلق بنصبها ورفعها وتنظيفها.

وإذا ما ركب الباشا إلى الجامع للصلاة، فإنَّه يخرج باحتفال مهيب فيسير التفنكچي باشي بجانب حصانه والمطارچي باشي في الجانب الآخر ثم عدد كبير من الموسيقيين وكذلك الإيج آغاسي وجميعهم يمتطون الجياد. ثم يخرج برفقته عدد آخر من

الموظفين ومن الخدم، منهم العلوه جاووش Aloi Tshaus[1] وسراج باشي والقواص الشاطر[2].. الخ. وعدد آخر لا أعرف وظائفهم. إنَّ الإيج آغاسي هم أحسن عساكر الباشا ما لديه منهم في بغداد سواء أكانوا من الخيالة أم من المُشاة يقرب من ثمانمئة رجل.

أما الكخيا وكبار الشخصيات في بغداد فإنَّ لهم أوج آغاسي أيضاً وعددهم نحو مائتي رجل.

وفرسان الباشا الذين يعرفون في هذه الولاية باللاوند، والذي يقع معظمها في الحسكة[3] والحلة لتأديب القبائل العربية، تتكوَّن من مئة بيرق ولكل بيرق خمسة وعشرون رجلاً عند اكتمال العدد ولكن عددهم في الغالب يقدّر بنحو ألف وخمسمئة فارس.

أما فرق المُشاة التي تُعرف بفوج البراطلي[4] Baratoli فتتكوَّن

---

(1) من المحتمل أن تكون اللفظة الصحيحة آلاي جاووشي (س.أ).

(2) سراج باشي ـ الشخص المسؤول عن ملاحظة سراج الحصان أو الفرس عند ركوب الباشا جواده. أما القواص أو (القواس) أي حامل القوس ويتراوح عددهم ما بين أربعة إلى ستة أشخاص فواجبهم مرافقة الباشا (س.أ).

(3) الحسكة ـ وهي موضع الديوانية الحالية وينسب إليها الغناء والشعر الشعبي المعروف بـ(الحسجة) (س.أ).

(4) البراطلي أدرج الأستاذ سعاد هادي العمري التعليق التالي على هذه الكلمة «حسب المؤرخ الفاضل الأستاذ عباس العزاوي هو (براتلي) أو حائز على (البراءة) أي الامتياز وهذا صحيح. حيث إنَّ هؤلاء الجنود على أغلب الظن من الجنود المسمين في بقية الألوية (جبه لي) والذين كان يجلبهم أصحاب البراءة وهم الـ(تيمارلي سباهيسي) لأنَّ التيمار والزعامة لم تكن تُعطى لغير السباهية أو =

من ثلاثين فصيلاً وكل فصيل يحتوي على أربعين رجلاً. وعدد هذا الفوج ثمانمائة رجل تقريباً.

ويقدر عدد التفنكچية والجنود بإمرة الباشا بمئتين، ويبلغ عدد جيش الباشا نحواً من ثلاثة آلاف وخمسمئة جندي.

= الخيالة. وكان التيمار يعطى لصاحبه طوال الحياة وحين وفاة صاحبه كان الباشا يوصي به لابن المتوفى عادة بتذكرة إلى استانبول وبعد عرضها تصدر (البرات = البراءة) بذلك من الديوان الهمايوني.

فحينما يفتح العثمانيون مملكة ما، تقسم الأراضي إلى الخاص، الزعامة، التيمار والوقف.

الخاص: يشتمل على الأقسام التي تزيد وارداتها على 100 ألف آقچة، وتعطى للسلطان وعائلته، كما تعطى للوزراء والولاة أيضاً إلا أنَّها كانت بالنسبة إليهم مرتبطة ببقائهم في المنصب، وكان على كل صاحب (خاص) أن يقدّم جندياً (جبه لي) أثناء نشوب الحرب عن كل خمسة آلاف آقچة.

أما الزعامة: فهي الأقسام التي تتراوح بين 20 ألف إلى 100 ألف آقچة وتعطى هذه إلى كبار الموظفين في الولاية فمحافظي القلعة طول حياتهم على الأكثر، وعلى أصحاب الزعامة. أيضاً جلب جندي عن كل خمسة آلاف آقچة أثناء نشوب الحرب.

التيمار: أما الأقسام التي تتراوح وارداتها بين 3 آلاف آقچة و20 ألف آقچة فتسمَّى بـ(التيمار) وتعطى طوال الحياة وعلى صاحب (التيمار) أن يقدّم جندياً حين نشوب الحرب عن كل ثلاثة آلاف آقچة يستثنى منها الثلاثة آلاف آقچة الأولى.

وكانت أراضي وبساتين (الخاص، الزعامة والتيمار) تحت تصرف مالكيها من المواطنين الأصليين بموجب الحجج والسندات إلا أنَّ ضريبتها كالعشر الشرعي ورسوم الفراغ والانتقال تُدفع إلى صاحب (الخاص أو الزعامة أو التيمار) حسب نوع الأرض.

وبهذه كان هؤلاء (أي أصحاب الخاص والزعامة والتيمار) على أهبة السفر على الدوام ولهم خيَّالة مجهزة بأسلحة وافية ويطلق عليها اسم (تيمار سباهيسي) ويزيد عددهم على عدد الإنكشارية. (راجع سعاد هادي العمري في ترجمته رحلة نيبور إلى بغداد. ص64 ـ 65) (س.أ).

وإضافة إلى ذلك فإنَّ في بغداد قوات كبيرة من الينيچرية والمدفعية ولكن هذه القوات تابعة للسلطان وليس للباشا الحق في إصدار الأوامر إليها للتقدَّم إلى الجبهات عند قيام القبائل العربية أو الكردية بالثورات والاضطرابات. ويعتقدون أنَّ مهمتهم تقتصر على المحافظة على المدينة والقلعة ضد أي هجوم معاد للسلطان. ويخضعون لأوامر عدد من آغوات الأفواج في القسطنطينية الذين يرسلون لهم الضباط. أما معظم الجنود فهم من سكَّان بغداد ويحبون الباشا لا سيَّما إذا ما تردَّد لزيارتهم.

ولا أعلم بالضبط عدد الجنود الينيچرية في بغداد، كما لم أستطع الحصول على معرفة عددهم أيضاً ولكن قال لي البعض إنَّ عددهم عشرة آلاف جندي وذكر البعض الآخر أنَّهم عشرون ألف جندي. وإضافة إلى هذه المعلومات فإنَّ عدداً كبيراً من السكَّان قد سجلوا أسماءهم في قوات الينيچرية ابتداءً من الآغوات الكبار إلى الحمال، رغبة في الحرية التي تتمتع بها قوات الينيچرية ولحماية أنفسهم في أوقات الخطر. ولجميع أفواج الينيچرية ألبسة خاصة ولا سيَّما القبعات التي تميّز بعضها عن بعض وبالأخص قوات السلطان عن قوات الباشا. وعلى أيِّ حال فإنَّني رأيت الجنود يلبسون ما يحلو لهم من الألبسة إن كانوا من قوات الباشا أم من قوات السلطان. وفي بقية المقاطعات العثمانية ليس للبراطليين واللاونديين ذكر أو هناك من يعرف عنهم شيئاً، بل يُسمي الناس أمثال هذه القوات فرسان الباشا وقوات الديلي (دلي) والتفنگچية والسگمانيين.

وإذا ما احتاج الباشا إلى تجهيز جيش يسيِّره على الأعراب والأكراد فإنَّه يجتمع بضباط الأفواج التي مرَّ ذكرها لتقديم العدد اللازم من العساكر التي يحتاجها لحملته وتُدعى هذه القوات المؤلفة (سردن كجدي Serdingsdi)[1]. ثم يجمع المتطوعين من الناس ويرسلهم إلى الميدان لمقابلة العدو من غير أن يقوم بتدريبهم على استعمال السلاح. وبعد شهرين من تجهيز هذه الحملة وغالباً ما لا تستغرق هذه المدة، يسرح الباشا المتطوعين.

وفي أثناء إقامتي في بغداد جمع الباشا عشرة بيارق، قوام كل بيرق أربعون جندياً، ووجّهم في حملة على قبائل [بني] كعب في البصرة. وقد التحق خادمي الذي استأجرته من حلب بجيش المتطوعين مقابل حصوله على بندقية وأصبح سردن كجدي. وطلب منِّي أن أحتفظ له بالنقود التي وعدته بها لإرجاعه إلى بلده حلب. وقد سألته ذات مرَّة عندما كان يُدعى إلى الالتحاق بالبيرقدار عمَّا إذا كان المجندون يدربون على السلاح؟ فأجابني أنَّ الضابط يدعوه للصلاة معه وقراءة الفاتحة، ثم يتكلَّم عن ما يحتاجه الجنود من المعدَّات والتجهيزات للسفر ثم يعطيه المال اللازم لشراء هذه المعدَّات. وقد كان يثق به لأمانته وإخلاصه.

وإذا ما احتاج الباشا إلى قوات أكثر عدداً من الذي جمعه فإنَّه يقوم بجمع الرجال لحمل السلاح من المقاطعات الأخرى من البصرة

(1) سردن كجدي ـ المعنى الأصل للعبارة هو المتطوعون من الفدائيين الذين يهجمون بين صفوف الأعداء، ثم أخذت تطلق في ولاية بغداد ـ على الأخص ـ على كافة المأجورين للحملات الخاصة. (انظر العمري ص67) (س.أ).

والحسكة (Hoske) وماردين وكردستان ومن القبائل العربية الرحَّالة التي تتجوَّل في منطقة نفوذه «إيالته»، فيجمع منهم على أقل تقدير ستة وثلاثين ألف رجل وينتخب منهم نحواً من عشرة آلاف رجل صالح للحرب.

تفاصيل الشكل ـ 4 (*)

أ ـ مشهد الإمام علي في النجف.

ب ـ مخطط مسجد الكوفة وتشير الأرقام إلى:

- ـ باب القبلة.
- ـ السفينة.
- ـ سقاية ماء (سقاخانة).
- ـ محراب صلى فيه موسى الكاظم.
- ـ مقام سيدنا عيسى.
- ـ مقام سيدنا موسى.
- ـ مقام سيدنا إبراهيم الخليل.
- ـ مقام الإمام زين العابدين.
- ـ مقام النبي نوح.
- ـ بيت النبي نوح.
- ـ قبر جعفر بن معمر (**).
- ـ قبر مسلم بن عقيل (وعليه كتابة تقول إنّ «محمد بن محمود الرازي» و«أبو المحاسن ابن أحمد التبريزي» قد شيدا هذا الأثر في عام 681هـ.

ج ـ مشهد الإمام الحسين بكربلاء.

د ـ خارطة مدينة النجف (مشهد علي).

هـ ـ.

د ـ تربتان (مفردها تربة وهي قرص من الطين) للصلاة.

و ـ سيف ذي الفقار.

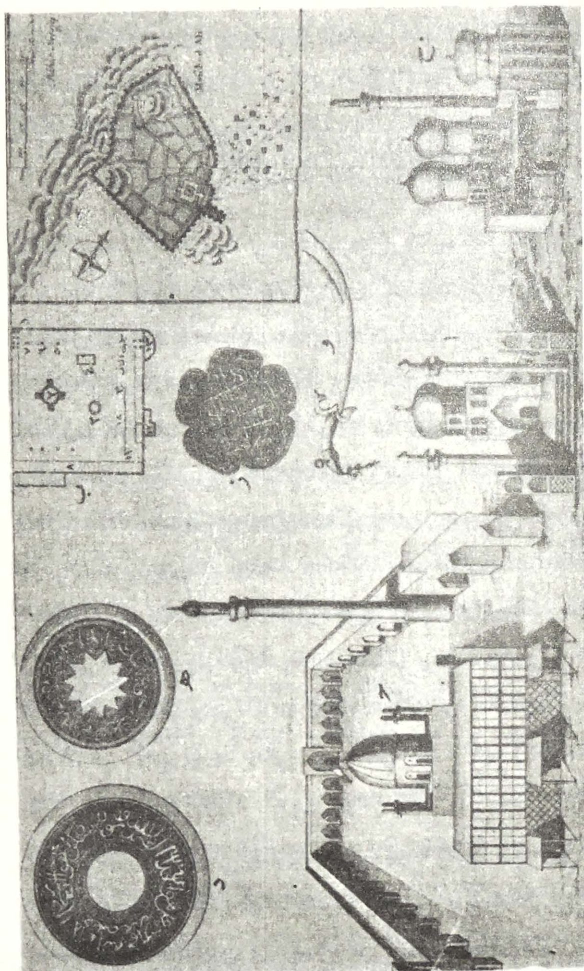
ز ـ خاتم النبي.

ح ـ المشهد الكاظمي (جامع الكاظمين) (***).

(*) اعتمد في ذكر التفاصيل على كتاب «مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلّة، (طبع ببغداد 1955). (س.أ).

(**) راجع الكتابة التي على القبر في الشكل ـ 3 أ، ص255 من هذا الكتاب.

(***) راجع الكلام عن المسجد المذكور في ص244.



أهمُّ مُدُن البَاشَلِقْ

إنَّ أهم المدن التي تقع في هذا الباشلق هي: ـ البصرة وأرويل (اربل) وماردين والديوانية (الحسكة رسمياً) وقزاني (Kasani) ورماحية (Romahie) ومشهد علي وكربلاء وطاووق والطون كوپري وقره طاغ (قره داغ) (Karadagh) ومندلي وبدره وخراسان ومهروت (Mahrud) وبهرز (Bohrus) وقزلرباط (Kirsobad) وخانقين (Chanaken) وقصر شيرين (على الحدود الإيرانية) وشهربان (Schâhr Abân) وحرانية (Harranie) وينكجة (Jenksji) وبردان (Baradan) ودجيل (Dedsjal) وتكريت وسامرا والدور (Dur) وزنكاباد (Zenkabad) وبلاد دروزين (بلدروز) (Bellăd- Drusin) وخرنابات (Charnabat) وعانه (وتقع هذه البلدة والأماكن التي تليها على نهر الفرات) وجبه (Dsjubbe) وهيت (Het) وحديد (Hadid) والروس (Errus)[1] وكبيسة (Kabase).

لقد شاهدت في خلال سفرتي عدداً قليلاً من هذه الأماكن أما البقية فلم أعرف موقعها بالضبط ولكنّني وددت أن أدرج أسماءها لعلّها تفيد البحّاثين والعلماء في حقل الجغرافيا. كما أود أن

---

(1) من المرجح أنَّ نيبور يقصد بـ(حديد) الحديثة، والروس هي آلوس (س.أ).

أسترعي انتباه الرحّالين إلى التسمية التي وردت في قرية دروزين، عمّا إذا كان يسكنها الدروزيون أو سبق لهم أن سكنوها؟ أما فيما يتعلق بصحة التسمية العربية لهذه البلدان وطريقة كتابتها فلا أستطيع الجزم بصحتها لأنَّ الملا الذي كتبها لي كان لا يُحسن الكتابة جيداً ولكنّني كتبت أسماءها بالألمانية أيضاً كما سمعتها[1].

إنَّ الأكراد والبدو لا يرضون أن يعيّن لهم الباشا حاكماً تركياً. فهم يصرّون على أن يترأسهم أحد رؤسائهم الذي يجب أن يكون من القبيلة نفسها ولذا فهم يقترحون اسم أحد شيوخهم على الباشا وعليه أن يوافق على تعيين الرئيس الذي يقترحونه. ولقد ذكرت عدداً من أسماء القبائل العربية في مواضيع سابقة وأخرى عند بحثي عن صفة جزيرة العرب، وأود أن أشير بهذه المناسبة إلى أنَّ عدداً من القرى التي في حوزة الباشا تدفع له جزية كل سنة.

كردستان

لم أصل كردستان ولذلك فإنّي أسرد هنا ما سمعته في ولاية بغداد من الأخبار عن هذه المنطقة، ذلك لأنَّ القسم الأعظم منها خاضع اليوم لنفوذ الباشا.

إنَّ كردستان بلاد جبلية وعرة المسالك وهي منطقة خصبة جداً كثيرة الخيرات والأثمار، وهي غنية بالأخص بأشجار البلوط

(1) آثرنا إبقاء أسماء المدن على الصورة التي كتبها نيبور بالعربية باللفظة التي سمعها من الملا كما أشار هو نفسه إلى ذلك في نهاية هذا الموضوع. (المترجم).

والعفص حيث ترسل منه كل سنة كميات كبيرة إلى حلب ومن هناك إلى أوروبا كذلك تشتهر بالمن ويُستعمل في هذه البلاد بدل السكر. وينبت فيها القطن والأرز والتبغ والعنب والتين والكراب (Fua) (Krab) ومن حاصلاتها القز وهو حرير خشن والماستيك (المستكي أو العلك) ولكنَّه ليس بجودة العلك الذي يأتي من جزيرة خيو (Chio) وبرغم أنَّ سكَّان هذه المنطقة يخضعون لحكم الباشا إلا أنَّهم يحكمون من رؤسائهم ولذلك فقد حافظوا على لغتهم التي تنقسم إلى ثلاث لهجات. فاللهجة الدارجة في منطقة كوي سنجق تكثر فيها المفردات الكلدانية والعربية. أما اللهجة الدارجة في شمالي كردستان ففيها مفردات كثيرة من اللغة التركية.

قره چولان أو قلعة چولان (Kolla Dsjolan)، وهي أوسع منطقة في بلاد كردستان الخاضعة لنفوذ السلطان وتحكمها أسرة صوران (Suran) وهي أحد أفخاذ قبيلة بوبة (Bôbbe)[1] ورئيسها يُدعى باشا ولا يختلف في مرتبة الباشوية عن الباشويين الكرديين الآخرين ذلك لأنَّ مرتبته الباشوية تصدر من باشا بغداد بطوغة واحدة فهي أقل مرتبة من مرتبة البگاوية التي يمنحها السلطان وبطوغة واحدة أيضاً[2].

ويتنافس عدد كبير من أفراد هذه الأسرة على الحصول على

---

(1) القبيلة البابانية المعروفة. وقد نقل الرحالة ريج، المقيم البريطاني ببغداد الذي زار منطقة السليمانية قولاً عن أصل البابانيين أنَّهم من الكرمانج من بشدر وأنَّ (به Bebeh) أو بابان لقب أسرته. (س.أ).

(2) راجع الهامش (1) صفحة (217) من هذا الكتاب (س.أ).

مرتبة الباشوية ولذلك فإنَّ باشا بغداد يعيِّن دائماً باشا من هذه الأسرة ولكن من يقدِّم له أكثر مالاً من الآخر. وباستطاعة المرء أن يُدرك مدى ما تُلاقيه هذه الرعية المسكينة من اضطهاد مزدوج، من الحكم الجائر: حكم الأتراك الظالم وحكم الإرهاب الذي تفرضه هذه الأسرة الحاكمة على أكراد قلعة جولان ومنطقتها، ولهذا فلا توجد في هذه المنطقة بلدة أو قرية. وقلعة جولان نفسها قرية صغيرة فقيرة وإذا ما أردنا أن نضرب مثلاً على أخلاق أمة ما، لوجود صفة واحدة بارزة فيها، فإنَّ ذلك ينطبق على الأكراد: إنَّهم شعب يحب الانتقام ويتفانى في أخذ الثأر. فقد حدث قبيل وصولي الموصل أن بات ملا ليلته في قلعة جولان فقام في الليل وذبح الباشا في فراشه لأنَّه أعدم أخاه.

وفي القسم الجنوبي من منطقة كردستان التابع لمقاطعة باشا قلعة جولان، تقع منطقة شهرزور (شهر الصول Schàhr Essul) وقد كانت فيما مضى باشلقاً كبيراً. ثم قرية گل عنبر (Gulumbar)[1] وهي قرية تقع بين كوي سنجق وكركوك وقد كانت إلى زمن قليل مركزاً لإقامة الباشا.

أما عن سرداوا (Serdaua) وبازيان (Basean) وميرگه (Margi) زنگنه (Sangana) وآغجلر (Agsjaller) فلم أسمع عنها أخباراً مهمة

(1) «گل عنبر» وتكتب گلعنبر ومعناه ورد العنبر وهي اليوم مركز ناحية خورمال. وتقع إلى الشمال من مركز قضاء حلبچة وليست كما ذكرها نيبور بين كركوك وكويسنجق (س.أ).

تُذكر ما خلا كونها قرى في كردستان. وهناك قلعة صغيرة تُدعى سردشت (Surdast).



أما الباشا الكردي الثاني، والذي يخضع لباشا بغداد ويدفع الجزية أو بالأحرى يقدِّم له كل سنة ثمن باشويته فإنَّه يسكن في كوي سنجاغ (كويسنجق) (Koi Sandsjak) وهو موقع معروف يبعد عن أربيل مسيرة ثلاثة أيام وعن الطون كوپري مسيرة يومين. ولقد عرفت من القرى الواقعة في منطقته قرية روش (Rosch) وقرية موران (Mauran) وقرية دووين (Dowin) وربما كانت مسقط رأس أيوب والد البطل المشهور صلاح الدين الأيوبي. ثم بلباس (Belbos) وهي قرية كبيرة فوق جبل عالٍ، تبعد عن الموصل مسيرة أربعة أيام أو خمسة أيام. وبلباس اسم لعشيرة متنقلة وتتشعب منها أفخاذ كثيرة تنتشر في بلاد فارس وسوريا.

راوندوز وتقع بحسب الوصف الذي قدَّمه لي أحد الأهلين في وادٍ صغير على جبل شديد الانحدار ويتصل بها طريق واحد ضيق. وقد قيل لي إنَّ سكَّان هذه المنطقة لا يدفعون لباشا كوي سنجق إلا شيئاً يسيراً من المال. والسلطة فيها لا تبقى في يد أسرة واحدة كما أنَّ السكَّان لا يسمحون للباشا أن يرسل لهم من يحكمهم من رؤساء العشائر الأقوياء المجاورة. فإذا ما توفي حاكم المدينة فإنَّه تنشب حرب أهلية بين فريقين كما هو الشائع بين المسلمين وتستمر حتى يتفوق فريق على الآخر فينتزع لنفسه السلطة.

والباشا الكردي الثالث، الذي يخضع لنفوذ باشا بغداد، يُدعى باشا درنه وهذا يحكم في زهاو (Sehau) وهو مكان يقع على الحدود الفارسية.

وفيما يلي عدد من القرى والمناطق الكردية التي لا تخضع لنفوذ باشا بغداد وهي إما أن تكون مستقلة استقلالاً تاماً أو أنَّها تدفع الجزية والهدايا للباشوات المجاورة لها وهذه هي عميدية[1] وهي قلعة حصينة تقع على جبل شديد الانحدار، صعب المسالك لا يمكن الاستيلاء عليها. تبعد عن الموصل مسيرة ثماني عشرة ساعة أي بمسافة تتراوح بين ثلاثة عشر ميلاً ألمانياً وأربعة عشر ميلاً ألمانياً. ويُدعى الرجل الذي يحكمها اليوم بهرام (Bahram) وهو من أسرة بلديناو (Baldinau)[2] التي تحكمها منذ زمن خلفاء بني العباس. والمفروض في هذا الحاكم أن يكون مستقلاً في منطقته ولكنَّه يدفع الجزية ويقدِّم الهدايا للباشوات المجاورين له ليُحافظ على قراه الواقعة في السهل من التخريب والدمار. وتستورد من منطقته كميات كثيرة من الأثمار كما لديه مناجم عديدة للرصاص والحديد، يقوم باستخراجها والاستفادة منها.

وتتبع باشا العمادية البلدان الآتية:

العقر: وهي بلدة صغيرة تبعد عن الموصل بمقدار سبعة أو

---

(1) يكتب الرحَّالة نيبور اسم العمادية: عميدية باللهجة الموصلية. (المترجم).

(2) الصحيح هو بهدينان أو بحدينان، والكلمة عربية مخفَّفة عن «بهاء الدين» من الأسر العريقة التي حكمت منطقة العمادية وما جاورها. (س.أ).

ثمانية أميال ألمانية[1] وقد كانت هذه البلدة مشهورة في زمن الخلفاء، وتشتهر اليوم بزراعة الأرز الذي يزرع في مناطقها المجاورة.

زاخو: وهي قرية صغيرة أيضاً تقع على طريق الموصل ـ الجزيرة، وهناك قرى أخرى كقرية نافكر (Nafker) والشيخان (شيخ خان Schech Chân) ودهوك والزيبار وسميل[2] وتقع الأخيرة على دجلة، على طريق اليزيدية من سنجار إلى مدفن قديسهم الشيخ عادي.

حكارية (هكاري): وهي إحدى مناطق كردستان وتقع في الجهة الشرقية من منطقة نفوذ العمادية وتجاور ولاية وان التركية. وهذه المنطقة الصغيرة جبلية وعرة المسالك، يسكنها النساطرة ولهم فيها بطريق يُسمَّى دائماً شمعون (سيمون (Simeon)) وهو مستقل عن القوش استقلالاً تاماً... الخ. ويُقال إنَّ باشا وان يرسل إليهم بيگا يسكن في قرية اسمها كوميري (Komeri) ولكن السكَّان لا يهتمون به كثيراً ولا ينصاعون لأوامره مخافة أن يقعوا تحت حكم المسلمين فإنَّهم يتجنبون إيجاد كل صلة معهم.

بيازيد: تقع في مقاطعة أخرى ضمن البلاد المجاورة لبحيرة وان يحكمها باشا كردي بالوراثة والسلطة في يد أسرته منذ سنين كثيرة وتتبع هذه المقاطعة مقاطعات جولمرك وبدليس (بتليس).

---

(1) الميل الألماني يُعادل 1650م.

(2) لا تقع سميل على نهر دجلة فهي واقعة على طريق دهوك ـ زاخو إلا إذا كانت في أيامه قرية بهذا الاسم تقع على دجلة وهي اليوم ناحية (المترجم).

وفي هذه المقاطعة الأخيرة تقع موش (Musch) وهي بلدة تمتاز بشهرة واسعة فيها قرية صغيرة أيضاً اسمها زازون.

وقد انتهزت فرصة إقامتي في الموصل فأخذت أبحث عن نقود رومانية ويونانية وفارسية قديمة ولكن الناس أكَّدوا لي بأنَّني أستطيع العثور عليها في منطقة كردستان لأنَّها تستعمل هناك في التداول لقلَّة النقود التركية. وقسم من هذه النقود يعثر عليه الأهالي بالتنقيب أما القسم الباقي فإنَّ تجار الموصل يجلبونه معهم إلى كردستان من نصيبين وماردين وديار بكر ومن المدن الأخرى ويشترون بها البلوط والعفص. ولكن في هذه العملية مخاطرة كبيرة فإذا ما علم الباشا التركي أو القاضي أنَّ أحداً من الناس يتعامل بالعملة القديمة فإنَّه يرسل عليه ويصادر كل ما عنده من نقود ومن ثم يلقيه في السجن وينهال عليه بالضرب بالسياط حتى يدلّهم على الخزينة التي عثر عليها ويطالبه بتقديمها له حتى وإن كان لم يعثر في الواقع على خزينة من هذا النوع.

وتكثر النقود العربية القديمة في بلاد المشرق ذلك لأنَّ العادة الشائعة في هذه البلاد أن يحلي الآباء رؤوس أولادهم بقطع كثيرة من هذه النقود أو يعلقونها في أعناقهم والمسلمون يحبِّذون استعمال هذه النقود حلية يلبسونها لأنَّها تحتوي على آيات من القرآن بينما لا توجد على النقود الحديثة من الكتابات غير اسم السلطان ولقبه.

ولا يستثمر السكَّان في هذه البلاد التي تكثر فيها الاضطرابات والقلاقل نقودهم في المشاريع أو يستخدمونها في معاملات الرهون

والتجارة كما هي الحالة في أوروبا بل يخزِّنونها في داخل الأرض لرداءة بيوتهم وخزاناتهم. ولذلك فإنَّ كثيراً ما يحدث أن لا يدلَّ من تحضره الوفاة من أفراد الأسرة، أهله وأقرباءه على اسم المكان الذي دُفن فيه كنزه وأمواله ليستخرجوها بعد موته. إذ كثيراً ما يعتقد أنَّه ما يزال هناك وقت كافٍ ليدلّهم على المكان قبل دنو منيته.

وقد قصَّ لي أحد الناس حادثة وقعت قبل بضع سنين وهي أنَّ أحد الأكراد من قبيلة كيكي (Kiki)[1] سقط من فوق جواده وأصبح في حالة خطرة تنذر بالموت وبقي من غير أن يخبر ولده عن المكان الذي طمر فيه ثروته حتى أشرف على الموت فانعقد لسانه وصار لا يستطيع الكلام ولم يعد قادراً على أن يقول لولده في أي تل دفن أمواله. غير أنَّ الابن أخذ يحفر في تلول عديدة ولكنَّه لم يعثر على شيء.

(1) لا توجد قبيلة بهذا الاسم ولربما المقصود به عشائر الكاكائية المعروفة، والكاكائية من الطرق الصوفية أسسها السيد إسحاق ابن الشيخ عيسى البرزنجي عام 716هـ-1316م، ومقامه في جبال هورمان. والكاكائية معناه (الإخوان). (س.أ).

الفصل الثالث

وصف الموصل وشمالي العراق

الموصل وشمالي العراق

آذار/مارس سنة 1766:

وفي أثناء إقامتي في بغداد لم أجد قافلة كبيرة أرافقها إلى حلب ولا سيَّما خلال البادية، إذ من الخطر جداً أن يسافر المرء وحده عن هذه الطريق. ولكن قافلة كانت على أهبة السفر إلى دمشق فاغتنم الفرصة عدد كبير من التجار لمرافقتها والسفر إلى حلب فعقدت العزم على الانضمام إليها وشددت الرحال. ولكن قبيل سفري علمت أنَّ القبائل العربية في سوريا على غير وفاق مع الباشا التركي وأنَّ شخصاً معروفاً قد عدل عن السفر بعد أن كان قد انضم إلى هذه القافلة، ولذلك فقد عدلت أنا أيضاً عن السفر بعد أن كنت قد قررت الالتحاق بهذه القافلة. وقد علمت بعدئذٍ أنَّ عدولي عن السفر مع هذه القافلة كان من حسن حظي لأنَّ القافلة نُهبت برمتها بالقرب من دمشق ونُهب معها صندوق كنت قد أرسلته معها إلى حلب.

إنَّ السفر إلى الموصل عن طريق كركوك ـ أربيل أمين جداً حتى أنَّ المرء لا يحتاج إلى انتظار سفر قافلة كبيرة ليرافقها. والمسافر غير

المضطر إلى السفر بعجالة، يحبذ سلوك هذه الطريق وإن كانت طويلة لأنَّ عدداً من المدن تقع عليها وهي جديرة بالزيارة وكذلك فإنَّها مفضلة على طريق بغداد ـ حلب التي لا تقع عليها سوى قريتين أو ثلاث. وهكذا فقد بدأت أستفسر وأسأل عمَّا إذا كانت هناك قافلة متأهبة للسفر إلى الموصل، فعلمت أنَّ جماعة من اليهود يتراوح عددهم بين خمسة وعشرين وثلاثين شخصاً كانوا قد جهَّزوا رحالهم وأنَّهم على أهبة الرحيل واستخدموا لنقلهم الحمير، إذ لم يكن لديهم غير هذا النوع من دواب الحمل لنقل بضائعهم. وكانوا قد لبسوا جميعهم ألبسة رثَّة وساروا بدون سلاح.

إنَّ اليهود في بلاد المشرق ممقوتون كما هم عليه في أوروبا ولذا فلم يكن باستطاعتي اختيار قافلة أسوأ من هذه كي أرافقها. والرجل الوحيد الذي صاحبته من بين أفراد هذه القافلة كان تاجراً مسنّاً من أهالي الموصل، وهو رجل غريب الأطوار ذو شخصية عجيبة وقد جاب هذه المناطق وبخاصة منطقة كردستان ولذا فقد تودّدت إليه آملاً الحصول منه على معلومات. ورغب هذا الرجل كثيراً في أن أسافر معه مؤكداً لي كغيره ممَّن أعرفهم سلامة الطريق وعدم وجود ما يُخشى منه.

ولما كنت لا أود أن تتجه إليَّ الأنظار وأكون حديث الناس في هذه الديار ومخافة أن يطول انتظاري لقافلة أخرى، قررت مواصلة رحلتي مع هذا اليهودي.

* * *

لقد كنت ما زلت أحتفظ بفرمان السلطان الذي استحصلته حال سفري من القسطنطينية كما أخذت من باشا بغداد بويور أولدي (جواز سفر) أيضاً، مع أنَّه لا يطلب من المسافرين في هذه البلاد جوازات سفر أو يوجد هناك من يسأل عنها ولكن من الأفضل أن يكون لدى المسافر جوازات سفر من هذا النوع لأنَّ من يملكها يحوز على احترام القافلة التي يسير فيها وأهالي القرى التي يمرُّ بها. فاستأجرت حصاناً وبغلين، أحدهما لخادمي والآخر لأمتعتي القليلة وودعت بغداد في الثالث من آذار/ مارس.

سافرنا في الطريق المستقيم من بغداد إلى ينكچة (Jankscha). (الخارطة شكل ـ 8) فوصلناها في مسار اليوم السابع. وفي خلال الأيام الخمسة الأولى من سفرنا في هذه الطريق لم أجد ما لفت نظري إلا شيئاً واحداً وهو أنَّني لم أر في خلال الأيام الثلاثة الأخيرة عمراناً أو أثراً لقرية على الأقل. ولكن المسافر في هذه المفازة يجد أماكن أثرية كثيرة ومن بينها تلول عديدة من التراب عليها بقايا جدران مبنية من الآجر.

وفي مكان يقع على درجة خط العرض 33 و57 دقيقة كانت تقوم عليه مدينة كرفه (Korfa)[1] التي بناها أحد خلفاء سامراء وما

---

(1) وردت في خريطة نيبور باسم اسكي كرفه ولعلَّها الغرفة وهي التسمية التي أصبحت تُطلق اليوم على البادية الواقعة شرقي نهر العظيم ويقطعها طريق بغداد ـ كركوك الحديث. ولا أعرف وجود آثار بالقرب منها، فإن وجد فربما كانت ساسانية .(المترجم)

تعليق: اللفظة (كورفة) لا تخلو من تصحيف، فهي قريبة من لفظة (كفري) وهي مركز قضاء تابع إلى لواء كركوك. وإلى الجنوب الشرقي من كفري الحالية =

تزال الجدران الأربعة لبناء شامخ قائمة هناك. ولو سرنا في الطريق الممتد على يمين قرية الدخيلة (Dochale)، لربما عثرنا على آثار عجيبة. وقد علمت أنَّ الناس هناك قد عثروا حديثاً عند خان مصبح (Chan M'sàbbach) على مقبب كبير وجدوا فيه صناديق حجرية كبيرة في داخلها موتى ورأوا على هذه الصناديق الحجرية كتابة، ربما تعود إلى زمن الآشوريين أو قدماء الفرس.

وفي اليوم الأول من سفرنا رأيت بوادر الجبن والخوف بادية على رفيقي اليهودي. فقد حدث أن عدداً من سواق الحمير وكانوا كلهم من المسلمين تشاجروا فيما بينهم وتعالى صياحهم كما هي العادة. فارتبك اليهود ودبّ الرعب في قلوبهم مخافة أن يصبّ سواق الحمير الذين تشاجروا فيما بينهم وتضاربوا، جام غضبهم على اليهود وينهبوا أموالهم. فالتمسني أحد اليهود أن أعيره مسدسي. فسألته إن كان يُحسن استعمال السلاح ويستطيع إطلاق النار. فأجابني: بأنَّه يأمل أن لا يكون المسدس محشواً بالطلقات طبعاً. وأردف قائلاً إنَّني أريد أن أتمنطق به فقط لكي أرهب كل من يحاول نهبي. وعندها أطلقت العيارات النارية من مسدسي في الهواء قصد تفريغه ولكن فزع اليهود اشتد فهرعوا إليَّ في الحال والتفوا حولي وأخذوا يتضرعون ويتوسلون إليَّ بأن أحيد عن عمل

= بمسافة 8 كم تقع خرائب كفري القديمة التي تعرف بـ(اسكي كفري). وإلى شمالها (يني كفري) أي كفري الجديدة. (راجع الخارطتين شكل ـ 3 أ، ب هذا بالإضافة إلى أنَّها وصفت بمدينة والغرفة بادية أو مغارة. وفي المنطقة عدد كبير من التلول الأثرية من العصور الفرثية والساسانية (س.أ).

أي شيء من شأنه إثارة سواق الحمير وإغضابهم الأمر الذي يؤدِّي إلى نهب أموالهم وتنبيه قطاع الطرق والسرَّاق بنا. وهذا مثال صادق على جبن اليهود وذلهم تحت حكم المسلمين ولذا فإنَّهم لن يفكِّروا أبداً يوماً ما في إشهار السلاح في وجه الأتراك للاستيلاء على فلسطين التي يتمنونها ويتمناها ويحلم بها معظم اليهود. ففي هذه الحادثة الصغيرة التي لا يوجد فيها ما يدعو لأن يفزع اليهود هذا الفزع الشديد اعتقدوا أنَّهم في خطر عظيم يداهم أموالهم وأرواحهم. وبعد أن تخاصم سواق الحمير هذا الخصام الشديد تصافوا فيما بينهم فواصلوا السفر.

تقع قرية ينكچة[1] على خط العرض 34 درجة و52 دقيقة وقد كانت في هذا الفصل من السنة خالية من السكَّان لأنَّ معظم أهاليها أقاموا لهم مضارب في الفلاة لرعي أغنامهم ومواشيهم.

ويكثر عند دوزخورماتو[2] القريبة من ينكچه الملح والقير وينابيع النفط، على أنَّ الناس لا يهتمون بالقير في هذه المنطقة لأنَّ ينابيعه تكثر في هيت الواقعة على الفرات ويستعمله الناس هناك في طلي سفنهم. أما النفط فإنَّه مرغوب فيه في هذا المكان وهو من النوع العادي الأسود ويتخذه الناس وقوداً لمصابيحهم بدل الزيت. حيث يقطعون من الزبل اليابس قطعاً طويلة ثم يغمسونها في النفط ويوقدونها بهيئة المشاعل. ومشاعل الزبل هذه

(1) وتلفظ (ينچه) وقد يكون المقصود بها قرية (انجانة) القريبة من جبل حمرين (س.أ).
(2) هي بلدة طوزخورماتو الحالية وقد كتبها الرحَّالة نيبور هكذا. (المترجم).

تفوح منها عند حرقها رائحة كريهة لا تُطاق لا سيَّما في زمن الحر وهي غير صحية وبالأخص عندما يشعلها الفلاحون في بيوتهم أيام الشتاء. وفي هذا الفصل يقوم الفلاحون بإنجاز أعمالهم عند عيون القير. أما المشاعل التي يستعملها الباشا والنبلاء والموسرون في بغداد فتتكوَّن من خرق بالية مفتولة تُغمس في النفط ثم تجفّف لتُستعمل بدل المصابيح. وبهذا النفط يلطخ البدو والفلاحون الجمال في أوائل الربيع عندما يتساقط وبرها ليظهر لها وبر جديد. وقد علمت أنَّ في هذه المنطقة نفط أبيض أيضاً يستعمله الناس دواء للشفاء من بعض الأمراض وقد أكَّد لي الأهلون أنَّ هذا النفط الأبيض إذا ما سُكب على رأس شخص ما فإِنَّه يتسرب إلى جسمه ثم يخرج من أصابعه وقدميه بما يشبه العرق. وإنَّ العاقل ليُدرك بسهولة أنَّني لا أود مشاهدة تجربة مثل هذه تحدث أمامي.

وفي اليوم التاسع من آذار/ مارس بعد أن سبت اليهود أمسهم واصلنا السفر من ينگچه إلى طاووق التي تبعد أربعة أميال ونصف ميل عن ينگچه. وتقع هذه البلدة على نهر يتدفَّق بقوة. وقد شاهدنا في طريقنا مراع زاهية وحقولاً نضرة ولكنَّنا لم نر قرية. ويظهر أنَّ طاووق كانت تُدعى في سالف الأزمان داقوق وأنَّها كانت مدينة عظيمة الشأن(1) وفيها بقايا باب مدينة ومسجد كبير

(1) يغلب على الظن أنَّ اسمها داقوقا وقد وردت في:

Semmler: Uebersetzung der Algemeinen Welthistorie der neuern Zeiten Tom. II = 78.

= هذا ما قاله نيبور تعليقاً على طاووق.

مبني من الآجر وجميع البيوت مبنية إما من الجص أو من الطين فقط. وبالقرب من هذه القرية ضريح لأحد أولياء المسلمين واسمه زين العابدين ويعتقد الناس هنا أنَّ هذا المزار يرد البصر لأعمى واحد في كل سنة. ولذا فإنَّه ليس من الغرابة بمكان أن يقصده المسلمون كل سنة ويزورونه بجموع غفيرة. وابنه الإمام محمود مدفون هناك أيضاً ويعتقد المسلمون أنَّ تراب قبره دواء شافٍ من جميع الأمراض.

وفي اليوم العاشر واصلنا السفر من طاووق إلى كركوك فبلغناها بعد أن قطعنا خمسة أميال ألمانية. ويمرُّ المسافر في أثناء سيره في هذه الطريق، بطريق جبلي منخفض يُطلق عليه الأهلون اسم الإسكندر وهم يدعون أنَّه مدفون في هذا المكان. وقد أخبرني رفيقي اليهودي بأنَّ سكَّان هذه المنطقة يقصدون باسم الإسكندر: الإسكندر ذا القرنين لا الإسكندر الكبير[1].

وفي أثناء إقامتنا في طاووق حدَّث الأهلون اليهود الشيء الكثير عن أعمال قطاع الطرق والسراق وشدة خطرهم، حتى أنَّهم قطعوا الطريق مرة على باشا بغداد وباشا كركوك وذلك بين طاووق وكركوك ممَّا اضطر اليهود ـ بدافع الخوف ـ إلى أن يرفقوا معهم

وأود بهذه المناسبة أن أشير إلى أنَّ قبائل البو فرج والحديديين المذكورين في خارطة الرحلة هما اسمان يُطلقان على العشائر العربية والكردية التي تتجوَّل وتتنقل في هذه المنطقة.

وعن داقوق بحث ممتع عن تاريخها والتنقيب فيها والمصادر التاريخية المهمة، في مجلة «سومر» المجلد 12 [1956]، ص38 ـ 64. (المترجم).

(1) الإسكندر ذو القرنين والإسكندر الكبير شخص واحد .(المترجم).

أربعة من أهالي طاووق بأجور باهظة لمحافظتهم. وقد اتضح لي أنَّ هؤلاء الأربعة كانوا هم أنفسهم من قطاع الطرق وقد قصَّوا لليهود روايات عن حوادث النهب المرعبة وذلك لكي يلقوا في قلوبهم الفزع فيطلبوا مرافقتهم لقاء مبلغ طيب من المال. وقد سألت أحدهم وكنت قد قضيت ليلتي في بيته، من أين لك هذه البندقية الجميلة وهذا السيف الممتاز؟ فأجابني بأنَّه كان قد رافق مرة أحد المسافرين وكان معه هذان السلاحان فأعطاني إياهما لأنَّه كان لا يعرف استعمالهما. ثم أخبرني بأنَّه سگمان (جندي) وأنَّه غالباً ما يرافق المسافرين ويتعاطى التجارة معاً[1].

كركوك

تقع كركوك في سهل جميل كثير الخيرات ولكنَّه قليل العمران وموضعها على الخارطة هو خط العرض 35 درجة و39 دقيقة. ولم يبق إلا الشيء القليل من المدينة الأصلية الواقعة على سفح التل ذي الانحدار الشديد وفي أسفله. أما التل نفسه فإنَّه مزدحم بالسكنى ويحيط به من الأعلى سور من الطين وفيه حامية من الينيچيرية ويُدعى القلعة[2].

وهذه التي يسمونها القلعة أقذر مكان رأيته لحدِّ الآن وبيوتها

(1) وما زالت هذه الكلمة تستعمل في العراق نعتاً للهداف الممتاز ولكن بصيغة النسبة، فيُقال فلان سگماني أي إنَّه هداف .(المترجم).

(2) القلعة موضع أثري يعود تاريخه إلى حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وفي عام 1923 عثر بطريق الصدفة على عدد من ألواح الطين المدوَّنة بالمسمارية عند سفح التل الذي تقوم عليه القلعة فوقه (س.أ).

بلا استثناء في منتهى الرداءة. وفي القلعة ثلاثة مساجد ولها منائر. إنَّ أحد هذه المساجد مهم لأنَّ فيه قبور الأنبياء دانيال وميخائيل وحنانيا واليعازر (عزاريا) ولا يشك اليهود مطلقاً في أنَّ أنبياءهم هؤلاء مدفونون في هذا المسجد ولكن المسلمين لا يسمحون لهم بدخول المسجد لزيارة قبور أنبيائهم.

وفي كركوك نحو من أربعين كلدانياً ونسطورياً ينتمون إلى كنيسة روما. فما كادوا يسمعون بقدوم زائر أوروبي إلا وهرعوا على الفور لزيارتي، فاستبشروا بقدومي كثيراً وفرحوا أن يروا رجلاً من بلاد القديس بطرس وقد التمسوني أن أمضي عندهم بضعة أيام. وفي خلال حديثي معهم أظهرو لي تذمّرهم وامتعاضهم من بقية مسيحيي المشرق لتمسكهم بالخرافات القديمة وعدم اعتقادهم بأنَّ البابا خليفة المسيح في الأرض.

وقد نصحت هؤلاء الناس الطيبين بالصبر وطلبت منهم أن يكونوا واسعي الصدر مع المسيحيين الآخرين بدون أن أجعلهم يشعرون أنَّني لست من مذهبهم. ومن الجدير بالذكر أنَّني وجدت جميع نصارى بلاد المشرق متفاهمين مع بعضهم بعضاً إلا أنَّهم لا يميلون إلى النصارى التابعين للكنيسة الرومية الكاثوليكية. كذلك وجدت البعض الآخر من النصارى الذين اهتدوا على أيدي الرهبان الأوروبيين والبعثات التبشيرية التابعة لهم، أعداء ألدَّاء لمن لم يتبعهم من إخوانهم في المذهب السابق فبقي على عقيدته.

إنَّ كركوك مقر باشوية من درجة طوغتين ولكن الباشا لا يقيم في المدينة وإنَّما قبالتها في الجانب الثاني من النهر ومنطقة نفوذه

صغيرة جداً. أما البقية من ولاية شهرزور (شهر الصول Schàhr Essul) والتي تقع على الطريق الممتدة بين طاووق وأربيل، فتعود بأجمعها إلى باشا بغداد كما مرَّ عليها القول.

ولم يُلاق نادر شاه عناءً كبيراً في الاستيلاء على هذه المدينة وقلعتها ولكنَّه عندما مُني بالفشل أمام الموصل واندحرت قواته هناك اندحاراً شنيعاً[1]، انسحب بسرعة من كركوك متكبّداً فيها خسائر فادحة أيضاً. لقد وجدت في الطريق عدداً من القنابل، كان الفرس قد تركوها قبل عشرين عاماً. وفي هذه الأماكن عدد كبير من الطواحين المائية (الأرحاء) ولذا فإنَّ كميات هائلة من الطحين تُشحن من هنا إلى بغداد ويُجلب بدلها من البصرة التمر والبضائع الأخرى.

وبالقرب من كركوك عيون للقير والنفط كما هناك مكان يُدعى (بابا گرگر)[2] وهو في غاية الغرابة خاصة وأنَّ أرضه حارَّة لدرجة أنَّها كافية لقلي اللحم والبيض ولا يحتاج المرء إلى ذلك سوى عمل حفرة صغيرة في الأرض ووضع القدر عليها. وقد أكَّد لي أُناس كثيرون مشاهدتهم اللهيب يتعالى من هذا المكان وأنَّهم كثيراً ما يذهبون إلى مكانه فيشاهدونه بأنفسهم. ولذلك فقد قلت في خاطري إنَّه لا

(1) كان ذلك في سنة 1156هـ ـ 1743م وفي ذلك نظم فتح الله القادري الموصلي أرجوزة، حقَّقها ونشرها الأستاذ سعيد الديوه جي (مطبعة الهدف ـ الموصل 1384م ـ 1955). (س.أ).

(2) بابا گرگر موضع ورد ذكره في المصادر القديمة اشتهر بناره، وفي عام 1925 حفرت شركة نفط العراق أول بئر نفط استُثمرت لأغراض التصدير خارج العراق. (س.أ).

يزال لديَّ متسع من الوقت لزيارة هذا المكان، لا سيَّما وأنَّ المسلمين من أفراد قافلتنا وهم سواق الحمير، أرادوا البقاء في كركوك لمدة يومين لقضاء عطلة العيد (بيرم). ولكنَّه حدث أنَّ قافلة أخرى قدمت كركوك في صبيحة اليوم الحادي عشر وأرادت مواصلة السفر إلى أربيل فقررنا مرافقتها. كذلك لم نجد قرية على هذه الطريق إلى بلدة ألطون كوپري التي وصلناها في مساء اليوم الثاني عشر، إلا أنَّنا صادفنا كثيراً من الأسر الكردية تقوم برعي مواشيها وأنعامها في هذه المراعي الجميلة.

ألطون كوپري:

(ومعناها الجسر الذهبي) وهي بلدة يتراوح عدد بيوتها بين أربعمئة بيت وخمسمئة بيت. وتقع على الزاب الصغير على جزيرة صغيرة وقد سُمّيت باسم الجسر الكبير الذي بُني على أحد فرعي هذا النهر. ويتحدَّث الناس عن هذا الجسر الذي يمتاز بقنطرة ذات علو غير معتاد، إنَّ الجسر القديم الذي انهار قبل بضع سنين لم يكن عالياً كعلو الجسر الحالي وقد اضطروا لبنائه بهذا العلو الشاهق لأنَّهم لم يجدوا بنّاءً يستطيع بناء قنطرة هذا الجسر بارتفاع أقل من هذا الارتفاع.

وقد أمطرت السماء علينا ليلة أمس وفي هذا اليوم، مطراً شديداً حتى أنَّنا تبلَّلنا وتعبنا، ولكن القافلة اجتازت المدينة وحطَّت رحالها في الجانب الثاني من النهر في العراء. وقد نصحني الأهالي بالذهاب معها لأنَّ النهر سيرتفع لشدة انهمار

المطر في الليلة الماضية وأنَّ مجراه سيكون قوياً ويصبح اجتيازه خطراً. لقد كنت أتبع دوماً نصيحة الناس وأسير حسب آرائهم، أما الآن فقد فكَّرت في الراحة وأردت أن أنام ليلتي المقبلة بهناء لا سيَّما وقد كنَّا ننتظر نزول أمطار غزيرة أخرى، لذلك فقد فضَّلت البقاء في البيت وباشرت بتجفيف ألبستي وأرسلت البغل مع الأمتعة إلى الجهة الثانية من النهر وبقيت مع خادمي وسائس حصاني.

وقد صادف حلول العيد (بيرم) في ألطون كوپري فأخذ الناس يقيمون أفراحهم لهذه المناسبة فتمتعت بمشاهدة الاحتفالات والأفراح التي أقامها أهالي هذه المدينة بالصورة التي رأيتها من قبل في شوارع القاهرة ومن جملتها الأراجيح التي نُصبت هنا وهناك وقد جلس فيها الناس على اختلاف أعمارهم وحتى الشيوخ بلحاهم المتدلية. ورأيت مبارزة بالعصي، تتلقى ضرباتها مخدة (وسادة) كل من الشخصين المتبارزين في إحدى يديه[1].

لقد كلفت شخصاً بالقيام بتدليك عضلاتي برفق أو بالأحرى أن يقوم بقرص جسمي بكلتا يديه. إنَّ هذه العملية تزعج الأوروبي في بادىء الأمر فلا يشعر بلذتها ولكنَّها عادة متبعة في بلاد المشرق

(1) وقد كان لقدماء المصريين أمثال هذه المسليات في أعيادهم راجع:
Recherches philosophiques sur les Egyptiens et les Chinois Tom. II, 157.
(المؤلف)

تعليق: هذه اللعبة كانت ولا زالت تُمارس في بعض المدن العراقية وتُسمَّى بـ(الطابگ) (الطابق) وهي ضرب من المبارزة (س.أ).

وقد ارتحت لها شخصياً ولا سيما بعد رحلة يوم متعبة. وعملية الدلك لا تحتاج إلى عناء كبير سوى أن يستلقي المرء على الأرض ثم يقوم شخص معين بدلك الجسم بأجمعه وضغطه بكلتا قبضتيه بكل رفق ليجعل الدم يجري في مجراه الطبيعي.

كوي سنجق:

وهي مقرّ باشا كردي تابع لباشا بغداد وتقع على مسيرة 12 ساعة إلى الشمال الشرقي من ألطون كوپري وقد كانت أربيل وألطون كوپري إلى قبل بضعة أعوام تابعتين لهذا الباشلق، أما الآن فإنَّ والي بغداد يرسل حاكماً عنه إلى أربيل فيقوم هذا الأخير بدوره بإرسال آغا إلى الطون كربري.

وفي صباح اليوم الثالث عشر وجدت مستوى ماء النهر قد ارتفع فعلاً فخاطرت في عبوره بعد أن عرضت نفسي إلى الهلاك مرَّات، ولقد كان بودِّي أن أبقى في ألطون كوپري وأتخلّف عن القافلة ولكنَّني وجدت نفسي مضطراً إلى الالتحاق بها لأنَّني تركت معها أمتعتي القليلة وصناديقي. أما رفاقي فقد سبقوني بمسيرة تزيد على الساعة فأقدمت لوحدي على الالتحاق بهم وكان معي خادمي وسائس حصاني ولكنَّهما كانا خائفين كثيراً من قطع هذه المسافة بمفردنا، غير أنَّنا لحقنا بالقافلة عند قرية (گوزتپه) فبدت عليهما عند ذاك دلائل الفرح والانشراح. والواقع أنَّ إقدامي على السير بمفردنا كانت مغامرة كبيرة، ففي الطريق اعترضنا خيال ثم اثنان من شيوخ الأكراد على صهوة جواديهما، وكانوا كلهم يطمعون في

سلبنا ونهب ما عندنا من متاع. إلا أنَّهم لم يجرؤوا على ذلك، لأنَّهم كانوا يحملون حراباً فقط بينما كنت أحمل بندقية ثم لأنَّني كنت أجيبهم فوراً وبدون تلكؤ على أسئلتهم حول سفرتي ولم أظهر لهم أدنى خوف.

وتقع إلى الجهة الغربية من الطريق سلسلة كبيرة من الجبال يسميها الأهالي سلسلة جبال (قره چوق) وقد أكَّد لي كثيرون وجود بقايا قرى ومدن عديدة ولكنَّه من الخطر على المسافر الغريب التجول في تلك المنطقة لأنَّ السكَّان هناك لا يعيرون أدنى اهتمام للحكَّام الأتراك المجاورين.

قوش تپه:

وقد سُمِّيت باسم تل صغير. وقد رأيت لأول مرة أثناء رحلتي هذه، امرأة مسلمة تصلِّي وتُقيم جميع شعائر الصلاة من ركوع وسجود. والعلماء الأوروبيون يختلفون في الرأي فيما بينهم فيما إذا كانت المرأة المسلمة تُقيم الشعائر الدينية كما يُقيمها الرجل المسلم وعمَّا إذا كان لها أمل (كالرجل) في الدخول في الجنة أم أنَّها تبقى خارجها؟ ولقد يستغرب العلماء المسلمون من هذا الاعتقاد ويزداد استغرابهم حين يجدوني أشك في أنَّ النساء لهن في الإسلام حق الدخول في الجنَّة. وقد أكَّدوا لي بأنَّ الشعائر الدينية التي يجب أن يؤديها الرجل المسلم هي نفسها مطلوب تأديتها من المرأة المسلمة أيضاً، وأنَّها كالرجل المسلم أيضاً يجب أن تصلِّي أوقات الصلاة الخمسة في اليوم. وقد لاحظت عدداً

منهن يُقمن الشعائر الدينية في البيوت. على أنَّ المسلمة لا تُرى ولا تُشاهد كالرجل ولذا فإنَّها قلَّما تصلِّي. وقرية قوش تپه تُسمَّى (خان عادلة) أيضاً ومع أنَّ جميع أراضي هذه المنطقة كثيرة الخصب إلا أنَّها كانت إلى قبل بضعة أعوام صحراء قاحلة، خالية من السكَّان ما خلا بعض الأكراد الذين يتجولون فيها في أوقات معلومة من السنة[1]. وقد أمر أحمد باشا والي بغداد بحفر بئر وإقامة دار للراحة في هذا المكان وذلك لتسهيل الطريق على السُّعاة وموظفي البريد. كما أمرت ابنته عادلة خاتون بتشييد خان لتأمين راحة المسافرين والمستطرقين. وأصدر الباشا فرماناً يفضي بمنح الحرية وحق زرع الأراضي المحيطة بهذا المكان لكل من يرغب السكنى فيها من الفلاحين وبهذه الطريقة تكوَّنت قرية كبيرة في مدة وجيزة من الزمن.

وإنَّه لمن السهل جداً على الباشوات الأتراك أن يقوموا بمثل هذا العمل الذي يؤدِّي إلى استيطان الرحّل من أبناء رعيتهم واستثمار الأراضي البور والاستفادة من خيراتها ثم إعمام الزراعة والعمل على تقدُّم البلاد. غير أنَّه لما كانت مدة بقاء الباشا في مقاطعته قصيرة جداً لذا فإنَّه يقضي هذه المدة الوجيزة من الحكم في جمع الثروة والاهتمام بمنفعته الشخصية ولا يهتم في إصلاح البلد والترفيه عن الناس بل إنَّه إضافة إلى ذلك كله يترك الفلاح الفقير نهباً للمغامرين من العرب والأكراد الذين يتجولون في هذه

---

(1) وما زال الخان الذي بنته عادلة خاتون قائماً إلى يومنا هذا وتشغله الشرطة مخفراً. (المترجم).

المناطق للحصول على المغانم عن طريق السلب والسرقات. ولذلك فإنَّه ليس من الغرابة في شيء أن تسير الولايات التابعة للدولة العثمانية من سيىء إلى أسوأ ويزداد فيها الخراب والدمار باستمرار.

أربيل

وفي اليوم الرابع عشر قطعنا مسيرة ثلاثة أميال ونصف حتى بلغنا أربيل. وهذه المدينة هي أربيلا بلا شك، التي اشتهرت في المعركة التاريخية الحاسمة التي وقعت بين الإسكندر الكبير ودارا[1]. وقد كانت إمارة إسلامية عاشت سنين كثيرة وكان أمراؤها الذين حكموا بالوراثة يتصفون ببأس شديد، فوسَّعوا رقعة إمارتهم وجعلوها تشمل مناطق واسعة امتدت إلى داخل بلاد فارس حتى مدينة توريز (تبريز؟). وكانت المدينة آنذاك كبيرة جداً ولها قلعة مشيَّدة على تل مرتفع. أما اليوم فلم يبق منها شيء ما خلا القلعة ولكن حتى هذه ليست مسوَّرة وإنَّما أُقيمت عليها البيوت ولا سيَّما حول حافة التل بصورة متماسكة فلا يستطيع أحد أن ينفذ خلالها إلى داخل المدينة إلا من داخل باب المدينة الحالي[2].

(1) حدثت هذه المعركة في موضع ذُكر في المصادر الإغريقية باسم (گوگاميلا) الواقع في سهل أربيل وذلك عام 331 ق.م. (س.أ).

(2) ويطلق محمد مهدي خان على أربيل اسم القلعة، راجع:
Geschichte Nadir Schah, S.364.
ولقد هدم هذا المدخل الأثري سنة 1959 وكان الواجب يقضي على مديرية الآثار العامة أن تحافظ على هذا الأثر الرائع وهي المسؤولة عن حماية الآثار وصيانتها .(المترجم).

أما في التل الواقع في أسفل القلعة حيث كانت تقع عليه مدينة أربيل الكبيرة فتوجد بضعة بيوت فقيرة. هذا وليس في أربيل آثار شاخصة ما خلا بقايا جامع كبير يقع بعيداً عن القلعة وسط الحقول وهو من آثار السلطان المظفر(1) والمنارة القائمة بجانب الجامع(2). قوية البناء وهي مبنية من الآجر والكلس.. ولها مدخلان ومرقاتان ويمكن الصعود إلى قمتها الآن بسهولة أيضاً. ومدخلا المنارة متقابلان وباستطاعة شخصين الصعود إليها في آنٍ واحد بدون أن يرى أحدهما الآخر حتى يصل برجها.

تقع مدينة أربيل على درجة خط العرض 36 و11 دقيقة وهي تابعة لولاية بغداد وفيها حامية من ينيچرية القسطنطينية.

---

(1) لم يبق من هذا الجامع سوى المأذنة المعروفة بالظفرية نسبة إلى مظفر الدين كوكبري المتوفى عام 630هـ أصلحت ورُمِّمت مؤخراً [راجع سومر 16 (1960) ص127] (س. أ).

(2) والمراد به هو مظفر الدين كوكبري بن أبي الحسن علي بن بكتكين بن محمد صاحب أربل والملقب بالملك المعظَّم. تملَّك أربل وشهرزور بعد وفاة أخيه زين الدين يوسف سنة 586 للهجرة في مدينة الناصرة أثناء وفوده عليها مع بقية وفود الأمبراطورية الإسلامية لتهنئة السلطان صلاح الدين الأيوبي بمناسبة انتصاره على الصليبيين في معركة حطين. ولهذا الملك تاريخ حافل بالبطولة في محاربته الصليبيين بجانب صلاح الدين وفي مشاريعه العمرانية والإصلاحية التي قام بها ولا سيَّما في بنائه ملاجىء ودوراً للعجزة والأيتام والأرامل والعميان وأعمال البر والخير الأخرى وتأمين العدل والرفاه لشعبه وقد كان كغيره من سائر الملوك المسلمين الصلحاء مهتماً في تشييد المساجد. فبنى المسجد الذي ذكره الرحَّالة نيبور أعلاه والذي لم يبق منه سوى منارته القائمة اليوم. راجع وفيات الأعيان لابن خلكان، الجزء الأول، ص345 وما يتبع). (المترجم).

وأرومية وهي مدينة تقع في بلاد فارس تبعد عن أربيل مسيرة خمسة أيام. وقد روى لي عدد من الناس وسمعت ذلك في أربيل أنَّ هناك أشكالاً كبيرة الحجم وكتابات منقوشة على الصخور في جبال بهستون التي تقع بين كرمنشاه وهمدان. ولكن يهودياً من الموصل قال لي إنَّها تقع بين الوند (حلوان) وهمدان (اكباتانا التاريخية). وكانت هذه الأماكن بعيدة جداً عن طريق رحلتي. على أنَّه إذا سافر أحد الأوروبيين في المستقبل إلى أصفهان أو أراد الرجوع عن طريقها فإنَّ باستطاعته سلوك هذه الطريق واستنساخ الكتابات الموجودة في جبل بهستون. ولعلَّ هذه الكتابة تدلُّ على لغة أهل البلاد وأنَّها كُتبت بحروفهم الهجائية كالتي كتبت على نقش رستم. وقد استنسخت قسماً من هذه الأخيرة كما هو مبين في الشكل ـ 7[1].

---

(1) ويقول المؤرخ الإغريقي ديودروس Diodorus الصقلي في الجزء الثاني من كتابه المكتبة التاريخية Bibilotheca Historica إنَّ سميراميس أمرت في هذا المكان نحت أشكال ضخمة ونقش كتابات على الصخور. ولقد شاهد الرحَّالة أوتر Otter هذه الرسوم والكتابات في جبل بهستون ولكنَّه لم يرسم منها شيئاً أو يستنسخ كتاباتها. راجع:
Otter: Voyage en Turquie et en Perse Tom. I, P.184- 188. (المؤلف).

الشكل ـ 7

كتابات من جبل بهستون استنسخها نيبور وهي

من الكتابات الفهلوية المستعارة حروفها من الآرامية

والأراضي في منطقة أربيل لا تُسقى بمياه الأنهار والجداول كما هي الحال في بغداد والبصرة. وزراعة القمح تغلّ عشرة أمثال في هذه المنطقة ولا تزيد في سنوات الخير عن الخمسة عشر مثلاً. والقمح الذي تعتمد زراعته على الأمطار يكون أكثر بركة وأحسن طحيناً من الذي يُسقى بمياه الأنهار كما يكون ألذّ طعماً. والسبب في أن يدر محصول القمح في هذه المنطقة إلى ما يقرب من خمسة عشر مثلاً في حين تنتج زراعة القمح في بغداد عشرين مثلاً، يرجع إلى زراعة بذورها في هذه المنطقة بكثافة عند سقيها ديماً فلا تُنبت جذورها في آنٍ واحد وأغلبها يجفّ فتأكله الطير.

إنَّ معظم أفراد القافلة الذين سافروا معنا من كركوك لم يسيروا مسافة أبعد من أربيل إذ انتهى سفرهم عندها. وقد سمعنا أنَّ قافلة أخرى ستسير في اليوم السادس عشر فالتحقنا بها ورحلنا مبكرين. وبعد مسيرة تسع ساعات أو خمسة أميال ونصف ميل ألماني وصلنا الزاب الكبير (الزاب التركي) الذي ينبع من جبال حكاري وهي مقاطعة من بلاد كردستان. إنَّ مستوى ماء النهر هذا منخفض جداً بحيث يمكن اجتيازه على ظهور الخيل بكل سهولة وبدون أي خطر عندما تنقطع الأمطار عن الهطول مدة طويلة من الزمن، وحين يتأخر ذوبان الثلوج المتساقطة على الجبال المجاورة عن موسم ذوبانها المعتاد. أما الآن فإنَّ مستوى الماء فيه كثير الارتفاع وشديد الجريان. والمسافر من أربيل إلى الزاب لا يرى قرية واحدة مطلقاً ولكن على الضفة الثانية من النهر قرية اسمها قرية عبد العزيز وهي مسكونة من أُناس يعرفون باليزيدية أو

الدواسن[1] وهؤلاء اليزيدية لا يستطيعون إقامة شعائرهم الدينية علانية لأنَّ الأتراك لا يسمحون بحرية الأديان لمن ليس من أهل الكتاب كالمسلمين والنصارى واليهود ولذا فإنَّهم مضطرون إلى مزاولة شعائرهم الدينية سرّاً. ويدَّعي اليزيدية إذا ما سألهم أحد عن دينهم، انتماءهم لأحد الأديان السماوية الثلاثة ويتحدثون بكل احترام وتقديس عن القرآن والإنجيل وكتب موسى الخمسة والمزامير. وإذا ما اطلع أحد على حقيقة دينهم وعرف أنَّهم يزيدية ادعوا بأنَّهم والسُّنَّة على دين واحد.

يتضح ممَّا تقدَّم أنَّه يصعب على أحد معرفة حقيقة ديانة اليزيدية والاطلاع على معتقداتهم[2]. ويتهمهم البعض أنَّهم يعبدون الشيطان ويسمونه چلبي أي السيد. وآخرون يدّعون بأنَّ اليزيدية يقدّسون الشمس والنار ويسمونهم من أجل ذلك بالكفر والإلحاد ويتهمونهم بأنَّ لهم عادات وتقاليد رذيلة ومن المحتمل أنَّهم ينتمون إلى طائفة الإباضية Beiasiten في عمان. ولما كان الدواسن منتشرين بكثرة بين الزاب الكبير وسوريا وأرمينيا فهم لذلك معروفون لدى سكّان جميع المدن المجاورة، ولذا فإنَّني أودّ أن أدوِّن بعض ما لاحظه عقلاء

---

(1) نسبة إلى جبل داسن ويقول عنه ياقوت الحموي في معجم البلدان ج2 ص432 طبعة بيروت 1956 بأنَّه جبل عظيم في شمالي الموصل من جانب دجلة الشرقي فيه خلق كثير من طوائف الأكراد يُقال لهم الداسنية. (المترجم).

(2) المؤلفات والمصادر الباحثة عن اليزيدية ومعتقداتهم كثيرة سواء في العربية أو الإفرنجية ذكر بعض منها في كتاب «اليزيديون في ماضيهم وحاضرهم» لمؤلفه الأستاذ المؤرخ عبد الرزاق الحسني، ط3، صيدا (1961). (س.أ).

السُّنَّة ونصارى المشرق من عقائدهم وما لديهم من معلومات اقتبسوها من أقوال الدواسن وأفعالهم.

يزعم هؤلاء الناس أنَّ مؤسس الديانة اليزيدية هو الشيخ عادي ويعتقدون أنَّ أصلهم ينحدر من العرب وأنَّهم كانوا من جماعة شمر بن الجوشن[1] فقتلوا الحسين حفيد محمد ولاحقوا آل علي في أيام الخليفة يزيد. وتستنتج هذه الجماعة من عقلاء السُّنَّة ونصارى المشرق من ادعائهم هذا، بأنَّ الدواسن يقدِّسون الشمر ويعدّونه من أوليائهم وأنَّ الشيعة الذين يعتبرون الحسين من أعظم شهدائهم يعدّون قتل اليزيدي ثواباً.

ولدى الدواسن تماثيل بهيئة الأفاعي والكبوش وحيوانات أخرى. واعتقادهم في هذا هو أنَّ الأفعى تذكِّرهم بإغراء حوَّاء آدم وأنَّ الكبش يذكِّرهم بإطاعة إبراهيم لأوامر الله حين وافق على أن يقرّب ولده قرباناً لله. وقد أكَّد لي آخرون أيضاً من أنَّ الدواسن لا يعبدون الشيطان بل إنَّما يعبدون الله ويقدِّسونه فقط لأنَّه خالق كل شيء ويجلب الخير للبشر.

وهم يقولون إنَّه ليس من شأن البشر أن يتحزبوا أو يتدخلوا في خصام وقع بين الله وأحد ملائكته المغضوب عليه، كمثل الفلاح الذي غضب عليه الباشا وأخذ الناس يشتمونه ويلعنونه ويسخرون منه. إنَّ الله لا يحتاج إلى مساعدتنا في معاقبة الشيطان بسبب معصيته إيَّاه ويجوز أن يصفح عنه ويشمله برحمته وعندئذٍ ماذا

(1) هو الشمر بن ذي الجوشن (س.أ).

سيكون موقفنا؟ ولسوف يصيبنا الخجل وتقع علينا اللائمة يوم القيامة أمام عرش الديَّان إذا ما لعنا أحداً من ملائكته غير المقدَّسين، فمن الأفضل علينا أن لا نتدخل في قضاء الله وقدره وأن لا نطري ذكر الشيطان بل يجب علينا أن نتضرع إلى الله وأن نعمل صالحاً حتى لا نقع في عقابه ونُحرم من رحمته.

وإذا قدم اليزيدية إلى الموصل فلا يتعرضهم ولاة الأمور ووجهاء البلدة حتى وإن عرفوا أنَّهم يزيدية ولكن العامة يتحرَّشون بهم ويؤذونهم. فإذا أراد اليزيدي بيع ما عنده من البيض أو الدهن فإنَّ المشتري يحاول أخذ البضاعة من يد اليزيدي بحجَّة رؤيتها وفحصها ومن ثم يعامله على السعر ويتخذ هذا التعامل وسيلة لأن ينزل على الشيطان كل ما يستطيع لسانه نطقه من اللعنات. وكثيراً ما يكون الداسني مؤدباً وخلوقاً فيفضل ترك البضاعة والتخلي عنها وعن الثمن على أن يسمع اللعنات على الشيطان. أما في الأماكن التي يقطنها الدواسن وحيث يكونون فيها الأكثرية فلا يجسر أحد على لعن الشيطان أو ذكر اسمه إن أراد أن يسلم من الضرب وينجو من الموت.

واليزيدية يتبعون سُنَّة الختان كالمسلمين إلا أنَّهم يشربون الخمرة والمشروبات الروحية القوية الأخرى ولكن بقدر معلوم ويبقون ممسكين بالكأس بكلتا اليدين وإذا انسكبت الخمرة من كأس أحدهم خطأً فإنَّهم يحفرون تلك البقعة التي انسكبت عليها الخمرة ويحملون ترابها إلى مكان آخر لا تطؤه القدم. والدواسن يشربون الخمرة لدرجة لا يسكرون معها ويفقدون رشدهم ولهذا

فإنَّه لا ينتظر من الداسني أن يصبح سكراناً. وبسبب السكر فإنَّ رسول العرب ﷺ حرَّم شربه لتجنُّب هذه الحالة. وعلماء اليزيدية الروحانيون يلبسون السواد بخلاف المسلمين الذين لا نجد عندهم هذه القاعدة. ويصوم اليزيدية ثلاثة أيام في السنة فقط ولهم موسم للحج يحجّون فيه إلى قبر الشيخ عادي وهو مدفون في مكان بين عقرة والموصل[1] وفي هذا المكان حوض ماء كبير يُلقي فيه اليزيدية كثيراً من المسكوكات الذهبية والفضية تكريماً لوليهم وقدّيسهم الشيخ عادي. وقد أغرت هذه الكمية الكبيرة من الأموال أحد النساطرة القاطنين بالقرب من هذا المكان فانسل أثناء الليل ونزل في الحوض ليأخذ له مقداراً من الذهب والفضة وصادف أن جاءت في تلك اللحظة ابنة السادن لتأخذ ماءً من الحوض فرأت شخصاً وسط الماء. ولما كان من المحال على أي شخص أن تحدِّثه نفسه بسرقة هذا المكان المقدَّس ولا يخطر ببال أحد أن يسطو عليه سارق. لذا فإنَّها اعتقدت بأنَّ هذا الشخص الذي رأته وسط الحوض المقدَّس لا يمكن أن يكون غير الشيخ عادي نفسه. فهرعت عائدة إلى والدها لتخبره بالنبأ العظيم من أنَّ قديسها قد ظهر عليها بنفسه فرأته وسط ماء الحوض. وقد انتشر الخبر بسرعة بين الدواسن الذين استبشروا له وفرحوا به فرحاً عظيماً. أما النسطوري فقد تمكَّن في أثناء ذلك من الهروب والتنعم بما غنمه.

ويعتقد جميع المسلمين أنَّ لسكَّان جبل سنجار الذين معظمهم

---

(1) يقع قبر الشيخ عادي على بعد عشرة كيلومترات من عين سفني في الجهة الشمالية منها. (المترجم).

من اليزيدية كنزاً يزيدون ما يتجمع فيه كل سنة لشيخهم عادي ويخبئونه في بئر أو داخل ماء متجمع. وقد صادف أنَّ بعض قبائل هذه المنطقة سلبت قبل بضع سنوات بعض المسافرين من بغداد فتعقبهم سليمان باشا ولكنَّه لم يكتف بالقضاء على العشائر اليزيدية الرحَّالة وحسب بل إنَّه تغلغل في جبل سنجار وأمر بجلد نبلاء اليزيدية وشنق عدد منهم ولكن لم يبح له أحد بمكان الكنز.

واليزيدية منبوذون من السُّنَّة أيضاً حتى أنَّ الشافعي وهو أحد عظماء علماء السُّنَّة لا يخطِّىء المسلم المؤمن إذا قتل أحداً من أتباع هذا المذهب. ولكن لقاء هذا فإنَّ أحد وجهاء العثمانيين وبقية المسلمين والنصارى واليهود الموجودين في قافلتنا مضطرون على ائتمان اليزيدية على أرواحهم في اجتيازهم الزاب. ذلك لأنَّ النهر الآن في زيادة كبيرة يصعب معها اجتياز النهر على ظهور الخيل كما أنَّه ليست هناك واسطة لعبور النهر غير أكلاك اليزيدية من أهالي قرية عبد العزيز في الجانب الثاني. على أنَّ هذه الأكلاك ليست من المتانة بحيث تقوى على مقاومة تيار الماء الجارف ويطمئن لها المسافر فهي أردأ واسطة للنقل رأيتها في حياتي. ويتكوَّن الكلك من (32) اثنتين وثلاثين قربة منفوخة من جلد الشاه، توضع أربع منها في الطول وثمان منها في العرض وكلها مرتبطة بحبل واحد وتحمل فوقها قطعة واحدة من الخشب[1].

---

(1) راجع أسفار آيفز.

Eduard Ives Reisen II, S. 168.

وفي النص الألماني غلطة واضحة تقدّم للقارىء فكرة مغلوطة عن الكلك وقد جاء =

وفي أثناء الطريق أخذ أفراد القافلة ينصحون بعضهم بعضاً ويحذِّرونهم من لعن الشيطان وضرورة الاحتراس من ذكر اسمه أمام اليزيدية لأنَّ العاقبة قد تكون وخيمة. إذ حدث مرة أنَّهم قلبوا الكلك بالركاب فغرقوا مع أمتعتهم ونجا اليزيدية سباحة. ولما رأيت هذا النوع من العوامات وسعة النهر وقوَّة تياره ثم الدواسن الذين يعرفون أنَّهم مكروهون وممتهنون من جميع الشعوب ورأيتهم في هذه اللحظة يسخرون من المسافرين الذين استولت على قلوبهم أمارات الخوف وظهرت على وجوههم دلائل الفزع وكأنَّما يريد اليزيدية في هذه اللحظة إظهار أهميتهم في حياة أفراد القافلة، فلما رأيت كل هذا خامرني شيء من اليأس وصرت ليس بأقل خوفاً من بقية المسافرين. ولم يكن يوجد إلا عدد قليل من الأكلاك كانت تذهب جيئة وذهاباً لنقل المسافرين وأمتعتهم بدفعات متعددة. وكل واحد أراد أن يكون أول من يركب الكلك وكل واحد أراد أن لا يدفع مقدار الأجرة التي طلبها الدواسن وقد تطوَّر التعامل إلى خصام شديد.

وإنَّني لا أُغالي إذا ما قلت هذه الحقيقة التالية: وهي أنَّني لم أسمع من هؤلاء المسافرين لعنات وسباباً طول الطريق ابتداءً من بغداد حتى هذا المكان بقدر ما سمعته في هذه البقعة بالرغم من أنَّ كل واحد منهم تعهَّد بأن يمسك نفسه عن السبّ والقذف وذكر الشيطان إذا ما وصلوا إلى مكان الدواسن. وقد كنت قد قررت أن

= فيها إنَّ هذه الآلة تحرّك بعجلتين والأصح هو بمجذافين أو عدة مجاذيف .(المترجم).

لا أتدخل في شؤون هذه الجماعة وأن لا أخاصمهم، فدفعت لليزيدي الموكل بنقلنا، أجرة عبوري وزيادة عمَّا طلبه من كل فرد من الآخرين وذلك لكي يأتيني بكلك أحسن، شريطة أن تكون القراب أحسن نفخاً من البقية. ولما لم يتفق أصحاب الكلك على الأجرة مع الآغا التركي، أعرضوا عنه والتفتوا إليَّ وباشروا ينقلون أمتعتي إلى الكلك. فوجد أحد خدم التركي في هذه العملية إهانة موجَّهة إلى الآغا فغضب وانزعج لتفضيل اليزيدي إياي على سيده وباشر يوجه إليَّ وإلى اليزيدي اللعنات والشتائم، غير أنَّ أمتعتي وسرج حصاني وحمل بغلتي كانت قد استقرت على الكلك، فجلست فوقها وكان تيار ماء النهر قوياً وحادّاً وموجه متلاطماً ومخيفاً فأخذ يتلاعب بالكلك ويراقصه. وكنت وصاحبي في فزع شديد حتى خيّل لنا أن نتضرع إلى الشيطان!! كلَّما أوشك الموج أن يبتلعنا ولكنَّنا وصلنا بعون الله الشاطىء الثاني بسلام. أما الدواب فقد عبرت النهر سباحة وكلا النوعين من الخيل والبغال يسبح جيداً وكان أحد الدواسن يعوم على قربة واحدة ويقود بيده ثلاثة من الخيل أو البغال أو أربعة منها. أما الحمير فكان من الضروري أن يقود في النهر أكثر من حمارين. وقد غرق أحدهما وكان صاحبه مسلماً فلم يدخر وسعاً في لعن الشيطان وكيل السباب لليزيدي الذي تولى قيادة حماره عبر النهر. كذلك لم يخش الاستمرار في السب والشتم ولعن الشيطان حتى بعد وصولنا إلى قرية اليزيدية لأنَّ عددنا كان كثيراً واستبعد أن يبطش به أحد من اليزيدية. غير أنَّ سبابه ولعناته هذه لم تفده شيئاً، ففي الليل

سرق الدواسن حماره الآخر وتركوه يولول ويبكي ويسبّ ويلعن قدر ما يشاء.

وفي اليوم السابع عشر سرنا مسيرة أربع ساعات حتى وصلنا إلى كراملیس وعبرنا في طريقنا إليها نهراً صغيراً اسمه الخازر وكان ماء هذا النهر قد ارتفع أيضاً بفعل هطول الأمطار الغزيرة في الأيام الأخيرة ولكنَّنا مع ذلك استطعنا عبوره راكبين[1].

وفي طريقنا من الخازر إلى الموصل شاهدنا في كل مكان الحقول والمزارع النضرة وقرى كثيرة منتشرة هنا وهناك وأذكر إضافة إلى أسماء القرى المدوَّنة في الخارطة (شكل ـ 8)، قرية شيخ أمير Amir وقرية أميدان Ameidân وباز گرتان Bâs Girtan وباس سخرا[2] Băs Sachra. والقريتان الأخيرتان تقعان في سفح

---

(1) كان هذا المكان بلا شك الموقع الذي انتصر فيه الإسكندر الكبير على دارا. ويظهر أنَّ الخازر هو بوميل Boumelle وأنَّ الزاب هو ليكوس Lycus وأنَّ أربيل هي أربيلا. وأورد كورثيوس Curitus, IV, 8 أنَّ الإسكندر سار من أربيل إلى ممنيس Memnis حيث فيها منابع القار فوصلها في أربعة أيام. إنَّ كركوك تبعد عن أربيل مسيرة عشرين ساعة وتبعد عنها دوزخورماتو خمس وثلاثين ساعة وقد تكون الأخيرة هي بلدة ممنيس. أما هيت التي توجد فيها منابع القير أيضاً فتبعد عن أربيل مسافة كبيرة. ولذا فلا يحتمل أن يقطع الإسكندر الكبير هذه المسافة في أربعة أيام. كذلك عسكر التتر سنة 633هـ على نهر الخازر. ولقد وردت في:

Semmler: Uebersetzung der Algemeinen Welthistorie der neuer Zeiten II, Teik.

أسماء كثيرة يجدها القارىء مذكورة في الخارطة .(المؤلف).

(2) الصحيح «باصخرا» والاسم مصحَّف عن باصفرا وهي قرية تقع في لحف الجبل الذي سُمّي باسمها «جبل عين صفرا» لوجود عين كبريتية فيها، وقد ذكرها البلدانيون العرب (س.أ).

جبل عين الصفرة الذي سُمّي باسم عين فيه، ماؤها بارد أصفر يستعمل لطبابة أمراض كثيرة.

كرامليس:

وكانت هذه مدينة كبيرة في سالف الأزمان[1]، أما اليوم فيتراوح عدد بيوتها بين الستين بيتاً والسبعين بيتاً ولكنَّها ليست مبنية بناءً ضعيفاً كالبيوت الواقعة في منطقة باشا بغداد وإنَّما مبنية بالكلس والحجر وأكثرها مقبَّبة. ومدخرات الحبوب فيها بُنيت في داخل الأرض كما في بلاد فارس، وكان جميع سكَّان كرامليس إلى قبل سنوات قليلة خلت من النساطرة. وحال وصولي القرية استقبلني أغنى رجل فيها وقد كان نفسه مختار القرية ورجاني أن أحلّ ضيفاً عليه وقد لاحظت من بين أهل القرية 12 ـ 16 رجلاً في ألبسة وسيمة. وبعد الانتهاء من عبارات الترحيب المطوَّلة والأسئلة العديدة عن سفرتي من بغداد، سألني أحدهم فيما إذا كان البابا هو رئيس الكنيسة الرومية الكاثوليكية فقط وليس رئيس الكنائس المسيحية الأخرى. ولم أكن أشك أبداً أنَّ من الواضح لدى هذه الجماعة أنَّ الأرمن واليونان والأقباط لهم بطريقياتهم الخاصة كما هي الحالة عند النساطرة وأنَّ جميعهم لا يعترفون برئاسة البابا وسلطانه. وبادرني خصمي بالسؤال قائلاً: أو ليس البابا

(1) لقد ذكرت هذه البلدة في أوصاف رحلات سابقة تحت اسم كاورقوي لأنَّ جميع سكَّانها من المسيحيين ولا يقطنها مسلم واحد .(المؤلف).

خليفة القديس بطرس؟ أو لم يقل له المسيح أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أريد أن أؤسس كنيستي؟ وقد أظهر لي هذا بقوله إنَّه ليس نسطورياً وإنَّما كلدانياً (مهتدياً). فأجبته إنَّه ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ بطرس كان يُبشِّر بتعاليم الإنجيل في روما حيث يُقيم اليوم البابا الرئيس الرُّوحاني الأعلى الذي يعمل على نشر تعاليم المسيح في البلدان الأخرى ولكن الإنجيل لا يقول إنَّ الذي يكون الرئيس الرُّوحاني الأعلى في روما يكون أيضاً الرئيس الرُّوحاني لجميع المسيحيين وسيَّان عندي أن يعترف المرء بزعامة البابا كرئيس روحاني في الأرض أو لا يعترف به. فجميع المسيحيين من أي مذهب كانوا، عندهم الإنجيل ويعتقدون بتعاليم المسيح الذي بشَّر بها بطرس. وأرى أنَّهم إذا اتبعوا تعاليم الإنجيل فإنَّ الله لن يفرِّق بين الكلداني والنسطوري وبين بقية المسيحيين الآخرين. ثم سألني خصمي إن كنت لست إفرنجياً (أوروبياً) وإنَّني يونانياً؟ فأكَّدت له بأنَّني أوروبي ولكن من البلاد الأوروبية التي لا تعترف برئاسة البابا منذ مئتي سنة. وقد كان الباقون من الجماعة مستمعين فقط فتقدَّم الآن بعض النساطرة للاشتراك في الحديث وبادرني أحدهم قائلاً: لقد كان من الأجدر بك يا عزيزي القس أن تبقى على دين آبائنا وأجدادنا وأن لا تعمد إلى تغيير دين إخواننا وأهل مذهبنا. لقد قمت أنت وآخرون كثيرون بالدعوة ضد بطرقيتنا (بطرياركتنا) فوصمتموها بشتى التهم ونصبتم بدله

أوروبياً رئيساً على الكنيسة ثم إنَّك بصفتك أحد الأوروبيين لا نعترف بهذا الأوروبي رئيساً أعلى للكنيسة.

لقد آلمني جداً أنَّني أزعجت كلا الفريقين بهذا الحديث وأغضبتهم ولكنَّني أكَّدت لهم بأنَّ نصف أوروبا ما زالت كاثوليكية رومية وأنَّ الآخرين وإن كانوا لا يعترفون بالبابا ولكنَّهم يعدّون أنفسهم نصارى لا فرق بين أحد منهم كما هي الحالة بين مختلف الطوائف النصرانية في بلاد المشرق من الأمبراطورية العثمانية. وأرى أنَّه من الأحسن أن يترك لكل شخص حرية الاعتقاد بما هو مؤمن به ومتأكد من صحته وبذلك تظلون أصدقاء أحبَّاء. غير أنَّ القس لم يرتح لقولي هذا وقال إنَّ البعثة التبشيرية الأوروبية في الموصل أكَّدت له بأنَّ جميع أوروبا تعترف بزعامة البابا الرُّوحانية ولذا فإنَّه يشك بأن أكون أوروبياً، ولو كنت أوروبياً لقرأت هذا وعندها لعلمت أنَّه على حق. ثم أخرج من ثنايا نطاقه (عبّه) كتاباً صغيراً مكتوباً باللاتينية مع ترجمة بالسريانية أو الكلدانية ففتحه وأشار إلى المكان الذي فيه: أنت بطرس... الخ. فأجبته بأنَّنا قد تكلَّمنا عن هذا الموضوع وأنَّ هذه الجملة ليست موجودة في كتابه فقط بل في جميع الكتب النصرانية فقد تجادل أعاظم العلماء حول هذه الجملة سنوات كثيرة دون أن يتفقوا على مضمونها لذا فنحن كلانا لا نستطيع الوصول بجدلنا هذا إلى حلّ مرضي. وبدأت أغيّر مجرى الحديث وأتكلَّم عن موضوعات أخرى، منها عن خصوبة الحقول والأراضي التي تعطي محصولاً يتراوح

بين عشرة أمثال وخمسة عشر مثلاً. وعن أدوات حراثتهم التي لا تختلف رداءة وقدماً عن أدوات الحراثة في مصر وفي بقية بلاد المشرق. وقد أخفق هذا العَالِم الرُّوحاني لأنَّه كان قد أعدَّ هذا المجمع أملاً أن يُلاقي من أوروبي مثلي مساعدة في جميع مهمَّاته الدينية. غير أنَّني كنت صديقاً طيِّباً للجميع. ولما قرب الوقت لصلاة المغرب حيث يهرع المسيحيون في بلاد المشرق للذهاب إلى الكنيسة عند الغروب لإقامة الصلاة، ذهبنا جميعاً إلى الكنيسة وكانت على اسم القديسة (بربارة) فأروني ضريح هذه الشهيدة وضريح جاريتها ولكن الأخيرة لم يكن لها المنزلة والتكريم اللذان يولونهما لضريح القديسة بربارة بركوعهم عند قبرها والتضرع لها بطلب العون والمساعدة.

وعلى مقربة من القرية تل من المعتقد أنَّ فوقه كان قصر والد القديسة بربارة، يشرف على السهول الجميلة المزروعة والمحيطة به، ويقع مار متى أو شيخ متى (ماثيوس) فوق جبل عالٍ يبعد ثلاث ساعات شمال شرقي كرامليس وهو دير مع قرية يقطنها اليعاقبة النصارى. والمعتقد أنَّ فيه بعض الآثار ولكنَّها ليست ذات أهمية كبيرة. وفي قرية باصخرة التي تبعد ساعة ونصف ساعة عن كرامليس باتجاه الشمال والشمال الشرقي قبر لأحد القديسين باسم دانيال، يزوره الأهلون.

وتقع في شمال هذا المكان وعلى بعد ثلاث ساعات قرية بحزانى كما تقع قرية برطلة Baratol شمال غربي كراماليس وعلى بعد ساعة منها، وجميع سكَّانها من اليعاقبة. وإلى الشمال الغربي

منها تقع قرية (خزنة تبه) Chasna Töppe وجميع سكّانها من المسلمين وإلى الغرب منها بمسيرة ساعة ونصف ساعة تقع قرية منارة Minâre[1] وهي قرية صغيرة وقد كان سكّانها إلى قبل بضع سنين من النصارى، أما اليوم فإنَّ جميع سكّانها من المسلمين أيضاً. وبمسافة تبعد ميلاً واحداً باتجاه الجنوب الغربي تقع بلدة قره قوش وجميع سكّانها من اليعاقبة.

إنَّ اللغة الشائعة اليوم بين سكّان القرى الواقعة في هذه المنطقة هي اللغة السريانية ولكن اللغة السريانية أو الكلدانية التي يتكلّم بها سكّان هذه القرى تختلف عن اللغة الأصلية التي كُتبت بها كتب الكنائس كما هي الحال بين اللغة العربية الحديثة والقديمة[2]. والنصارى المختلطون بالأجانب عن طريق التعامل التجاري يتكلّمون الكردية والتركية ويتكلّمون العربية التي هي اللغة المعتبرة في هذه البلاد ولغة التأدب والتحضر. ومن الجدير بالذكر أنَّ كلمات غريبة كثيرة قد دخلت على اللغة السريانية الحالية.

---

(1) هناك منارة عليا ومنارة سفلى ومنارة الثالثة. ويقصد نيبور هناك منارة سفلى القريبة من طوبراق زيارة في ناحية الحمدانية راجع: منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء لياسين العمري وتحقيق سعيد الديوه جي: ص165، (س.أ).

(2) يتكلّم أكثر سكّان هذه القرى اليوم «السورث» وهي اللهجة السريانية المكسّرة المعروفة بالفلاحية والمنتشرة في منطقة الموصل الشمالية أي قرى نصارى الموصل وأربيل والسليمانية وكويسنجق وطور عبدين وبحيرة أورمية وسنا في بلاد فارس وبعض قرى إسلامية في جوار دمشق أكبرها قرية معلولة مع اختلاف بينها في هذه اللهجة. راجع الخوري أفرام عبدال في كتابه اللؤلؤ النضيد في تاريخ دير مار بهنام الشهيد (الموصل 1950) ص214. (س.أ).

ويجدر بي في هذه المناسبة أن أقول بعض الشيء عن النساطرة الذين لهم بطريق يُقيم في القوش، وهي قرية لا تبعد كثيراً عن الموصل. ويُدعى البطريق في الوقت الحاضر إلياس. وتحت سيطرته الدينية نحو من ثلاثمائة قرية من المحتمل أنَّ عدداً كبيراً منها غير مسكون بالنصارى ولا يمتثل بطريق نساطرة منطقة حكاري لأوامر بطريق القوش إذ لا يخضع أحدهما للآخر كما ذكرت ذلك في ص332[1].

ويُقيم بطريق اليعاقبة في ديار بكر كما سيرد عليه الكلام.

وبلدة القوش تمتاز بخاصية أخرى هي أنَّ النبي ناحوم وُلد فيها ومات فيها ولذلك فإنَّ اليهود لا يزالون يحجُّون إلى قبره كل سنة. ويظهر أنَّ القوش هي المكان نفسه الذي ورد ذكره في تاريخ العالم العام Algemeine Welthistorie تحت اسم الكواشي Al- Cawachi وقد كانت في بداية القرن السابع الهجري قلعة حصينة.

---

(1) ذكر الرحَّالة كارستن نيبور في ص332 من الجزء الثاني لكتابه هذا عن بطريق نساطرة حكاري ما يلي: «حكاري مقاطعة تقع في منطقة كردستان شرقي منطقة نفوذ العمادية وتتاخم محمية وان. وهذه البقعة الصغيرة من الأرض جبلية ووعرة المسالك يقطنها النساطرة ولهم بطريق اسمه على الدوام شمعون (سيمون) وهو مستقل تمام الاستقلال عن بطريق القوش. ويقول سكَّان هذه المنطقة إنَّ باشا مدينة وان يرسل إلى هذه المنطقة حاكماً عنه يُدعى بيك ويُقيم في قرية كوميري ولكن السكَّان لا يعيرون له اهتماماً يُذكر بل هم يبدون له الخضوع ظاهرياً لأنَّهم واقعون تحت حكم المسلمين فلا يجسرون على قطع الصفة به تماماً. ونساطرة حكاري لا يرغبون بقدوم التجار المسلمين إليهم لشراء منتوجاتهم والتعامل معهم كما أنَّهم لا يسمحون لأي مسلم أن يسكن بينهم ويعيش معهم» . (المترجم).

الموصل

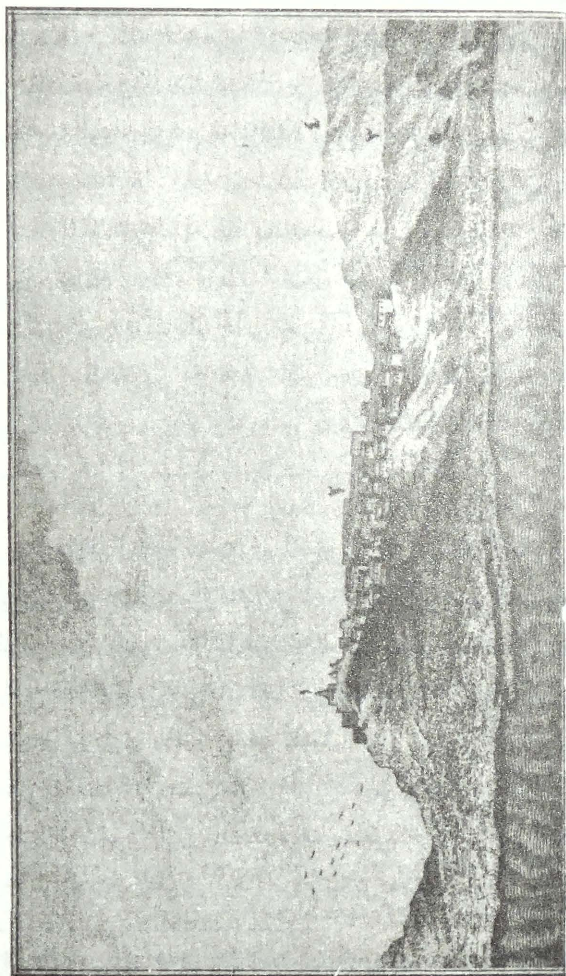
وفي اليوم الثامن عشر غادرت كراmليس إلى الموصل فقطعت ثلاثة أميال ألمانية بين الحقول والمزارع وفي الجهة الشمالية من الطريق تقع قرى باشبيثا Baschbita وبازاوه[1] Basaua وگوگجلي Godsjeli. وبالقرب من القرية الأخيرة نهر صغير شُيِّد عليه جسر. أما في الجهة الجنوبية من الطريق فإنَّ المرء يشاهد قريتي منارة Minăre وكوچك Kodsjak.

وقبل أن يصل المسافر إلى الموصل من هذه الجهة، يسير خلال نينوى. وسعة هذه المدينة على رأي نصارى الموصل، تمتد من قاضي كند (القاضية) حتى قرية يارمجه والمسافة بينهما نحو ميلين ألمانيين. وهاتان القريتان تقعان على نهر دجلة ولكن اليهود يدعون أنَّ المدينة كانت أوسع من ذلك بكثير حتى أنَّ المسافر كان يحتاج مدة ثلاثة أيام لقطعها. وما كنت أتصور أنَّني سأكون في موقع عظيم الأهمية إلا بعد أن أشرفت على نهر دجلة وهنا أراني الناس قرية مشيَّدة على تل كبير يطلقون عليها اسم نينوى وفيها

(1) ذكرها ياسين بن خير الله الخطيب العمري في منية الأدباء باسم (بازواى) في صفحة 135. (س.أ).

مسجد بداخله قبر النبي يونس (Yonas) واليهود يقدِّسون هذا الضريح حتى يومنا هذا ولكن منذ أن دخل في حوزة المسلمين لا يجسرون على الاقتراب منه. على أنَّهم يحجُّون إليه ويزورونه من خارج المسجد ويقولون إنَّ المسلمين لا يسمحون لهم بالدخول في المسجد وزيارة الضريح وهذا ادعاء كاذب من اليهود لأنَّ الموصليين لا يمنعون المسيحيين مطلقاً من زيارة أضرحة أوليائهم وقديسيهم في الأماكن التي كانت في زمن ما كنائس ثم حوّلت إلى مساجد وجوامع ولهم مطلق الحرية في زيارة هذه الأضرحة قدر ما يريدون ومتى ما يشاؤون. ولربما كان السبب في ذلك هو أنَّ اليهود لا يريدون الدخول في معبد لا يعود إلى دينهم أو أنَّ بخلهم الشديد يمنعهم من ارتياد بيوت عبادة المسلمين حتى لا يتبرعوا بشيءٍ من المال لأعمال البر والخيرات أو للسدنة والمقيمين. فإنَّ القائمين بإدارة هذه المساجد يرحِّبون بكل ما يجود عليهم الزائر من المال لا كما هي الحال في أوروبا.

أما التل الآخر الواقع في هذه البقعة فهو قلعة نونيا Kalla Nunia أو قلعة نينوى وتقع عليه قرية قوينجق. وفي أثناء إقامتي في الموصل بدار تقع على نهر دجلة أراني أحد أهل الدار أسوار نينوى التي لم تجلب انتباهي أثناء مروري منها فقد ظننتها سلسلة من التلال ولقد رسمت بعدئذٍ مخططاً لمدينة نينوى يجده القارىء في الشكل ـ 6 والأرقام (1) يشير إلى المسجد الذي فيه قبر النبي يونس و(2) يشير إلى قرية نونيا و(3) يشير إلى أسوار نينوى و(4) إلى جبل عين الصفراء.



الشكل - 6

منظر عام للقسم الشرقي من مدينة الموصل وتشير الأرقام إلى:

(1) جامع النبي يونس (2) قرية نينوى (نونيا) (3) سور مدينة نينوى (4) جبل عين الصفراء

ويربط نينوى بالموصل جسر كالجسر القائم على دجلة في بغداد وفي الحلة، غير أنَّ سعة النهر في الموصل يختلف عنه في بغداد حيث يبلغ عرضه في الموصل (66) ستاً وستين خطوة مزدوجة أي نحواً من (300) ثلاثمائة قدم. ويطفو الجسر على عشرين عوامة. فإذا ما سقط المطر بشدة أو ذاب الثلج الذي يكسو الجبال المحيطة بالموصل فإنَّ مستوى ماء النهر يرتفع وتياره يشتد بحيث يقطع اتصال الجسر بأحد جانبي النهر، هذا إذا لم يجرفه التيار على حين غرة وقد حدث ذلك في اليوم الثالث والعشرين من شهر آذار/ مارس. فقد جرف التيار الجسر في هذا العام مرتين وكثيراً ما يجرفه للمرة الثالثة (فيضطر الناس للبحث عنه في مكان ما بعيد عن الموصل).

ولقد ارتفع مستوى النهر الآن بضعة أقدام. وفي اليوم الأول من شهر نيسان/ أبريل أُعيد ربط الجسر الخشبي بالجانب الثاني من النهر. والشاطىء الشرقي للنهر منخفض وأرضه رخوة ولذا فإنَّ الطريق إلى الجسر في فصل الشتاء وفي موسم الأمطار موحل ورديء جداً. وكان الباشا قبل بضعة أعوام قد قام ببناء سدّة مرتفعة أو جسر على هذه الطريق ولكن قناطره كانت واطئة وضيِّقة فجرفه تيار الماء وهدمه في أول موسم فيضان النهر والآن أصبح الطريق أردأ من السابق بكثير[1].

(1) أول من شيَّد القناطر على الجانب الشرقي من دجلة هو (صاري مصطفى باشا) الذي تولى الموصل 1135هـ - 1720م وفي 1155هـ - 1741م جدَّد الحاج حسين باشا الجليلي القناطر. انظر سومر 12 (1956) ص115 - 117 (س.أ).

والمسافر المقتصد لا يجد طريقاً أرخص وأقل نفقات من هذه الطريق وبخاصة فيما يتعلق بالگمرگ وأجرة الطريق (ضريبة الطريق والعبور). ففي ينكچة وكركوك وألطون كوپري وأربيل وعند نهر الزاب لم أدفع سوى جزءٍ قليل من النقود وهذا النوع من الضريبة يُدعى (باج).

وفي الموصل أخذوا أمتعتي وصناديقي إلى الگمرگ ولكنَّهم لم يفتشوها ولم أدفع شيئاً من النقود ما عدا جزءاً قليلاً من الدراهم كالتي نسميها نقود (أجور إخراج گمرگي)، دفعتها لأحد المستخدمين حتى ينهي عملية إخراج أمتعتي بسرعة. ويدفع التجار على كل حمل جمل من الأقمشة سواء أكان من الكتَّان أو من الحرير أم كان من النوع الخشن أم الناعم، عشرة قروش وعلى حمل القهوة سبعة قروش ونصف قرش وعلى حمل الجمل الذي يحتوي على فلفل وبضاعة أخرى ستة قروش وثلثي القرش. أما إذا كانت البضاعة محمَّلة على حمار أو بغل فإنَّها توزن ويدفع (الباج)[1] عليها بالنسبة للأحمال السالفة الذكر.

والسفر من الموصل إلى بغداد في نهر دجلة سهل جداً والواسطة الوحيدة للسفر هو الكلك إذ لا توجد واسطة غيره وهو واسع جداً والتجار يحملونه بضاعة كثيرة. وإذا أراد التجار مرافقة بضاعتهم فإنَّهم يبنون فوق الكلك غرفة صغيرة لتقيهم من المطر وحرارة الشمس. وتستغرق الرحلة النهرية إلى بغداد في

(1) الباج ـ نوع من الضريبة تُفرض على المواشي (س.أ).

أيام الربيع عندما يكون تيار الماء قوياً ثلاثة أيام إلى أربعة أيام، أما في الأوقات العادية فإنَّ الرحلة تستغرق أربعة عشر يوماً ولذلك فإنَّ المسافرين والتجار يفضِّلون الطريق البري. والمسافر بطريق النهر يستطيع التوقف في تكريت وسامراء.

سامراء وتكريت:

وقد كانت تكريت في الأزمان السالفة مدينة مشهورة وآثارها ما زالت باقية تدلُّ على ما كانت عليه من سعة وأهمية في الزمن القديم. كذلك كانت سامراء مدينة مهمة فقد كانت مقرّاً لعدد من الخلفاء، عاش فيها ثلاثة من كبار أئمة الشيعة[1] ودفنوا فيها وتُزار قبورهم كل سنة من جموع غفيرة من الفرس. وفي سامراء برج ضخم مرتفع جداً يشبه برج الرصد في كوبنهاگن وليست له سلالم بل طريق لولبي منسرح[2].

والواقع أنَّ سامراء لم تكن وحدها مشهورة بمبانيها الأثرية القائمة بل هناك عدد كثير من المباني الأثرية القائمة على طول شاطىء دجلة بين الموصل وبغداد. على أنَّ هذه الآثار قد تعود جميعها إلى الزمن الإسلامي لذلك فلا يحتاج المسافر أدنى عناء لزيارتها والتعرف عليها[3].

---

(1) هم: علي الهادي والحسن العسكري والإمام الثاني عشر محمد المهدي. (س.أ).

(2) ويقصد به ملوية سامراء .(المترجم).

(3) هناك عدة من المواقع الأثرية الواقعة أطلالها على ضفتي دجلة ما بين بغداد والموصل ممَّا يرتقي زمنه إلى ما قبل العصور الإسلامية، نذكر منها: تكريت، آشور (الشرقاط)، نمرود (س.أ).

وبالقرب من نمرود بقايا قلعة متداعية تبعد عن الموصل مسيرة ثماني ساعات وفيها يشاهد الزائر بناءً عجيباً. وعندها سدّ قد بُني في دجلة ويصل ضفتي النهر ولعلَّ الغرض من بنائه هو حصر الماء المطلوب لري الأراضي المحيطة بنمرود. ومن المحتمل أنَّ هذا السد ليس من عمل المسلمين إذ إنَّه ظل يقاوم تيار ماء دجلة الجارف منذ ألف سنة على أقل تقدير[1].

وعند موضع الفتحة حيث يخترق دجلة جبل حمرين في فتحة ضيقة شلال ومنحدر قوي يصعب على الكلّاكة (أصحاب الأكلاك) اجتيازه لا سيَّما عندما يكون مستوى ماء النهر منخفضاً وهم يلاقون المشقة نفسها في اجتياز سد نمرود عندما

---

(1) إنَّ السدّ الذي ذكره الرحّالة كارستن نيبور والذي يمتد إلى نهر دجلة موصلاً ضفتيه عند مدينة النمرود، لا شك وأنَّه بقايا الجسر الحجري الذي بُني في زمن ما من عصر الأمبراطورية الآشورية الوسيط. وربما بُني في زمن الملك آشور ناصر بال الثاني الذي حكم في عاصمة ملكه نمرود في أواسط القرن التاسع ق.م. وبقايا هذا الجسر الحجري أو السدّ حسبما دعاه كارستن نيبور تُشاهد بوضوح عند تناقص مياه دجلة في أواخر فصل الصيف وفي الخريف ويسميها سكّان تلك المنطقة سكر النمرود أو العواية لأنَّ الماء يُحدث صفيراً نتيجة اصطدامه بشدة بالصخور الباقية من هذا الجسر. وقد رآه لايارد في 15 نيسان/أبريل 1839 وهو راكب في الكلك في رحلته النهرية إلى بغداد فشاهد أجزاء كبيرة منه باقية بهيئة كتل كبيرة من الحجارة المربعة الشكل الموصولة بعضها ببعض بقضبان الحديد.. الخ (راجع: لايارد نينوى ص30). ولقد شاهدت في أواخر نيسان/أبريل 1949 بقايا رقبة هذا الجسر من الجانب الغربي لدجلة قبالة قرية النمرود الحالية وذلك حينما كنت أرافق البعثة التنقيبية للمتحف البريطاني برئاسة البروفسور ملوان، لاستئناف التنقيب في نمرود بمناسبة مرور مئة سنة على قيام لايارد بالحفر فيها .(المترجم).

يكون ماء النهر مرتفعاً فيصعب عليهم وعلى السفانين تمييز الصخور وكثيراً ما تؤدِّي إلى حوادث الاصطدام والغرق. أما إذا كان الكلَّاكة مهرة ويعرفون كيف يقودون أكلاكهم فلا خوف عليهم من هذين الموقعين. وتسير الأكلاك في دجلة بين ديار بكر والموصل وفي هذا الطريق النهري ثلاثة شلالات أو أربعة شلالات.

ولا تسير الأكلاك بين بغداد والموصل لأنَّها لا تستطيع مقاومة تيار النهر ولذلك فإنَّ الكلَّاكة يحملون المجاذيف والقُرب على الحمير ويعيدونها إلى الموصل أما البقية التي ليس لها أهمية للنقل فإنَّهم يبيعونها في بغداد. فيبيعون الخشب وكل محتويات الكلك.

وتسير القوافل بين بغداد والموصل مجتازة البادية وهذا الطريق أقصر بكثير من طريق بغداد ـ كركوك ـ أربيل. ولكن الأوروبي لا يفضل السفر إلى الموصل عن هذه الطريق لأنَّه ليس عليه مكان مأهول بالسكَّان ما خلا بلدة تكريت.



ولما كنت أحمل معي رسائل توصية إلى البعثة التبشيرية في الموصل. لذلك فقد توجهت من دائرة الگمرگ إلى مقرها آملاً أن تجد لي بيتاً أسكن فيه في المحلة التي يكثر فيها النصارى. وقد كانت هذه البعثة تتألف من اثنين من الدومينيكان، وكان أحدهما حكيم باشي أي الطبيب الخاص للباشا. ولكن حالما عرف هؤلاء

الآباء[1] أنَّني دانمركي وبروتستانتي لذلك فقد امتنعوا عن مساعدتي ولهذا فقد اضطررت إلى استئجار غرفة في الخان. لقد كنت دوماً على وفاق ووئام تامين مع جميع الرهبان الذين صادفتهم وتعرَّفت عليهم أثناء رحلتي وكانوا يكرمون وفادتي ويحسنون معاملتي وإن كان بعضهم قد حاول عبثاً أن يهديني إلى مذهبه ولكن مع ذلك فقد بقينا أصدقاء وكانوا يفرحون برؤية أوروبي في هذه البلاد.

أما الدومينيكان في الموصل فإنَّهم لم يرتاحوا لمجيئي. وقد صادف مجيئي إلى الموصل في وقت الصوم عند النصارى. فالنساطرة واليعاقبة يمتنعون عن أكل اللحم والحليب والزبد والبيض حتى وإن كانوا في أشدّ حالات المرض. ويتشدَّدون كثيراً في المحافظة على الصوم أكثر من المسلمين فلا يأكلون ولا يشربون شيئاً ابتداءً من شروق الشمس حتى الظهر كذلك لا يدخنون. والدومينيكان أنفسهم يصومون في الموصل أو يتظاهرون على الأقل بالصيام لأنَّ السكَّان يعدّون الصيام من أهم الواجبات التي يجب على النصراني التمسك بها. ولو نبَّهني هؤلاء القُسُسُ المحترمون منذ البداية إلى ذلك لأخذت بمشورتهم واقتديت بهم ولصمتّ أيضاً محافظة على سمعة الأوروبيين ولكنَّني اعتقدت بأنَّه لا يكترث أحد هنا بمأكلي أسوة ببقية سكَّان البلدان التي مررت بها. ولكن الخبر بعدم

---

(1) إنَّ صيغة: هؤلاء الآباء! تعبير يُستعمل في الألمانية للتهكم والاشمئزاز. (المترجم).

صيامي انتشر بسرعة بين الأهالي وكان هناك عدد من النساطرة الرهبان الذين اهتدوا على أيدي الدومينيكان، اعتقدوا كبقية أصحابهم في كرامليس أنَّ جميع الأوروبيين ينتمون إلى الكثلكة الرومية ولهذا أخذوا يستفسرون عنِّي ويسألون عن هويتي ومذهبي من أساتذتهم الدومينيكان، ولكن هؤلاء الدومينيكان أخذوا يشنعون بي ويقذفون بالمذهب البروتستانتي ويتهمونني بالإلحاد حتى صار كل المسيحيين ينظرون إليَّ كأحد الكفرة الملحدين ما خلا عدد قليل من التجار الذين كانوا يحتكون بالإنكليز في مدينة حلب أثناء وجودهم فيها. وتحت تأثير موجة الشغب الشديدة هذه التي أخذ هؤلاء الآباء الدومينيكان يبثّونها نحوي، فإنَّ المسلمين أخذوا يعتقدون بأنَّني لست مسيحياً وباشروا يسألونني لماذا لا أختلط مع أبناء قومي الأوروبيين؟ ولكي أنال احترام الناس هنا وأضع حدّاً للشكوك والتقولات، اضطررت إلى بذل جهدي في مصادقة الحكيم باشي واستطعت أن أحقّق ذلك بموافقتي على شراء مسكوكة فرثية منه بثمن باهظ، وبعدها أخذ يقذف بالنصارى في بلاد المشرق ويكيل لهم الشتائم. ولا شك أنَّ الرجل استطاع أن يحوِّل كثيراً من النصارى عن مذهبهم ويدخلهم في مذهبه وبذلك فقد أدَّى خدمة كبيرة لكنيسته ولكن رأيه ووجهة نظره في النصارى الآخرين لم يكونا من الديانة النصرانية في شيء.

ولقد وجدت من الضرورة الحصول على شرف المثول بين يدي الباشا وإن كنت لم أبحث عن هذا الشرف في البلدان

الأخرى التي زرتها، وذلك لكي أبرهن للسكّان بأنّني لست كما يعتقدون شخصية نكرة لا أهمية لها وإن كنت قد أتيت إلى الموصل مع قافلة اليهود وأخذ الدومينيكان يتهمونني بالإلحاد. وقد هيّأ لي أحد أصدقائي هذه الفرصة بدون عناء وكان اسمه إلياس وهو ابن إسحاق: الذي يحمل لقباً بابوياً من درجة فارس St. Johanne Eques Auratus Ac Sacri Pallatu et Aulae Lateranesis Comes. وكان مترجماً للكلدانية والعربية في مدريد. فتكلّم مع الكخيا وأخبره بأنّني قادم من الهند وزرت في طريقي بلاد الفرس وأنّني أتكلّم العربية. فأخبر هذا الباشا ودعاني للحضور عنده على الفور وباشر يسألني عن أشياء متفرقة كثيرة. وعلى أثر ذلك زرت المفتي والرؤساء الرُّوحانيين لكل من الأديان النصرانية والكلدانية والنسطورية واليعقوبية وهكذا فلم يمض وقت قليل على قدومي إلى الموصل إلا وقد أصبحت صديقاً لجميع الطوائف والملل في هذه البلدة.

تقع مدينة الموصل على الجانب الغربي لنهر دجلة قبالة مدينة نينوى القديمة على درجة خط العرض 36 و20 دقيقة. ويدّعي اليهود أنّها كانت في الزمن القديم تُدعى مدينة Atur (آثور، آشور)[1] وأنّ اثنين من أنبيائهم مدفونان فيها وهما عباديا Obadea ويفتاح الجلعادي، ولكن هذين الشخصين ليسا

(1) تقع مدينة آشور أول عاصمة للأمبراطورية الآشورية على الضفة اليمنى من دجلة جنوبي الموصل بمسافة 110 كيلومترات. وتُعرف خرائبها اليوم بالقلعة أو قلعة الشرقاط. (س. أ).

المقصودين في التوراة ذلك لأنَّ يفتاح الجلعادي دُفن في بلاد جلعاد Gilead (كما ورد في كتاب القضاة الثاني عشر في الفقرة السابعة.). أما عن تاريخ هذه المدينة وزمن تأسيسها ومتى أُطلق عليها هذا الاسم فإنَّني لم أستطع الحصول على أية معلومات بهذا الصدد. وكل ما يعرفه السكَّان عن تاريخ بلدتهم أنَّها دمرت ثلاث مرات تدميراً تاماً. ولكنَّها على كلِّ حال مدينة قديمة جداً. ويقول المفتي إنَّه عندما فتح المسلمون هذه المدينة قبل ألف عام[1] وجدوا فيها مئتي كنيسة وعدداً من الكنيس اليهودية. والنصارى يجادلون في هذا العدد ويدعون بأنَّه كان في الموصل أكثر من أربعمائة كنيسة.

والموصل كأية مدينة كبيرة في هذه البلاد، فقد كانت إمارة وكان يحكمها أمير يُدعى صاحب ويظهر أنَّها كانت آنئذٍ أوسع بكثير من وقتها الحاضر. و(الشكل ـ 5) يوضح موقع المدينة وسعة رقعتها. ونحو نصف المدينة الواقع على الطريق البري مُحاط بسور قديم قوي وضخم كما لا يزال قسم كبير من السور الواقع على ضفة النهر قائماً. وللقسم الجنوبي الشرقي من المدينة سور متقطع، له أبراج ولكنَّه غير قديم وفي مواضع

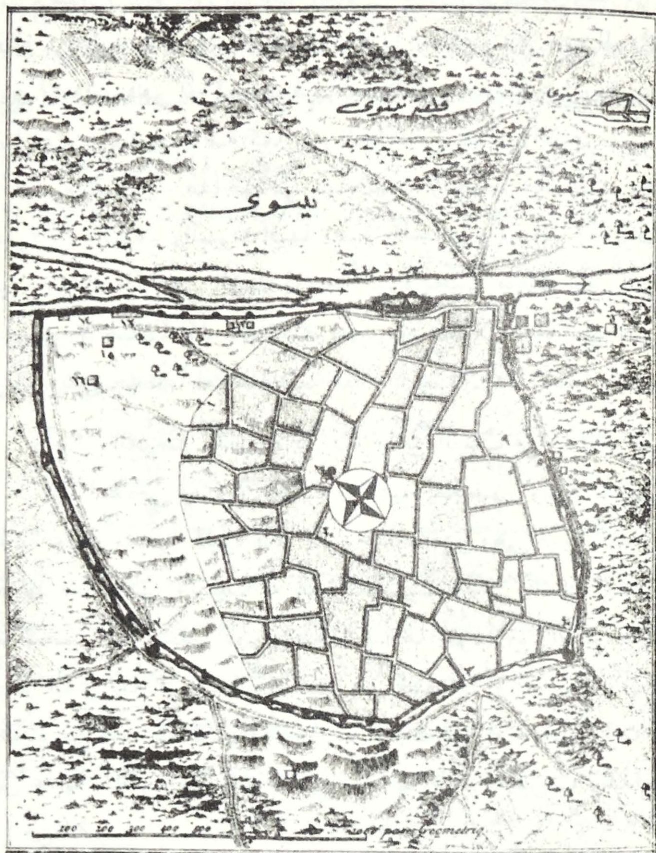
(1) أول من مصرّ الموصل واختطّ منازل العرب فيها هو عرفجة بن هرثمة البارقي على عهد القائد عتبة بن فرقد السلمي 16هـ. أما الذي وسعها وجعل لها مقاماً بين الأمصار فهو مروان بن محمد الذي تولى الموصل مرتين: 102 ـ 104هـ (720 ـ 722م) والثانية 126 ـ 128 هـ (743 ـ 744م) وجعل لها ديواناً. سومر 6 (1950) ص211 ـ 212. (س.أ).

كثيرة منه تلتصق البيوت مع بعضها البعض فتشكِّل قسماً من السور. والقسم الأكبر من المدينة مهدَّم تغطيه الأنقاض، أما الآخر فإنَّه مزدحم بالسكَّان. ويقدّر عدد البيوت في الموصل بين العشرين ألف بيت والأربعة والعشرين ألف بيت، غير أنَّني أعتقد أنَّ هذا التقدير كثير جداً.

خارطة مدينة الموصل كما رسمها نبيور

والأرقام تشير إلى:

1 ـ الباب العمادي.
2 ـ باب سنجار.
3 ـ باب البيض.
4 ـ باب الجديد.
5 ـ باب لجش.
6 ـ باب الطوب.
7 ـ باب الجسر.
8 ـ إيج قلعة (القلعة الداخلية).
9 ـ السراي (قصر الباشا).
10 ـ الجامع الكبير.
11 ـ الجامع الأحمر أو الجامع المجاهدي.
12 ـ قره سراي.
13 ـ المدرسة البدرية.
14 ـ مرقد يحيى أبو القاسم.
15 ـ كنيسة النساطرة.
16 ـ كنيسة اليعاقبة.



الشكل ـ 5

خارطة الموصل كما رسمها نبيور، وتشير الأرقام إلى المواضع المهمة في المدينة (انظر تفاصيلها في الصفحة المقابلة)

وشوارع الموصل وأزقتها ضيقة أيضاً وغير منظمة كما هي الحالة في بقية مدن بلاد المشرق ولكنَّها تختلف عن هذه المدن بفارق واحد، وهو أنَّه ليست فيها محلات منفصلة عن بعضها بعضاً ذوات أبواب خاصة كما هي الحالة في بغداد والقاهرة، بل إنَّ لجميع الشوارع مداخل في نهاياتها، ومعظم هذه الشوارع والطرقات معبَّدة، والبيوت فيها مبنية بالجص والحجر وأكثرها مقبَّبة. ويشتد البرد في الشتاء لدرجة كبيرة بحيث يجمد ماء النهر في أغلب الأحيان. لقد حدث أن جمد ماء دجلة بأكمله قبل عشر سنوات وبقي جامداً أياماً عديدة.

وأهالي الموصل يعمرون طويلاً، ولعلَّ السبب في ذلك يرجع إلى هوائها الصحي ومائها العذب والمفيد للجسم. وبالقرب من المدينة عيون معدنية كثيرة تقع على حافة النهر وهي قوية التدفق وتختلط بماء النهر وتسبب له طعم الكبريت ولكن رائحته تنعدم عند الجسر فلا يشعر المرء بطعمه إذا ما شرب من النهر عند الجسر الذي يقع في النهاية الثانية من المدينة. وعلى بعد أربع ساعات من المدينة باتجاه الجنوب توجد عين ماء حار واسعة يُطلق عليها الناس اسم حمام علي ولمائها طعم الكبريت وتقذف كثيراً من القير.

وأبواب الموصل ومبانيها البارزة يجدها القارىء مؤشرة بالأرقام على مخطط المدينة (الشكل ـ 5). فالرقم (1) يشير إلى موقع باب العمادي وقد سُدّ هذا الباب عندما حاصر نادر شاه المدينة. وقد بقي مسدوداً منذ ذلك الحين ولم يُفتح لحدِّ الآن.

ولهذا الباب أهمية تاريخية كبيرة فقد ورد ذكره في كتاب التاريخ العام بأنَّه كان قائماً في زمن الحروب الصليبية ويتضح منه أنَّ المدينة في هذه الجهة لم يحدث فيها تغيير يُذكر في خلال الستمائة سنة الأخيرة.

(2) باب سنجار. (3) باب البيض. (4) باب الجديد. (5) باب لجش. (6) باب الطوب. (7) باب الجسر. (8) إيج قلعة Ytsvh Kallà أو القلعة الداخلية.

وهذه القلعة تقع على جزيرة صغيرة مستطيلة الشكل في نهر دجلة، وتتخذ الآن مستودعاً للذخيرة والعتاد. وعند زيارتي لها لم أجد فيها أحداً ما خلا البواب الذي وجدته جالساً عند مدخلها يدخن الغليون[1]. ولقد تركني أجول في هذه القلعة ولم يتعرض لي مطلقاً لمشاهدة كل ما أردت رؤيته. على أنَّه لا يوجد فيها شيء يُثير الدهشة والاستغراب ما خلا أعداداً كثيرة من القنابل التي ألقاها نادر شاه عند محاصرته المدينة. ورأيت المدافع والقذائف قد غارت في الأرض ومعظم مبانيها قد هدمت أما القسم الباقي منها فهي مسكونة وأبوابها مفتوحة. كذلك شاهدت فيها مخزناً مملوءاً بالخبز اليابس (الرقاق) مضى على خزنه خمس عشرة سنة أو عشرين سنة ولا يزال محفوظاً.

وفي البقعة المؤشرة على المخطط برقم 9 يقوم السراي Seroj أو قصر الباشا ويتألف من عدَّة مبانٍ قديمة.

---

(1) لغرض الاطلاع على تاريخ هذه القلعة راجع سومر 10 (1954) ص94 ـ 111. (س. أ).

ومن المباني التاريخية البارزة في الموصل الجامع الكبير وقد بناه نور الدين صاحب دمشق[1] ويشير رقم (10) إلى موقعه في مخطط المدينة. ولم يبق منه إلا قسم قائم من سوره والمئذنة (المنارة). والناس يعجبون لارتفاعها لأنَّها أعلى بقية منائر الموصل التي يبلغ عددها تسع منائر تقريباً. على أنَّ هناك منائر مرتفعة كثيرة في بقية مدن البلاد الإسلامية ولا يجد الرواد والسواح الأوروبيون في ذلك عجباً أو أنَّها من خوارق الأعمال.

وتقع في وسط الساحة الفسيحة للجامع بناية تُدعى القبلة أو المحراب الكبير وهو كالمحاريب الأخرى الموجودة في بقية المساجد ولكنَّها مبنية في حائط المسجد وتشير إلى اتجاه مكة، وأهميتها أنَّها تساعد المسلمين في معرفة اتجاه القبلة وقت الصلاة[2]. وهذا المحراب منحوت بكامله من المرمر وتتجلى فيه روعة الفن الإسلامي والنقوش التي تمثِّل ورق العنب[3].

---

(1) راجع:

Semmlers Uebersetzung der Algemeinen Welthistorie der neuern Zeiten 3 ter Theil =1.

(2) إذا وقف المرء هنا أمام القبلة فإنَّه ينظر إلى جهة المغرب وتكون بلاد البرابرة (المغرب) في المشرق وبلاد العرب السعيدة (اليمن) في الشمال وسوريا في الغرب ويُحار الغربيون في تعيين الاتجاهات بصورة صحيحة إذا لم يضعوا نصب أعينهم الاتجاهات الجغرافية لتعيين المواقع ويعتبروا اتجاه القبلة دائماً نحو الجنوب .(المؤلف).

(3) نقل هذا المحراب الجميل المصنوع من المرمر الأزرق في بغداد وعرض في متحف القصر العباسي (غرفة 5) ونقل مؤخراً ليُعرض في جناح المعروضات الإسلامية في بناية المتحف العراقي الجديدة في الصالحية (جانب الكرخ). =

وقد جدد بناء قسم من الجامع وله شبابيك على هيئة شبكة من المرمر، ولم أر في هذه الشبابيك زجاجاً[1]. وسمك هذه الشبكة من المرمر نحو ثلاثة أصابع وقد نُحتت نحتاً رديئاً. ولهذا الجامع أعمدة مثمنة الجوانب، نُحتت من الحجر.

وهناك جامع مهم يُدعى جامع النبي جرجيس[2] ومن عجائبه أنَّ فيه صندوقاً مملوءاً بالماء. وقد وضع على سطحه وذلك لجذب طائر السمرمك[3] Samarmog أو آكل الجراد إلى هذه الجهة. وكان هذا الجامع فيما مضى كنيسة تابعة للنصارى الذين يعتقدون أنَّ القديس جرجيس (جورج Georg) مدفون في هذا المكان ولكنَّني شاهدت قبره أيضاً في مصر العتيقة (القاهرة القديمة) وفي رامة (Rama) إحدى مدن الأرض المفضلة[4] كذلك شاهدت قبره في مقاطعة كسروان (Kesroăn) في جبل لبنان[5].

وفي خارج المدينة، في الموقع الذي يشير إليه رقم 11 على

راجع البحث المنشور عن هذا المحراب في مجلة سومر، المجلد 7 (1951) ص215 (س.أ).

(1) كان في متحف القصر العباسي نموذج من هذه الشبابيك المخرمة (س.أ).

(2) راجع البحث المنشور عن هذا الجامع في مجلة سومر المجلد 17 (1961) ص100 وما بعدها. (س.أ).

(3) الصحيح هو طائر السمرمر: انظر البحث عن هذا الطائر في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق المجلد 28 (1953) ص339 ـ 354 للعلَّامة عبد القادر المغربي. (س.أ).

(4) يقصد الرحَّالة بالأرض المفضلة، فلسطين ورامة هي رام الله. (المترجم).

(5) راجع: وصف الجزيرة العربية ص175.

Beschrcibung von Arabien S.175. (المؤلف).

المخطط، جامع كبير يُسمَّى الجامع الأحمر[1] وقد وجدت في داخله تاريخاً وهو سنة 576 للهجرة ولم أستطع قراءة اسم بانيه لأنَّ الكتابة كانت غير واضحة ولقد قيل لي إنَّ بانيه هو مجاهد الدين. ولعلَّ مجاهد الدين هذا، هو مجاهد الدين قيماز الذي ورد ذكره في تاريخ العالم العام ولا يستبعد أن قام ببنائه بأمر من سيف الدين غازي بن مودود الذي توفي في هذه السنة.

وفي هذا الجامع كتابات كثيرة ومن ضمنها كتابات بالخط الكوفي كالتي يجدها القارىء في (الشكل ـ 3 ح،د) وكذلك كتابات بالخط العربي المألوف اليوم، وجميعها آيات من القرآن. وهذه الكتابات والنقوش النباتية والتي تمثِّل أوراق الكرم والتزيينات الأخرى التي تغطي جدران الجامع قد عملت من الجص بطريقة جميلة جداً قلَّما يجد مثلها المرء في هذه البلاد. ويدَّعي النصارى أنَّه كانت تقوم في الزمن القديم في هذا المكان كنيسة كبيرة وكانت تتوسط مدينة الموصل. ويروي السكَّان أنَّه كان في هذا المكان جسر خشبي فوق نهر دجلة.

وليس من أحد بين أمراء الموصل اهتم بالناحيتين العمرانية والعلمية وكسب شهرة واسعة مثل أميرها لؤلؤ الذي عاش في أواسط القرن السابع الهجري. فقد بنى قره سراي وهو البناء

---

(1) ويُعرف كذلك بالجامع المجاهدي أو جامع الربض وبجامع الخضر. وقد شيَّده مجاهد الدين قيماز الرومي أحد مماليك الأتابكيين سنة 572هـ (1176م) وللوقوف على التفاصيل يراجع كتاب: جوامع الموصل (1963) ص55 ـ 72، للأستاذ سعيد الديوه جي. (س.أ).

الضخم الواسع المؤشر على موضعه في مخطط مدينة الموصل برقم (12) ولكن هذا القصر مهجور اليوم وغير مسكون ومتهدم. ورأيت على جدران غرف القصر صوراً جصّية صغيرة بارزة يتراوح عددها بين الثمانين والمائة تمثالاً فجلبت دهشتي واستغرابي ولكنّني لاحظت أنَّ معظم رؤوسها قد خربت كما شوَّهت معالم أثرية واقفة ومتراصة إلى بعضها البعض وأيديها مصلبة على بعضها بعضاً وأشكالها متشابهة بحيث يتراءى للناظر أنَّ المثال قد صنع لها قالباً واحداً وصبَّها بالجص[1].

ومن المباني التي قام بتشييدها لؤلؤ هي المدرسة أو الكلية ويشير رقم (13) إلى موقعها في المخطط. وكذلك قام بتشييد بناء جامع جميل على قبر يُدعى صاحبه يحيى بن القاسم أو كما يُطلق عليه البعض (أبو القاسم) ويشير إلى موضعه في المخطط رقم (14). ويدَّعي النصارى أنَّ يحيى هذا هو أحد عظماء أوليائهم وقديسيهم وأنَّ اسمه الحقيقي هو يوحنا الأزرقي Johannes el Asărki. ويقع ضريحه باتجاه الجنوب والجنوب الغربي والشمال والشمال الشرقي ويظهر أنَّ المسلمين حوَّلوا اتجاه قبره نحو القبلة إذ باعتباره نصرانياً لا يجوز أن يبقى مدفوناً باتجاه غير هذا الاتجاه. وقد أخذ لؤلؤ هذا القبر من النصارى وأضافه إلى البنايات الإسلامية الواسعة الرائعة التي قام ببنائها بين المدرسة

---

(1) وقد أزالت مديرية الآثار القديمة جميع الصور التي كانت واضحة المعالم في إيوان هذا القصر وكذلك معظم الكتابات أثناء قيامها بتصليح هذا الأثر الجميل في العام الماضي. (المترجم).

والسور. ولهذا فإنَّ النصارى يستطيعون زيارته ويدخلون الجامع الذي بُني فوقه في أي وقت يشاؤون. وقد لاحظت أنَّ الجدار المحيط بالقبر من الداخل مكسو بقطعة عريضة من الرخام مزينة بنقوش من أوراق الكرم في غاية الدقة والإتقان وحفرت عليها كتابات (ويولي المسلمون اهتماماً كبيراً لأمثال هذه التزيينات والنقوش عن طريق الكتابات) مُلِئت بالجبس. كذلك وجدت في هذا المكان كتابات ونقوشاً محفورة على الآجر فأثارت فيَّ الدهشة والاستغراب ذلك لأنَّها من جملة التزيينات المعمارية المألوفة في بابل وبغداد اللتين يندر فيهما وجود الرخام والحجر ولا يمكن الحصول عليها حتى بالمال ولذا فقد جلبت انتباهي الشديد صناعة النقش وحفر الكتابات على الآجر في الموصل واعتبرت وجودها أمراً غريباً خاصة وأنَّ الرخام في هذا البلد متوفر جداً. كذلك رأيت هذا النوع من الآجر المنقوش قد استُعمل لتزيين مداخل البيوت.

وللنصارى في الموصل نحو من عشر كنائس ولكن معظمها صغيرة جداً. وقد سمح لهم الباشا ببناء عدد جديد آخر وترميم القسم الباقي وتجديده، ذلك لأنَّهم اشتركوا في الدفاع ببسالة عن الموصل أثناء حصارها الأخير سنة 1743[1] وقد بنى النساطرة لهم كنيسة جديدة يشير إلى موضعها في المخطط رقم (15) وكذلك فعل اليعاقبة في المكان الذي يشير إليه المخطط برقم (16). وهاتان الكنيستان جميلتان وخاصة كنيسة النساطرة التي

(1) المقصود هنا حصار نادر شاه للموصل.

ليس لها مثيل في جميع بلدان الشرق. وقد فهمت من الكتابة التي ساعدني على قراءتها أحد النصارى أنَّ بناء هذه الكنيسة تمَّ في سنة 1744 الميلادية وفي سنة 2055 بعد حكم الإسكندر. وأكَّد لي الناس هنا أنَّ النصارى في هذه البلاد لا يقتصرون على استعمال هذين التاريخين في تدوين زمن بناء كنائسهم فقط وإنَّما في تاريخ الوثائق المهمة أيضاً فيضعون كلا التاريخين جنباً إلى جنب. والفرق بينهما هو 311 سنة. وتتفق طريقة التدوين هذه حسب تاريخ حكم الإسكندر الكبير مع التدوين الآخر الذي يبتدىء بحكم سلوقس وتبتدىء السنة لهذا الحساب بشهر تشرين الأول (أكتوبر)[1].

وفي الموصل خمسة عشر خاناً أو بيوتاً عامة يأوي إليها الغرباء وبينها خمسة خانات صغيرة ورديئة. أما البقية فهي كبيرة وواسعة وقد بُنيت خصيصاً لتوفير الراحة. أما المقاهي والحمامات والأسواق، فإنَّ القسم الأعظم منها جميل وخلاب، على أنَّ أجمل وأحسن هذه المحلات العامة تعود إلى أسرة عبد الجليل أي إلى أقرباء والي الموصل الحالي وهو أمين باشا[2].

---

(1) راجع كتاب نيبور الذي نحن بصدده وهو: صفة جزيرة العرب ص109.

(2) وقد روى لي السيد أحمد الجليلي عميد الأسرة الجليلية اليوم والحفيد الثاني للوالي المذكور بأنَّ محمد أمين باشا كان الوحيد من بين الولاة الذي منحه السلطان لقب الغازي محمد أمين باشا وذلك لأنَّه حارب ضد الروس ثم أُسر وأُرسل إلى بطرسبورغ. ثم نُقل لي رواية سمعها من أخيه حاج أمين بك مفادها أنَّ محمد أمين باشا حين كان في الأسر في بطرسبورغ مع قواد آخرين من زملائه عرض عليهم الروس المال لتلافي نفقاتهم فرفضها ولكن زملاءه القواد =

وعبد الجليل هذا هو الجد الأكبر لهذه الأسرة له منزلة كبيرة عند النساطرة وقد خلف ذرية كثيرة، أصبحت فيما بعد قوية مرهوبة الجانب حتى أنَّها حملت السلطان على أن يعيّن باشا من أحد أفرادها. فقد حدث أن عيَّن في السنوات الأخيرة على الموصل والياً من القسطنطينية، غريباً عن أهل الموصل فشاغبت عليه أسرة عبد الجليل وأخذت تُثير سكّان المدينة وتحرّض القرى العربية واليزيدية للثورة على الباشا وعصيان أوامره ممَّا اضطر الباشا إلى أن يحتفظ دائماً بقوات كبيرة من الجنود التي تكلّف خزينة الولاية نفقات كثيرة أصبح معها في مأزق حرج جداً وكان عليه أن يختار أحد أمرين: إما الامتناع عن دفع الأموال المقرَّر إرسالها إلى السلطان أو التخلي عن رواتبه والأموال المقرَّرة لمعيشته. ولذا فقد كان من السهل على أسرة عبد الجليل تحقيق أطماعها في أن يكون أحد أفرادها باشا الموصل، خاصة وأنَّ هذه العائلة أصبحت تُعدّ من العائلات الراقية في البلدة وصار الأهالي من مسلمين ونصارى يعاضدونها ويسمعون كلمتها. ثم إنَّ الباشا الذي يعين منها لا يحتاج إلى قوَّة كبيرة من الجيش، وباستطاعته أن يدفع للسلطان الأموال المجباة من الولاية المقرَّر بل أكثر منه، وبهذا يؤمن المال للسلطان أحسن من أي وال آخر. ولمَّا كانت القسطنطينية لا تهتم بشيء آخر غير الحصول على أكبر كمية من

= الأتراك تقبَّلوها، وحين عاد من بطرسبورغ إلى استانبول للسلام على السلطان أحضرت أمامه صينية مغطاة. فلما كشف غطاؤها وجد رؤوس زملائه فيها جزاء للمال الذي تسلموه من الروس .(المترجم).

المال لذا فإنَّ من كان يدفع لها مالاً أكثر يصبح هو الوالي. وإلى جانب هذا كله فإنَّ من مصلحة أهالي الموصل أن يكون واحد منهم هو الوالي. وإنَّ الباشا الذي يريد أن يبقى في الحكم دائماً يسعى لكسب رضا الناس وثقتهم بخلاف الباشا الأجنبي الذي لا يعرف مدى بقائه في الحكم ولأجل ذلك فإنَّه لا يحصر اهتمامه بجمع المال والحصول على نفقات سفره فقط وإنَّما كان عليه أن يقدِّم للسلطان المال ويرسل الهدايا إلى القسطنطينية لكي يضمن له (باشلقا) آخر إذا ما استدعي من ولايته هذه.

وسكَّان الموصل المسلمون كلهم من السُّنَّة والقسم الأكبر منهم على المذهب الحنفي أما البقية فهم شوافع. ولكل من المذهبين مفتٍ يتبع مفتي القسطنطينية. ويقدر عدد النصارى بنحو ألف ومائتي بيت وحوالي ربع هذا العدد من النساطرة والكلدان (غير الضالين) والبقية يعاقبة.

وقليل من النصارى المولودين في الموصل يعرف اللغة السريانية الدارجة بين سكَّان قرى الموصل لأنَّ العربية هي لغة آبائهم وأجدادهم وجميعهم بِمَنْ فيهم التجار والباعة والقساوسة يكتبون بالخط الگرشوني وهو الخط المختلط من الحروف الهجائية العربية والسريانية أو حروف الهجاء الأسطرنجيلية. أما كتب كنائسهم فهي مكتوبة باللغة القديمة[1].

---

(1) بل إنَّ الگرشوني هو كتابة اللغة العربية بحروف سريانية. أما الأسطرنجيلي فضرب من الخط السرياني وهو إلى السريانية كالكوفي إلى العربية.
وقد لاحظت بعدها أنَّ اليونان في بلاد الأناضول يكتبون بخط مختلط من حروف =

وحالة النصارى في الموصل أحسن بكثير من حالة النصارى في بقية بلدان الأمبراطورية العثمانية فهم هنا يعيشون سعداء وعلى وئام تام مع المسلمين ولهم الحق في أن يلبسوا كما يلبس المسلمون وكثير منهم يعملون في خدمة الباشا حتى أنَّ حرم كهياسي Harĕm Kiájasi (أي رئيس طباخي زوجة الباشا) نصراني وكان أبوه يشغل هذه الوظيفة لمدة طويلة عند والد الباشا.

وفي الموصل نحو مائة وخمسين بيتاً يقطنها اليهود وهذه الملة تتمتع بحرية واسعة في البلاد التركية في الاشتغال والحصول على قوتها اليومي أكثر منها في أوروبا التي مجال الرزق فيها مسدود في وجه اليهود. على أنَّ اليهود محتقرون كثيراً وهم منبوذون في بعض البلدان أكثر ممَّا هم عليه عندنا لدرجة أنَّهم في بعض مدن هذه المنطقة التي يكثُر فيها النصارى لا يجرؤون على الظهور في المحلات العامة والخروج إلى الشوارع في أيام سبتهم وأعيادهم فيفضِّلون البقاء في البيوت لكيلا يُلاحقهم الصبيان ويرموهم بالحجارة وبذلك يتجنبون الشكاوى لدى الرئيس الأعلى للمسلمين.

فقد حدث لليهود قبل ثلاث سنوات حادث مزعج وذلك عندما ذهبوا في إحدى زياراتهم إلى (القوش) لزيارة قبر النبي ناحوم، صادف أن فقد أحد أطفال قرية مروا عليها في طريق عودتهم إلى الموصل وكان سكَّان تلك القرية من النصارى. وبعد أن بحث

= الهجاء التركية واليونانية وقد صادفت أحد التجار اليونان فتكلَّمت معه في العربية فسمَّى لي هذا النوع من الخط بالخط الگرشوني ولم أستفسر عنه عمَّا إذا كان هذا الخط يُسمَّى في التركية أو اليونانية غير هذا الاسم .(المؤلف).

أهل القرية عن الولد طويلاً وجدوه ملقًى في بئر ومثخناً بالجراح وقد قطع لسانه فاتهموا اليهود بأنَّهم فعلوا ذلك. فهجموا عليهم وأشبعوهم ضرباً، ثم أقام سكَّان القرية النصارى الدعوة عليهم لدى الباشا وعند عدم توفر الأدلة والشهود على إدانة اليهود فرض الباشا عليهم غرامة قدرها ألف دوقات (وهي نقد فضي).

ويروي نصارى بلاد المشرق روايات كثيرة عن أعمال اليهود الإجرامية وخطف أولاد النصارى والتمثيل بهم. فقد حاول أحدهم أن يؤكد لي عندما زرت حلب بأنَّهم عثروا قبل سنوات قليلة على أحد أطفال النصارى في أحد سراديب اليهود وكان قد اختطفه صاحب البيت اليهودي ومثل به وألقاه في سرداب بيته ولكنَّه كان ما يزال على قيد الحياة ففرض الباشا على الطائفة اليهودية غرامة ثقيلة من المال وأنهى بذلك الدعوة.

إنَّ ولاية الموصل صغيرة، تمتد على جانب دجلة الشرقي بمسيرة تسع ساعات جنوباً حتى نهر الزاب الكبير، وبمسيرة ثماني ساعات باتجاه الشمال. وهذه المنطقة محتشدة بالسكَّان. أما الجانب الغربي من نهر دجلة فإنَّه خالٍ من السكَّان ويكاد هذا القسم من ولاية الموصل يُعدّ متمّماً للبادية. ويقدّر عدد القرى الواقعة في ولاية الموصل بنحو ثلاثمائة قرية. وتدرّ هذه المنطقة في سنوات الخير كميات وافرة من الحنطة والعدس والحمص والسمسم (وهو عبارة عن بذور صغيرة يُستخرج منها الزيت بالعصر) كما يُزرع القطن بكثرة في هذه المنطقة أيضاً.

وقد حدثت قبل بضع سنوات مجاعة شديدة في هذه المنطقة

وخاصة في منطقة ديار بكر وذلك نتيجة لقلّة سقوط المطر ولسوء إدارة الباشا التركي في التموين، بحيث إنَّ كثيراً من الفقراء، وخاصة النصارى، باعوا أطفالهم للمسلمين[1]. واستطاع كثير منهم بعد زوال هذه الغمة أن يفتدوا أولادهم بقدر معلوم من المال. على أنَّ عدداً غير قليل من هؤلاء الأولاد راق لهم العيش عند المسلمين فأبوا العودة إلى ذويهم وأهلهم، كما أنَّ كثيراً من المسلمين امتنعوا عن إعادة الأطفال الذين اشتروهم وبذا قلَّ عدد النصارى.

وفي الموصل مصانع كثيرة للنسيج والحياكة والصباغة وطباعة النقوش على المنسوجات، والمهنتان الأخيرتان بيد النصارى. وفي الموصل حركة تجارية واسعة النطاق إذ يردها من كردستان سنوياً أكثر من ألفي قنطار من البندق واللوز والجوز، فتقوم بتصديرها إلى حلب.

إنَّ الباشا الذي يعيّن والياً على الموصل يكون عادة من درجة باشا بثلاث طوغات (والطوغة هي عبارة عن بسكول من شعر ذيل الحصان) وقد كان أمين الباشا والياً على الموصل عند قدومي إليها وكانت درجته باشا بطوغتين، غير أنَّه كان يأمل أن يناله

(1) كان الرحَّالة آيفز قد قام برحلة في هذه المنطقة حال انتهاء هذه المجاعة الكبرى ووصف المأساة التي كان عليها الناس والحالة المحزنة التي كانوا فيها ولا سيَّما أولئك الذين سلموا من هذه الكارثة العظمى. وقد قال له أحد القسس في ديار بكر إنَّ شتاء سنة 1756 القاسي (وقد ذكرته في موضوع سابق) ثم الجراد الذي هاجم المزروعات في سنة 1757 كانا من جملة الأسباب الرئيسة لهذه المصيبة العظمى، وقد كان بالإمكان دفع هذه الكارثة لو أنَّ الحكومة العثمانية أنشأت المخازن وقامت بادخار المواد الغذائية .(المؤلف).

الترفيع عن قريب إلى الدرجة الأولى أي يصبح باشا بثلاث طوغات، وقد أكَّد لي الناس بأنَّه يدفع سنوياً للباب العالي كمية من المال تتراوح ما بين الخمسة والثلاثين كيساً والأربعين كيساً[1]، وكل كيس يحتوي على خمسمائة قرش أي إنَّه يدفع للسلطان مقداراً من القروش يتراوح عددها بين السبعة عشر ألف قرش وخمسمائة قرش والعشرين ألف قرش. وهذه الكمية تُعادل بالعملة الألمانية بين الإحدى عشر ألف وسبعمائة تالر والثلاثة عشر ألف تالر[2].

وإضافة إلى هذه الكمية الكبيرة من المال فاز السلطان بأخذ كل سنة من ولاية الموصل ثلاثين كيساً، وهي ضريبة الرأس وتُدعى الخراج. تستحصل من النصارى واليهود. فالغني يدفع أربع دوقات عن كل رأس، والمتوسط الحال يدفع دوقتين أما الفقير فيدفع دوقة واحدة أو ما يسمونه زر محبوب Zermăhbup ويحصل لقاء ذلك على ورقة أو وصل يحتفظ به طول السنة لكي لا يدفع مرة أخرى. ولا أدري عمَّا إذا كان سكَّان القرى اليزيدية يدفعون الخراج أيضاً، وأعتقد أنَّهم يفعلون ذلك لأنَّ معظمهم ينحدرون في الأصل من النصرانية وأنَّهم كانوا يدفعون هذه الجزية سابقاً. أما الذين يدخلون في الإسلام فإنَّهم يعفون من دفع هذه الجزية.

---

(1) إنَّ مقدار محتويات الكيس الواحد هو خمسمائة قرش وتكاد تكون هذه القاعدة متَّبعة في كثير من الولايات العثمانية. أما في بغداد فإنَّ محتويات الكيس الواحد هي خمسمائة قرش. والقرش المتداول في الولايات العثمانية هو القرش التركي نفسه ويُعادل بالعملة الألمانية نحو ثلثي التالر الألماني (المؤلف).

(2) التالر عملة ألمانية قديمة ذات قطعة واحدة من الفضة وتُعادل ثلاث ماركات في الوقت الحاضر والدينار العراقي يُعادل اثني عشر ماركاً.

وبقيادة باشا الموصل نحو عشرين ضابطاً كبيراً يدعون صقلي أغاسي[1] Sakalli Agasi وتُناط بهم واجبات خطيرة منها أنَّهم يقودون الحملات التي توجّه لمحاربة اليزيدية والعدو. وهناك الإيج أغاسي Ytz Agasi ويتكوَّن من مائة شخص. ويُطلق على مثل هذا العدد التفنكجية (الجنود) أيضاً. ويتكونون من ثمانية أعلام (بيارق) ولكل علم خمسة عشر جندياً أو من مائة وعشرين فارساً. وإلى جانب هذه القوات فإنَّ في الموصل مائة وخمسين أسباهياً، ولهم امتيازات خاصة من السلطان وأولادهم يكونون أسباهية أيضاً. وبما أنَّ هذه المدينة ليست ثغراً لذا فإنَّه ليس فيها ثكنة (قشلاق) أي أنَّه ليس في الموصل مقرّ لفوج من الينيچرية. إلا أنَّ في الموصل عدداً غير قليل من ضباط الينيچرية ومهمتهم تجنيد المتطوعين من أهالي البلدة إذا اقتضت الحاجة وعندها يتمتعون بجميع الحقوق التي يتمتع بها الينيچرية. ولا يحق للنصارى الانخراط في الينيچرية والتمتع بامتيازاتهم. ولكن بعضهم يلتحقون بالخدمة في أفواج الينيچرية خدماً وما يشبه ذلك لقاء أجور معيَّنة وبهذه الواسطة يأمنون الخوف على أنفسهم في زمن الاضطرابات والقلاقل التي كثيراً ما تقع في الموصل. كما يأمنون شر الينيچرية الذين يعتدون على الناس وينهبون ما يريدون. وإذا ما احتاج الباشا إلى قوات أكثر من الجنود النظاميين الذين لهم معاشات ورواتب معلومة فإنَّه يعلن النفير العام لتكوين قوات تعرف

---

(1) راجع الصفحة (68) من هذا الكتاب (س.أ).

بالسردنگستي Serdengesti وعندها يجنّد النصارى أيضاً. وبين التفنكجية (الجنود) في الموصل عدد من المسيحيين.

وفي سنة 1156 للهجرة (1743م) ضرب نادر شاه مدينة الموصل بالقنابل مدة واحد وأربعين يوماً وقد كاد يستولي على المدينة لو لم يرده خبر نشوب ثورة في إيران فاضطر إلى التخلي عن حصار الموصل[1].

ويتبيّن من وصف تاريخ حياة هذا البطل الفارسي أنَّ أعداءه كانوا يرهبونه في ساحات القتال ولكنَّه كان لا يعرف شيئاً من فنون حصار القلاع، إضافة إلى ذلك أنَّ الفرس كانوا لا يحسنون فن المدفعية. ولقد هاجم نادر شاه المدينة من الجهة الشمالية الغربية عند الباب العمادي حيث كان من أشد جهات سور المدينة حصانة كما كانت هذه الجهة خالية من السكّان تقريباً. وضرب من هذا المكان مقرّ الباشا بالقنابل وكان قد أقامه تحت الأنقاض. ولم تكن لدى حسين باشا الجليلي والد والي الموصل الحالي الاستعدادات الكافية للقتال والمؤن والذخائر الحربية اللازمة، ولذا فلم يكن باستطاعته ضرب المهاجمين بالقنابل وإحداث ثغرة

(1) راجع تاريخ نادر شاه للمؤلف محمد مهدي خان ص365.
وهذا فصل مشرف من فصول ملحمة البطولة التي اشتهرت بها هذه المدينة منذ أيامها الأولى حين كانت قلعة قبالة نينوى سنة 612 ق.م وحين وقعت إلى جانب الخليفة مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة العربية الأموية ضد الحركة الشعوبية الخراسانية التي قامت في العراق للقضاء على القومية العربية التي كانت متمثّلة في الدولة الأموية فحدثت مجزرة الجامع الأموي في الموصل على يد أبي عبد الله السفاح .(المترجم).

وأضرار كبيرة بين صفوفهم ولذلك فقد ترك مقرّ قيادته وذهب إلى قصره وترك العدو يلقي القنابل قدر ما يريد على مقر القيادة الخالي.

ويؤكد الموصليون أنَّ نادر شاه ألقى على مدينة الموصل أربعين ألف قنبلة. وليست ثمة مغالاة في هذا العدد فإنَّ المدينة قُصفت قصفاً شديداً ولكن لم تحدث تخريبات كبيرة فيها لأنَّ بيوتها مقبَّبة ومبنية من الجص والحجر. وأكثر القنابل انفجرت في الهواء أو سقطت بين البيوت بدون أن تنفجر وكان الموصليون يجمعونها ويستعملونها مرة أخرى ضد العدو المحاصر. واستعمل نادر شاه في هدم أسوار المدينة المحصنة الألغام ولكنَّها كانت تؤذي قواته أكثر من أن تؤذي الموصليين. وكانت مدفعيته تمتاز بالقوة وإحكام الإصابات بعض الشيء، فقد أصابت السور وخربت واجهة كبيرة منه ولكن المدافعين كانوا دائماً على استعداد لسدّ الثغرات التي كانت تُحدثها مدفعية العدو في السور، فكانوا يبنون في الحال حائطاً ضخماً خلف الثغرة مباشرة ويوصلونها بالسور وقد كان النصارى يسهمون في هذه العملية مساهمة كبيرة بحيث إنَّ المسلمين يعترفون للنصارى بالفضل لثبات المدينة بوجه العدو كما أظهروا في مواقف مختلفة شجاعة فائقة. ويُفاخر المسلمون ببعض مواقف البطولة التي أظهرها عدد من الموصليين ولا سيَّما في الليلة التي سرقوا فيها مقرّ قيادة الفرس وهرعوا بالغنائم إلى الخندق الذي كان خالياً من الماء حيث ألقى لهم أصحابهم الحبال وتسلقوا بها إلى أعلى السور.

ولقد سنحت لي الفرصة أثناء إقامتي في الموصل أن أحصل

على قائمة بأسماء القرى التابعة لهذا الباشلق وها آنذا أسرد أسماءها. على أنَّ عدداً كثيراً من هذه القرى ليست له أهمية كبيرة كما أنَّ أسماءها جديدة، ولكن قد يتمكن العلماء من التعرف على أسماء منها لكونها تمتاز بشهرة خاصة سبق أن ذكرها المؤرخون والكتَّاب عند كلامهم عن المنطقة المحيطة بنينوى فيجلبون اهتمام السياح نحوها.

ففي الجهة الشرقية من نهر دجلة وفي جنوبي الموصل تقع نونيا (نينوى) أو نبي يونس وهي قرية كبيرة تُحيط بمرقد النبي يونس وقد سبق ذكرها. ثم يارمجه وشمس الدين[1] وقص فخرا Kos Fachra وقره قوينلي سفلى (الگصر) Kara Koinni Sifla والسلامي Sullami (السلامية) ونمرود. ولقد تحدَّثت عن السور الذي يُشاهده المرء في دجلة بالقرب من القرية. ويروي الأهالي أنَّ عدداً من البيوت القديمة لا تزال قائمة عليها، فهي تستحق اهتمام السياح وزيارتهم لها.

ثم قرية تل كندس Tel Gundis وبساطلي Pussădli وخضر إلياس ويقطنها المسلمون وفيها دير لليعاقبة[2]. ثم تل يعقوب[3] وكاني حرامي وقره يتاغ Karoi Jattag وعبد العزيز وهي قرية تقع على الزاب ويقطنها اليزيدية، ثم جديدة Dsjödlida وقرقشه Karkascha وتل اللبن Tel el Labban وجام كرام محمد Tscham Karram Mohammed وداغر يارمجه D'agger Jaremdsja وصخرة خاتون

(1) وتُدعى اليوم شمسيات. (المترجم).
(2) وهو دير مار بهنام. (المترجم).
(3) ويسميه القرويون تل عاگوب. (المترجم).

وقره قوش Sachra Chatŭn وبدنة Beddena وترجلا Terdsilla وكراملیس ويسكنها اليعاقبة وبلاواط Balauăd[1] وقره شور وكهريز وقره بولي Karaboli وقابرلو K'abberlu وشاه قولي[2] Schah Kuli وخراب اللي Kharabelli ودار مولانا والقبَّة Kubba وآيدور دورماص Eidur Durmăs وينكچة سفلى وآق شهر ويورغانتي Jurganti وعسابه Assăba وقومشين Komeschîn وباش تطماس Băs Tudmăs وعلي رش وعمر كان ومناره وطاخراوة Tashraua ولاق دراسي L'ak Derra'ssi وجلوخان[3] Dsjelochân وتنور تيه Tennur T'oppe وطوبراق زيارت Topraq Siaret وقوي جاغ Koi Jaq وكوجلي[4] Ghoidsjeli وخزنه تيه وبرطله Bartalla والأخيرة يقطنها النصارى وباشبيثا (باشويثا) وباصخرا وهذه تقع في جبل عين الصفرة وكانونا Kanuna وقصر سعيد Kasr Soĕd وقوبان وأجي جوق Adsiji

---

(1) وتُسمَّى اليوم بلاوات والأصح أن تُسمَّى بلاواط بما يقرب من اسمها الآشوري القديم بلاطو وتعني الحياة. تبعد بضعة كيلومترات عن نمرود شرقاً. وفيها اكتشف هرمز رسام الموصلي في أواسط القرن الماضي قسماً من الباب البرونزي واكتشف بعض أجزائه الأخرى الآثاري البريطاني ملوان سنة 1951. وكان هذا الباب يزيّن مدخل القصر الصيفي للملك شلمانصر الثالث الآشوري 858 ـ 824 ق.م. في هذه المدينة ويصوّر حملته على بلاد نائيري وينابيع دجلة .(المترجم).

تعليق: بلاوات: هي مدينة «امكوربيل» القديمة، فيها مركز لعبادة الإله «بل» أو بعل فسميت في العصور المتأخرة «بعل ـ آباذ» ثم خفّف إلى بل آباذ فـ(بلاوات) (س.أ).

(2) هكذا كتبها نيبور وتُسمَّى اليوم شاقلي .(المترجم).

(3) هكذا كتبها نيبور وتُسمَّى اليوم جريوخان .(المترجم).

(4) هكذا ذكرها نيبور وتُسمَّى اليوم كوكجلي .(المترجم).

وبير بن نوق Sjuk[1] وبير حلار Pir Bennok وبحزاني Pir Hellăr[2] Băch Hossan وبعشيقة ويسكن القريتين الأخيرتين اليزيدية والنصارى ثم قرية طوبوزاوه Topusaua وطاس خراب Tĕs Gharăb وقره تبه وقولان تبه وأورطه خراب وتلياره Tilara ووادي سماق Wadi Semmaqk وعمر قابجي Omar Kapîdsji[3] وإمام فضلة[4] Imam Fadla والعباسية أولامش Aulamisch والهاشمية وقبقلي Kapăkli والأربچية وبلبل تبه وباعويزة وقوبنجق أو قلعة نينوى (راجع الشكل ـ 5).

أما في الجهة الشرقية من دجلة وشمالي الموصل ففيها القرى التالية: ـ قاضي كند[5] Kadi Kent والرشيدي وشريخان وقره قوينلي عليا (القبة) والجمالية وشيخ محمد ودر نجوغ Durnadsjik وخواجه خليل وملا Mellă وعوينة Aua'na وكفريك Ka'ffrik ومصر كند Miser Kend وباعويزة وبيسان، ويقطن فيها عدد من الأرمن أما بقية السكّان فهم من المسلمين. والدواسة Dauasa وجانق Dsjanik وعلملو Alemlu والمشرف M'scherraf ودار بايوسف Dâr ba Jusof وأم توثه Om Tuta وفيها يسكن عدد كبير من السادة وگرنوص Gernûs وتل عمته Tel A'mta[6] وتل ميعان Tel Miân وباطط Bated وباب نيت Bâb Nied وخرابك

(1) ولا ندري اسمها الحقيقي فقد كتبها نيبور بيربنوك .(المترجم).
(2) كتبها باح أو باخ حسان .(المترجم).
(3) وكتب عمر قابجي: عمر لابجي .(المترجم).
(4) وكتب إمام فضلة. وتُعرف اليوم باسم الفاضلية .(المترجم).
(5) قاضي كند. وتُعرف القاضية .(المترجم).
(6) وربما كانت القرية المعروفة اليوم باسم تل عبطة .(المترجم).

Kharabik وقصرك Kasrik ومشرفة Mischriffa والأخيرة يقطنها اليزيدية ودار هال D'ar Hâl وتل فسنة ومعظم سكّان هذه القرية من اليزيدية ثم قرية سوتي Suti ومچيد M'chêd ودار جندي Dâr Dsjindi أغاچة قلعة Agadsja Kallá وقره بولوك Karabolog وكاني شيرين وقبق Kabâk وكرا Kerr'a (ويقول الموصليون إنَّ النبي يونس أُلقي في هذا المكان على الشاطىء وإنَّ الحوت صعدت به في نهر دجلة قادمة من خليج البصرة إلى هذا المكان). ثم قرية خانك Khanek وعلاك Allak وزينية Zeinie وكسك Kissik ونمر Nimr وكورامسك Koramesk وجان بركران Jan Burkrân وبقاق Bakâk وسكّان هذه القرية خليط من المسلمين واليزيدية ثم قرية دير سيتون Dr Seatûn وبايبوس Bebôs[1] وقسرون Kasrôn وباهنداوا Bahendaua وهذه قرية قديمة جداً ومعظم سكّانها من اليزيدية وتقع بالقرب من القوش مقر البطريق إيليا. ثم قرية بدرية Beddrîe وكرنجق Kerendsiq وحطارة[2] Hatara وسكّانها خليط من المسلمين واليزيدية وقرخ حاطوره Kereck Hatora وكرك Kerrik ورانك Ranik وبابير Bapir وحتارة (وهذه القرية هي غير التي ورد ذكرها) ثم تل عدس Tel Addes وخان نيشرين Khân Nischerin وتل زين Tel Zin تل موس كولات Muskollâd وفلفين Filfên[3] وكير إسقاق Kir Iskâk وتل أسقف،

(1) وتُعرف اليوم باسم بايبوخ. (المترجم).

(2) وتُعرف الآن حتارة. (المترجم).

(3) وهي الآن فلفيل. (المترجم).

ويقطن هذه القرية النساطرة ثم قرية باقوف[1] ودوغات Dogâd وسرج خان Seridsch Khân وخوشابان Chuschabân ويسكن المسلمون واليزيدية سوية في القرى الأربع الأخيرة ثم قرية النصيرية Nusserie ثم قرية باطنايا Batne وهي قرية كبيرة ومعظم سكّانها من النصارى وبينهم عدد غير قليل يعتقد أنَّ البابا هو الرئيس الأعلى للكنيسة. وبالقرب من هذه القرية دير قديم للنساطرة يُعرف باسم دير مار أوراها Maruraha ثم قرية تلكيف ويتراوح عدد بيوتها بين الثلاثمائة بيت والأربعمائة بيت وقد انضمّ نحو من نصف سكّانها إلى البابا أما البقية فهم من النساطرة. ثم قرية بيت قرا Beit Karra وحسن جبلان[2] وقره خراب وشيخ حي Schech Hey وشيخ علي وخراب بيت Charab Beit وكول قايا Kulkaja وقوچة عنبر Chodsje Amber ونجيمه Nadjemu وبايبوخت Beibucht وبوزغارا Bŏs Gara وقايم Kaim ورازيانا Rasiana والسماقية Summaki وجوق علو Tschockalu وغوريان Gh'oriân وقلاطة نوفيري N'offeri وسندانك Sindanek وكتك Kittk وقز قلعة (كلاته) Kis Kallâ وعنزاوة[3] Ansaua وداس قطان Das Kattân وعين بقرة Ain Backara وركزه Racksa وگرماوه Ghermaua وحسنية وبيراوزاوه وخرابوك Charab'ok الماما ن Elmamân وشيف شيرين Schifscherîn وكير خالص KîrChales وكندالة Kendâl ومحمودان

(1) وهي اليوم باقوفا. (المترجم).

(2) قد يكون اسمها حسن جلاد. (المترجم).

(3) وربما كانت عين زاوه. (المترجم).

Máhhmudânويسكن هذه القرية المسلمون واليزيدية. ثم قرية كير مبارك Kir Mubarek وخرصباط وهذه القرية يسكنها أيضاً المسلمون واليزيدية ثم قرية عين سفنى Ain Essefina[(1)] وقرية باعذرا Ba'addrie وخورسان Chorasân وسكّان هاتين القريتين من اليزيدية. وقرية بحزان[(2)] B'asân والجراحية Dsi'arrahi وكذلك سكّان هاتين القريتين من اليزيدية. ثم قرية كمونة Kemmuna وعين زالة Ain Zâl وهذه تقع في الجانب الغربي من دجلة أما اليوم فهي مهدمة ثم قرية سيد كند Seüd Kend وجميع سكّانها من السادة، ثم قرية كير كوران Kir Korân وجيانقجي Tschienkschi وديرك . D'areck

وفي الجهة الغربية من نهر دجلة تقع القرى التالية:

جندار Dsjindar وكواسير Kauasir وجيكارة Tschâkara وجوتا Tschota وبادوش Badûsch وإسماعيلان Ismailân وهذه تقع على بعد ثلاث ساعات من الموصل على طريق حلب (وقد ورد ذكرها في تاريخ العالم للعصور الحديثة في الجزء الثالث، الفقرة 27.

(Algemine Welthistorie der neuern Zeiten 3 ter Teil = 27).

ثم قرية دامرچي Damirschi وإحليلة Helela ودير ميخائيل D'ar Michael وهو دير مخرب ثم قرية أغ كند Ag Kend والگنيطرة Gona'tra وكافور Kafâr وقبغ چوللي Kabag Tschulli ومحرجان

---

(1) وقد كتبها نيبور عين السفينة .(المترجم).

(2) وربما كانت بوزان (إن وجدت قرية بهذا الاسم) .(المترجم).

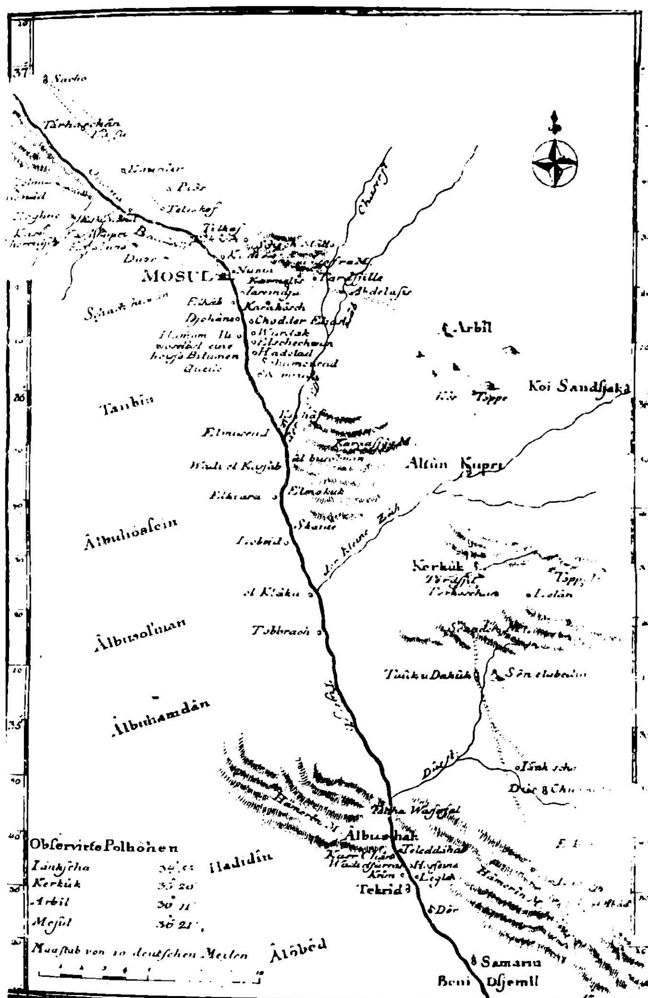
وحجار سفينة Hadsjar Sefîne وخرار Charar وملك M'ohhirdsjân أحمد Mellek Ahmed وحمام علي وهي عين للقير. وتنبع عيون كثيرة كهذه على شاطئ دجلة. ثم قرية جهينه ودگرمان أداسي D'agerman Adassi وممبارة Mambara[1] وصف التوث Sat Ettûd وسن الديك Sennedik وكازان كوسكي Kasan Koski وقيارة Keiara وفيها عين غزيرة بالقير[2].

ثم قرية كشاف Kachâf وفيها قلعة قديمة وتقع عند مصبّ نهر الزاب شرقي دجلة ثم قرية هزار Hasar وتقع على نهر الخازر ثم قرية حسن بيركان Hassan Pirkân وجو كردجي Tschogürdsch وأوردك Ordak.

---

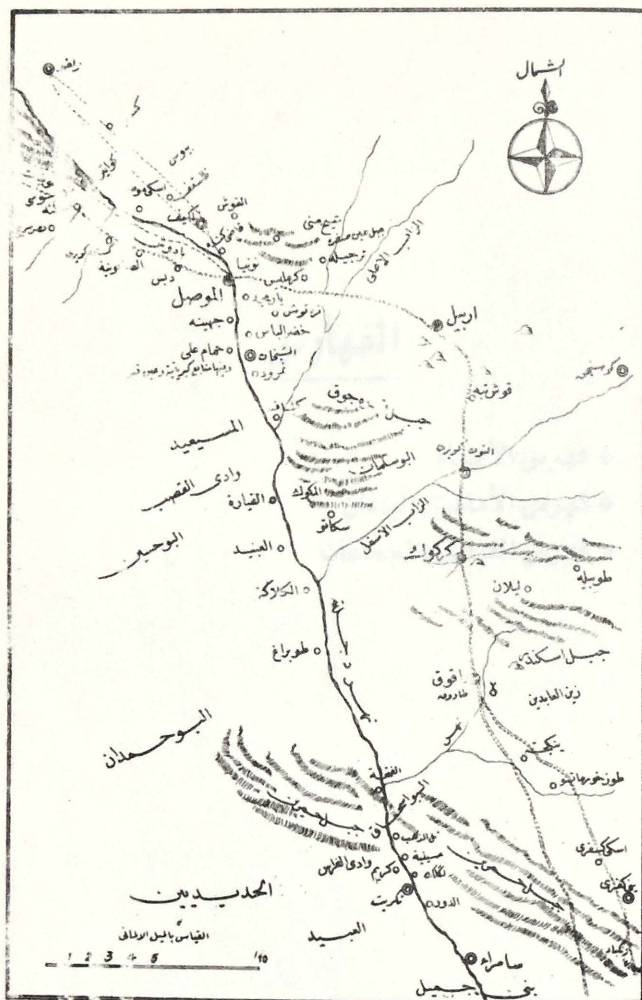
(1) هكذا كتبها نيبور. (المترجم).

(2) وهناك من يسميه بـ(حمام العليل). (س أ).



الشكل ـ 8 أ

خارطة الرحّالة من بغداد إلى شمال العراق (كما رسمها نيبور)



الشكل ـ 8 ب

رحلة نيبور من بغداد إلى الموصل (رسمت استناداً إلى خارطة نيبور)

الفهارس

❖ فهرس الأسماء
❖ فهرس الأماكن والبلدان
❖ فهرس القبائل والجماعات

فهرس الأعلام

ب

ت

ث

ج

ن

هـ

ي

فهرس الأماكن والبلدان

ب

خ

ش

ص

ض

ك

ل

م

ن

فهرس القبائل والجماعات

ح

خ

د

ر

س

ش

ص

ن

هـ

ي

هذا الكتاب

اتسمت القرون الثلاثة الأخيرة بنشاط عظيم في ميدان الرحلات والسياحة إلا أنّ أضخم بعثة علمية أوروبية اتجهت نحو بلاد الشرق، كانت، بلا ريب، «رحلة كارستن نيبور» التي مضى عليها قرابة مائتين وخمسين عاماً، وقصّة هذه الرحلة من أمتع الرحلات وأجلّ ما كتب في هذا الميدان، كما سيطّلع عليها القارىء الكريم.

في عام 1760م قرّر ملك الدانمارك «فريدريك الخامس» إيفاد بعثة علمية مشتركة إلى بلاد الشرق الأدنى وجنوبي الجزيرة العربية، لتقصّي الحقائق والأخبار والمعلومات العلمية التي استدعي (نيبور) للانضمام إليها. وقد أقلعت البعثة من كوبنهاگن متوجهة صوب الشرق صباح يوم 1761/1/4م، غير أنّ الترتيبات والتحضيرات لها، بدأت قبل هذا التاريخ بسنوات، وعلى وجه التحديد كان ذلك في عام 1756م، وكان المحفز على القيام بها والدماغ المفكّر من ورائها، هو أحد العلماء الألمان المتخصصين بالدراسات اللاهوتية (يوهان ديفيد ميخائيليس) أستاذ اللغة العبرية بجامعة گوتنگن، الذي بعث برسالة خاصّة إلى وزير خارجية الدانمارك (بيرنشتروف ج. هـ. J. H. E. Bernstroff) الذي قام بدوره بإقناع ملك الدانمارك بأهمية هذه البعثة والفوائد المتوخاة منها.

في صباح اليوم الرابع من شهر كانون الثاني/يناير من عام 1761م ركب الباخرة الدانماركية «غرينالد Greenland» خمسة من العلماء المتخصصين بمختلف فروع العلوم والمعارف، مع خادمهم الدانماركي، وقد جمعهم أمرٌ وحفزهم هدف صمّموا على تحقيقه، مهما كانت الظروف والأحوال، مدفوعين بالأسطورة التي تتحدّث عن بلاد اليمن السعيدة وبلاد العرب، فاتجهوا نحو عالم مليء بالمجاهيل والمخاطر، غريب عنهم في الطباع والتقاليد واللغة، وفي الملبس والمأكل والجنس والدّين.


ISBN 978-9933-493-02-8



AL Warrak Publishing